الكتاب : **الرسائل والمقالات**
المؤلف : السيد جمال الدين الحسيني الأفغاني
إعداد وتقديم : سيد هادي خسرو شاهي
الطبعة الأولى ـ القاهرة
تاريخ النشر : ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م

حقوق الطبع والاقتباس محفوظة

القاهرة ـ كوالالمبور ـ چاكارتا ـ لوس أنجلوس

تليفون وفاكس : ٢٥٦٥٩٣٩ ـ ٤٥٤٤٦٧ ـ تليفون : ٤٥١٩٦٢٨

Email : adel almoalem<shoroukintl@Yahoo.com>

الآثار الكاملة

(٣)

السيد جمال الدين الحسيني الأفغاني

الرسائل والمقالات

إعداد وتقديم

سيد هادي خسرو شاهي

مكتبة الشروق الدولية

الفهـرسـت

الموضـــوع **الصفحة**

مقـــــدمة: ٩

١ ـ العلة الحقيقية لسعادة الإنسان. ١٥

٢ ـ المهدية والمهدي السوداني ٢٧

المهدية ١. ..... ٢٩

المهدية ٢. ..... ٣٥

المهـدية ٣. ..... ٤٠

٣ ـ باب ما يؤول إليه أمر المسلمين في المستقبل. ٤٥

٤ ـ الحكومة الاستبدادية. ٥٥

٥ ـ «أحرار» يقتلون الحرية. ٦٧

٦ ـ بابيـــة!. ٧٧

٧ ـ دائرة المعارف. ٨٥

٨ ـ خطبة بالإسكندرية. ٩٧

٩ ـ السياسة الإنجليزية في الممالك الشرقية. ١٠٥

الموضـــوع	الصفحة
١٠ ـ أسباب الحرب بمصر.	١٠٩
١١ ـ الحق والباطل.	١١٥
١٢ ـ شباب الإسكندرية.	١٢٥
١٣ ـ المخاطبة بين الإنسان والهرة!	١٢٩
١٤ ـ منافع الوفاق ومضار الشقاق.	١٣٧
١٥ ـ الإنجليز فى الهند ومصر.	١٤٣
١٦ ـ المسألة الهندية.	١٤٩
١٧ ـ الشرق والشرقيين.	١٥٧
١٨ ـ العجب.	١٦٩
١٩ ـ نبذة من مناظرة خيالية.	١٧٣
٢٠ ـ الرد على رينان (حول الإسلام والعلم).	١٧٧
الظروف المحيطة بالرد.	١٨٠
محاضرة رينان.	١٨٤
رد الأفغاني على رينان.	١٩٠
الإسلام والعلم.	١٩٢
ترجمة مغرضة.	٢٠٠
٢١ ـ الإسلام والعلم.	٢٠٥
وثـائـق.	٢٠٩
فهرس: الأعلام ـ الأماكن.	٢١٩

رسـائل ومقـالات

مجموعة «رسائل ومقالات» به زبان عربي، درواقع دومين مجموعة از مقالات وآثار: فكرى، فرهنگى، سياسى واجتماعى سيد جمال الدين حسينى ـ اسد آبادى است كه به تناسب زمان ودر مكان هاى مختلف از جمله: هند، ايران، مصر، افغانستان، فرانسه وانگليس، آنها رابه رشته تحرير در آورده كه در جرائد ومجلات آن دوران وآن كشورها، به چاپ رسيده است.

مجموعة اول «رسائل ومقالات» كه شامل تقريبًا تمامى مقالات ورساله هاى بدست آمده سيد به زبان فارسى است، چندى پيش تحت همين عنوان: «مجموعة رسائل ومقالات» در ۳۲۰ صفحه ودر ضمن همين سلسلة: «الآثار الكامله» ـ مجموعه آثار ـ منتشر گرديد ومورد توجه واستقبال اهل علم وفضل ودوستان حق وحقيقت واقع گرديد.

اينكـ وبراى نخستين بار مجموعة تقريبًا كاملى از مقالات ورساله هاى عربى سيد (كه هيچكدام از آنها در مجموعة فارسى نيست) در اختيار علاقمندان قرار مى گيرد و البته اين مجموعة عربى، غير از مجموعة ديگرى از چند رساله وبحث سيد به عربى است كه با توجه به موضوعات فكرى ـ فلسفى آنها، تحت عنوان: «رسائل فى الفلسفة والعرفان» با تحقيق ومقدمة اينجانب، چندى پيش چاپ ومنتشر كرديد ودر عرض مدت كوتاهى، به چاپ دوم رسيد وچاپ دوم آن، با اضافاتى (۳۲ صفحه) شامل دو مقدمه تحليلى ويكـ ملحق تحقيقى، يكـ ماه پيش از سوى «مركز بررسيهاى اسلامى» قم، انتشار يافت.

البته همانطور که اشاره شد، مقالات این مجموعه ـ رسائل ومقالات ـ تاکنون بصورت یک کتاب مستقل چاپ نشده است وبلکه بعضی از آنها، برای نخستین باردر سالهای اخیر از زبانهای فرانسه وانگلیسی به عربی ترجمة شده ودر بعضی از مجلات عربی چاپ اروپا، منتشر گردیده است که اینك به یاری خدا، مجموعة کامل آنها، یکجا ودراین مجموعة، در اختیار عموم قرار می گیرد.

در مورد منابع ومأخذ اصلی مقالات این مجموعة، علاوه بر اشاره های گذرادر پاورقیها، بزودی در کتاب مربوط به «آثار سید» به تفصیل بحث خواهد شد واکنون به دلائلی، از ذکر آن منابع، خودداری می شود.

* * *

. . . هدف نخستین ما از نشر این آثار: «الآثار الکاملة» ـ مجموعة آثار ـ درواقع جمع آوری وحفظ مکتوبات ومقالات سید جمال الدین حسینی است که متأسفانه در گذشته، توجهی به این امر نشده ودر جمع آوری وتحقیق آنها، کوتاهی بعمل آمده است.

پس از این مرحله، امیدواریم که توفیق نقد وارزیابی، بررسی وپژوهش این آثار فرار برسد ودانشمندان وفضلای حوزه ها، این آثار را ـ «بمثابه ادبیات اسلامی» یک قرن ونیم پیش که موجب حرکتی بزرگ: انقلابی ـ اصلاحی، در اغلب کشورها شرق ویا مسلمان نشین شده است ودر واقع نشان دهنده، چگونگی اندیشه های یک متفکر بزرگ مسلمان است ـ مورد تحقیق وتدریس در حوزه ها وحلقه های درسی، قرار دهند.

استاد محمد رضا حکیمی درباره کتاب «العروة الوثقی» ودیگر آثار سید می نویسد: «این کتاب عروه اجتماعی وامثال آن، باید جزوکتب درسی حوزه ها قرار گیرد وهمینگونه روحانیت اسلام وبویره طلاب جوان باید درباره سید جمال الدین مطالعات بسیار داشته باشند. چراباید افکار اجتماعی ـ اسلامی سید

جمال الدين در حوزه های علميه، درسی نباشد ، ومورد رسيدگی وتأسی قرار نگيرد؟» .

از خدای بزرگ می خواهيم كه ما رادر اين كار خير ياری دهد «ونيت» مارا «خالص» برای «خود» بدارد . انه سميع مجيب .

سيد هادی خسروشاهی

قم ـ مركز بررسيهای اسلامی

ربيع الأول ١٤٢١هـ

الرسـائل والمقـالات

إن مجموعة «الرسائل والمقالات» التي نضعها بين أيديكم باللغة العربية، هي المجموعة الثانية من مقالات وآثار السيد جمال الدين الحسيني الأفغاني، الفكرية والثقافية والسياسية والاجتماعية وقد قام السيد بكتابتها في فترات زمنية مختلفة وأماكن عديدة كالهند وإيران ومصر وأفغانستان وفرنسا وبريطانيا وتمت طباعتها ونشرها في صحف ومجلات ذلك العصر، في البلدان المذكورة.

المجموعة الأولى التي تتضمن تقريبًا كافة مقالات ورسائل السيد الموجودة باللغة الفارسية، تم إصدارها قبل فترة تحت عنوان «مجموعة رسائل ومقالات» في ٣٢٠ صفحة بإطار سلسلة «الآثار الكاملة» وكانت محط اهتمام وترحيب أهل العلم والفضلاء ومحبي الحق والحقيقة.

والآن وللمرة الأولى، يسرنا أن نقدم للراغبين بالاطلاع على أعمال السيد، المجموعة الكاملة تقريبًا، لمقالاته ورسائله ـ غير المتوافرة في المجموعة الفارسية ـ وطبعًا تضاف هذه المجموعة، إلى مجموعة أخرى من رسائل وأبحاث السيد بالعربية، سبق وأن نشرناها قبل فترة تحت عنوان: «رسائل في الفلسفة والعرفان» مرفقة بدراسة ومقدمة وخلال فترة وجيزة قام «مركز البحوث الإسلامية ـ قم» بإصدار الطبعة الثانية منها مع إضافة ـ ٣٢ صفحة ـ تضم مقدمتين تحليليتين وملحقًا إضافيًا يتضمن دراسة جديدة حول رسالة «مرآة العارفين» والنسخة الخطية الأخرى التي وجدناها في مركز وثائق وزارة الخارجية، للجمهورية الإسلامية في إيران.

وكما أشرنا فإن مقالات هذه المجموعة ـ الرسائل والمقالات ـ لم تصدر، على شكل مجموعة واحدة وبكتاب مستقل، إذ إن بعضًا منها ترجم للمرة الأولى في

السنوات الأخيرة، من اللغتين الفرنسية والإنجليزية إلى العربية ونشر في بعض المجلات العربية الصادرة في أوروبا وها نحن بعون الله، نضع الآن المجموعة الكاملة منها، بين يدي القراء الأعزاء.

أما المصادر والمراجع الرئيسية لمقالات هذه المجموعة، فقد أشرنا إلى بعضها، بصورة عابرة في الهوامش وسنتناولها بالتفصيل في الكتاب الخاص الذى سنصدره حول: «آثار السيد» وقد امتنعنا عن التطرق إلى هذه المصادر، حاليًا لأسباب خاصة!

وفي الحقيقة إن هدفنا الأول من إصدار «الآثار الكاملة» لم يكن سوى جمع وحفظ الآثار والمقالات للسيد جمال الدين الحسيني والتي - ويا للأسف - لم يكترث بها العلماء في السابق ولم يجر جمعها ودراستها أو ترجمتها إلى اللغات الأخرى.

بعد هذه المرحلة، يحدونا الأمل بأن الوقت قد حان لنقد وتقييم هذه الآثار فينبرى العلماء والفضلاء في الحوزات العلمية، بدراستها أو ترجمتها وتدريسها في الحلقات الدراسية، لأنها تعتبر بحق بمثابة «الأدب الإسلامي الأصيل» الناتج من الثقافة الإسلامية الغنية والتي أدت إلى قيام حركة إسلامية - إصلاحية كبرى في أغلب بلدان الشرق والبلاد الإسلامية إذ إنها في الحقيقة عصارة أفكار أحد أبرز المفكرين الإسلاميين الكبار!

يقول الأستاذ محمد رضا حكيمي حول آثار السيد و«العروة الوثقى»: «إن هذا الكتاب - العروة الاجتماعية وأمثاله - ينبغي أن يدرس في الحوزات العلمية كما أن على رجال الدين المسلمين وخاصة الطلاب الشباب، أن يقوموا بإعداد دراسات كثيرة حول السيد جمال الدين... لماذا لا تدرس الأفكار الاجتماعية والإسلامية للسيد جمال الدين في الحوزات العلمية ولا تكون قدوة ونبراسًا للجيل الصاعد؟».

... نسأل الباري عز وجل، أن يأخذ بأيدينا لإنجاز هذا العمل الخيري وأن يجعل «نوايانا»، «خالصة» له جل وعلا. إنه سميع مجيب.

سيد هادى خسروشاهى

قم - مركز البحوث الإسلامية - ربيع الأول ١٤٢١هـ

١

العلة الحقيقية لسعادة الإنسان

العلة الحقيقية لسعادة الإنسان

إن الممكن بالإمكان الخاص (وهو الذى لا يلزم من وجوده ولا من عدمه محال) يكون وجوده بوجود علته وعدمه لعدمها، ولا ريب في أن السعادة من الماهيات الممكنة بالإمكان الخاص، وأنها العلة الغائبة لحركة كل فرد من أفراد الإنسان، حسية كانت تلك الحركة أو معنوية إذ لو لوحظت مساعيه آناء الليل وأطراف النهار، وأخذه بوسائل الحرف من زراعة وصناعة وتجارة، وجده في تحصيل العلوم والفنون، وارتكابه المصاعب، في نيل المراتب والمناصب، لما وجد لها من باعث أو داع سوى طلب السعادة، مع أنك لا تجد من نالها أو دنا منها، ولو تنقل في مراتب الشئون، وتقلب في درجات التطورات، وما ذلك إلا لعدم تحقق علتها، فعلينا أن نبحث عن تلك العلة وعن الأسباب التي أوجبت عدم تحققها، حتى يتبين وجه ضلال طلاب السعادة عن أن يصيبوها فنقول:

إذن بين السعادة والصحة شبه كلىّ، فكما أن صحة الجسم هي نتيجة ومعلولة للتناسب الطبيعي بين أعضاء ذلك الجسم وجوارحه وكمال الاعتدال فيما تكونت عنه تلك الأعضاء، وحسن قيام كل عضو منها بأداء وظيفته مع مراعاة اللوازم والشروط الخارجية من الزمان والمكان والمطعم والمشرب والملبس فيكون زوالها لزوال هذه الأمور كلها أو بعضها. كذلك سعادة الإنسان هي معلولة للتناسب الحقيقي في الاجتماعات المنزلية، وقيام كل من أركان المنزل بأداء وظيفته، وللتعادل التام في الائتلافات المدنية بأن تكون المدينة فيها من الحرف والصنائع ما يكفيها مؤنة الافتقار من دون نقص أو خروج عن حد حاجتها، مع حسن التعامل بين أرباب تلك الصنائع، وأن تكون أحكامها تحت قانون عدل تساوى فيه الصغير والكبير، والأمير والمأمور، وللارتباطات العادلة بين الدول بأن تقف كل دولة عند حدها،

ولا تتعدى على حقوق غيرها، وأن يمهد سبيل التواصل بينها وبين باقي الدول لكمال التعاون والتوازر بين نوع الإنسان وانتفاع كل من الآخر، فيكون حصولها على السعادة بحصول تلك الأمور وفقدها لفقد جميعها أو بعضها.

وهذه الأمور، وإن كانت ممكنة الحصول، وجد الناس في التماسها ما استطاعوا إلا أن هناك مانعا من الوصول إليها، وهو اعتقاد كل كمال نفسه ونقص غيره، ونظره إلى أفعاله بعين الرضى وإلى أفعال غيره بعين السخط، وزعمه أنه ما حاد عن حد الاعتدال ولا أخل بشيء من واجباته وشئونه، ولا تقاعدت همته عن أداء وظائفه في العالم الإنساني، ويتمحل لإثبات ذلك بما تسوله له نفسه من الحجج والبراهين، وإن أصابه العناء، ونزل به الشقاء، حسبهما من تعاون الغير فيما يلزمه وإهماله ما يجب عليه، مبرئا نفسه من أسباب ذلك، حتى لو أغفل شأنًا من شئونه يزعم أنه قد سدت أبواب الإمكان، وتعذر عليه القيام به، ولو انتهك محظورا من محظورات لادعى أنه لا اختيار له فيه، وإنما الضرورة هي التي ساقته إلى ارتكابه، فهو مجبور لا مختار، مع أنه لا يلتمس للغير عذرا فيما يفوته أو يقع منه، ولو كان في نفس الأمر مجبورا. ومن ثم وقع التضارب في الآراء والتدافع في الأفعال والحركات، وعمل كل على نقيض الآخر، فارتفع التناسب، وانعدم التعادل، وذهب الارتباط.

انظر إلى حال الآباء مع الأبناء، والسادات مع الخدمة، كيف أن كلا منهم، مع علمه بأن السعادة المنزلية إنما تحقق بأدائه ما يجب عليه، وجعل حركته من متممات حركات الآخر، يخالفه في أفعاله، ويضاده في آرائه، معتقدا أنه لو لم يقصر ذلك الآخر في أداء الحقوق المفروضة عليه، لاستقرت الراحة المنزلية، وارتفع العناء إلى حال المشتركين في المدينة فإن كل واحد مع جزمه بأن الراحة والنجاح إنما يكونان بإحكام الصنعة وتهذيبها وحسن التعامل. وكف يد الشر والخيانة، وضبط العهود والمواثيق، واجتناب الكذب والاعتصام، يحبب الصدق والوفاء لا يرى نفسه مخلا بشيء من ذلك وإن أخل بجميعه، ويزعم أن زوال السعادة المدنية إنما جاء من تهاون الآخرين.

وتدبر حال الملوك مع رعاياها ترى كلا منهما يرمي الآخر بالإغراق وعدم

الاعتدال، ويتهمه بانتهاك المحارم والحقوق، ويبرئ نفسه من نسبة شيء من ذلك إليها.

فالملوك فضلا عما رسخ في نفوسهم من أن رتبتهم الملوكية، إنما هي رتبة سماوية ساقتها إليهم يد العناية الإلهية، بسبب طيب عنصرهم، وطهارة طينتهم، يعتقدون أن لا قوام للرعية بدون وجودهم، وأن لا غنى لها عنهم، إذ هم يحفظون أموالها، ويحقنون دماءها، ويوفون لكل ذي حق حقه، وينتقمون للمظلوم في أموال الرعية ودمائها، وأنه يجب عليها طاعتهم، والخضوع لسطوتهم وسلطتهم، وامتثال أوامرهم واجتناب نواهيهم، ويرمون الرعية بالتقصير فيما يجب عليها.

والرعايا يخاطبونهم قائلين: لا مزية لكم علينا كما زعمتم، ولستم أطهر عنصرا، ولا أطيب طينة، بل نراكم أناسا استولى عليكم حب الرئاسة وأسرتكم الشهوة واستعبدكم الهوى، فاستمالكم إلى سلب راحتكم وراحة رعاياكم، حرصا على التغلب، وطمعا في توسيع دائرة السلطة، وكسب الافتخار مينًا، وأما اعتقادكم أن لا قوام لنا إلا بكم فأنى لكم صدق هذا الاعتقاد وقد أصبحتم كلا[1] على كواهلنا: نحن نغرس ونحرث، ونغزل ونحوك، ونفصل ونخيط، ونبني ونشيد، ونخترع الصنائع، ونتفنن في المعارف، وأنتم تأكلون وتشربون، وتلبسون وتسكنون، وتتمتعون بلذة الراحة. وأما ما تعللتم به من حفظ أموالنا وحقن دمائنا إلى آخر ما ادعيتم، فذلك إنما نشأ عن العظمة والكبرياء اللذين تثبت أصولهما في نفوسكم، أفلا تعلمون أن الحارس والمرابط إنما هو منا، وأن الحافظ والحاقن والمنتقم إنما هو القانون والشريعة الحقة. وما أنتم إلا منوطون بحفظها، والعمل في الناس بها. فإن قمتم بذلك على وجه الاستقامة كان لكم علينا ما يقوم أودكم، فكيف ساغ لكم أن تلعبوا بأموالنا، وتعبثوا بدمائنا، وتلقوا بنا في هاوية الشقاوة، ثم تبتغوا طاعتنا و امتثالنا، وترمونا بالتقصير والتهاون فيما وجب علينا.

وذلك الذى ذكرناه فيما إذا لم يكن الملوك من المتغلبين المباينين للرعايا جنسا ومشربًا، وأما المتغلبون من الملوك، والمتغلب عليهم، فكل منهما يزعم فوق ما ذكر

---

(١) الكل (بفتح الكاف وتشديد اللام): التعب، أو الثقل.

أنه الوسيلة لمنفعة الآخر والواسطة لمصلحته، وأن الآخر قابل حسنته بالسيئة، ومنفعته بالمضرة.

مثلا، إن الحكومة الإنجليزية المتغلبة على الهنود تخاطبهم بقولها: إني عمرت لكم المدن كـ(بمباي) و(كراجي) وأمثالها، وزينتها بالأبنية الشاهقة، والقصور الشائقة، ووطأت شوارعها، ووسعت مسالكها، ورقشتها بالأغصان، وزخرفتها بمروج وبساتين، ومهدت لكم سبل التجارة، وسهلت لكم أسباب الزراعة، وفتحت أبواب الثروة بما مدت من الأسلاك البرقية في أرجاء بلادكم، وأنشأت من الطرق الحديدية في أنحائها، وحفرت من الترع والأنهار، ووضعت من القناطر، وكذلك أسست لكم المدارس، ورفعت عنكم ظلم النوابين وقهر الراجاوات، وأنتم مع ذلك أبيتم إلا الشقاق والنفاق، ونبذ الطاعة وسلب الراحة...

وان الهنود يجيبونها متظلمين مستغيثين منها قائلين لها: إنك ما عمرت تلك المدن إلا بعد أن خربت بلادا كانت زينة الأرض وفخار الأبناء: (شيو) و(وشنو) و(كهكلي) و(مرشدآباد) و(عظيم آباد) و(أكبرآباد) و(إله آباد) و(دهلي) و(رايبود) و(فيض آباد) و(لكهنو) و(حيدرآباد) وغيرها من البلدان، وإنك ما مددت الأسلاك البرقية، ولا أنشأت الطرق الحديدية، ولا حفرت الترع والأنهار، ولا وضعت القناطر، إلا لنزف مادة ثروتنا، وتسهيل سبل التجارة لساكني جزيرة بريتانيا[1] وتوسيع دائرة ثروتهم، وإلا فما بالنا أصبحنا على فقر وفاقة، وقد نفدت أموالنا، وذهبت ثروتنا، ومات الكثير منا يتضور جوعا؟ فإن زعمت أن ذلك لنقص في فطرتنا، وضيق في مداركنا، فيا للعجب من أبناء (بريتوس)[2] الذين مضت عليهم أحقاب متطاولة يهيمون في أودية التوحش والتبربر، إذ يعتقدون النقص وعدم الاستعداد في أولاد (برهما) و(مهاديو)[3] مؤسسي شرائع الإنسانية وواضعي قوانين المدنية.

---

(١) المقصود: بريطانيا، وقد يسميها السيد بالجزيرة تصغيراً من شأن بريطانيا الكبرى!! كما كانوا يسمونها!

(٢) أي البريطانيين.

(٣) برهما ومهاديو يشيران إلى الهنود في مواجهة البريطانيين.

وأما المدارس التي تمنين علينا بتأسيسها فلم تكن لمصلحة تعود علينا، إذ لو كانت لذلك لاحتوت على العلوم والفنون والصنائع، مع أنها لم تنشأ إلا لتعليم اللغة الإنجليزية المتعجرفة الخشنة لأبناء اللغة (السنسكريتية)، اللغة المقدسة السماوية، حتى تستميلهم في إدارة مصالحك في تلك الممالك الشاسعة.

وأما دعواك رفع ظلم النوابين وقهر الراجوات عنا، فمما يضحك الثكلى، ويبكي المستيئس الذي جاءته البشرى، فإن الظلم إذ ذاك كان قاصرا على البعض، وظلمك الآن قد عم وطم، وإن الثروة والأبهة والجلالة والشأن التي يزدهي بها الآن أهالي بريتانيا كان المتمتع بها وقتئذ أبناء وطننا، إذ النوابون والراجوات وغيرهم من الأمراء والكبراء، وحاشيتهم، وخاصتهم، كانوا من أبنائنا ومشاركينا في الجنسية. وكنا نتيه بهم فخارا على سائر الممالك والأقطار، فكيف بك أن تمني علينا بما مننت زوراً ومينًا[١]. وإنا لا نراك أيتها المتغلبة علينا إلا كالعلق[٢] مصصت دماءنا، بل كالسلاخ سلخت جلودنا لتتخذيها أحذية لنعال البريطانيين. على أنك لم تكتفي بهذا وذاك بل تريدين أن تستعملي عظامنا النخرة لتصفية السكر في معاملك.

وتبصر في شأن الملوك بعضها مع بعض فإن كل واحد منهم يرى بما أقيم من الحجج القاطعة أنه على صراط العدل وحد الاستقامة لا يقدم على محاربة، ولا يحجم عنها، ولا يضع غرامة، أو يأخذ من ممالك الآخر شيئا إلا وهو في ذلك محق عادل، مثلاً: ملك الروسيين[٣] يحتج لحرب العثمانيين بأن أنين النصارى من رعاياهم قد ذهب براحته، وتجافى به عن مضجعه وحرك فيه حاسة الشفقة حتى دعته الرحمة الإنسانية للأخذ بناصرهم واستنقاذهم من أيديهم، وتحريرهم من رق عبوديتهم، من . . . والعثمانيون يدحضون حجته قائلين (أولا) لو كنت ممن تحركهم الشفقة والرحمة لكان الأحق بنيلها رعاياك المتحدون معك في المذهب من أهالي (لهستان)[٤]، فما دعواك هذه إلا محض الرياء والمواربة. و(ثانيًا) إننا لا

---

(١) المين: الكذب.

(٢) العلق: نوع من الديدان مصاص للدماء يعيش في الماء الآسن.

(٣) يشير إلى قيصر روسيا في حربه مع تركيا التي اشتعلت عام ١٨٧٧.

(٤) بولندة.

نعامل رعايانا إلا كمعاملة الآباء للأبناء بدون تفرقة بين مذهب ومذهب، وجنس وجنس. وأوضح دليل على ذلك بقاؤهم على مذهبهم، حافظين للغاتهم وجنسيتهم، ولو أننا كنا نفرق بين المذاهب والأجناس كما تدعي لحملناهم على رفض مذاهبهم، وتغيير لغاتهم، وكنا قادرين على ذلك في وقت لم يكن لك فيه اسم ولا رسم، بل لم تكن شيئا مذكورا.

وكذلك إمبراطور الفرنسيين بما ثبت عنده من البراهين البينة على طمع الجرمانيين وحرصهم وشرههم يرى لنفسه الحق في افتتاح الحرب عليهم. وإمبراطور الألمانيين بما تحقق لديه من كبر الفرنساويين وعجبهم، ومجاوزتهم الحد في أطوارهم، يحسب أن من الواجب عليه أن يضع عليهم غرامة باهظة، ويتسلط على قطعة واسعة من بلادهم لتذليل نفوسهم، وإضعاف قوتهم، ليدفع بذلك شرهم، ويأمن على نفسه وأمته من تعديهم.

ودقق النظر في شئون العقلاء والحكماء، وذوي الآراء والمذاهب الذين يعتقدون أن الحق واحد في نفس الأمر والواقع، لا يتعدد، كيف أنهم بعد اتفاقهم على أن القواعد المنطقية هي ميزان النظر، وبها يعرف صحيح الفكر من فاسده، قد انتهج كل واحد منهم منهجا واتخذ مشربا يناقض به الآخر، ويعتقد أن دلائله المؤدية هي المنطبقة على ذلك الميزان وأن لا انطباق لدلائل غيره عليه.

وارجع البصر إلى أحوال السارقين والقاتلين ونحوهم من مرتكبي الفواحش والشناعات في العالم الإنساني ترى أنه لا يصدر عمل من هذه الأعمال المجمع على قبحها من فاعلها إلا بسبب هذه الخلة الذاتية، أعني اعتقاده كمال نفسه والنظر إلى أعماله بعين الرضى ـ ضرورة أن الفعل إنما يكون بعد الإرادة، التي لا تكون إلا بعد ترجيح الفعل على الترك ورؤيته خيرا منه، وهو عين الرضى به.

ومن غرائب آثار هذه الخلة إبرازها لحقيقة واحدة بصور مختلفة في نظر شخص واحد على اختلاف مراتبه وشئونه، فإنك ترى زيدا من الناس مثلا وهو في رتبة دانية رءوفًا بالفقراء، رحيما بالضعفاء، شفيقا على المظلومين، ذاما للبخل وللشح، مادحا للكرم والسخاء، مهتما بقضاء حوائج ذوي الحاجات، مدعيا للعفة، كارهًا

للانكباب على الشهوة، مستهزئًا بذوي التكاثر والتفاخر، مبغضا للكبرياء، متنفرا عن الارتشاء، مشمئزا من الإهمال في المصالح العامة، والتهاون في الواجبات، مستهينًا بالمستبدين بآرائهم، المعجبين بأقوالهم وأفعالهم، مستقبحا تقديم المفضول على الفاضل لغرض يعود على ذاته، مستبشعًا لإعطاء المراتب لغير أهلها وحرمان مستحقيها منها، لائما على الغضب وإسراع العقوبة، مستفحشًا للسفاهة والبذاء، محبا للوطن، محاميا عن الحرية، زاعما أنه لو آل الأمر إليه لقام بصلاح العالم. وإذا ارتقى إلى رتبة سامية تجده قسى القلب على الفقراء، زاعمًا أن التكفف صناعة اتخذها أرباب السفالة والبطالة هربًا من عناء الكسب ـ جافي الطبع على المظلومين، مستدلا بأن المتظلمين أولو مكر ودهاء (أو رياء) يعلنون خلاف ما يسرون، ويستترون تحت حجاب المسكنة والالتجاء للتغلب على حقوق غيرهم، بخيلا، شحيحا، متمسكا في ذلك بأن من مقتضيات الحزم أن تحرز الأموال، وتودع المخازن لوقت اللزوم أو (إن الكرم والسخاء قبيحان عند السويليين من الإفرنج)، متوانيا في الأخذ بيد المحتاجين متعللا بتراكم الأعمال عليه في وظيفته المهمة، وعدم تمكنه من إسعافهم، شرها شهويا، محتجا بأنه بشرهه وانصبابه إلى الشهوة يؤدي حق الطبيعة ـ فخورا برتب وشئون ساعده على نيلها البخت والصدفة، بدون استحقاق. مع أنه ما أدى حقها ساعة من دهره مرضيًا نفسه في ذلك بكلمة «العبد العاجز» أو (افتخار أو لمون)[1] متكبرا، يظن أنه وقور من الواجبات، وأن عليه إقامة الحجاب على بابه، والذائدين عن أعتابه، قياما بحق رتبته ولازم شأنه ـ مرتشيا يقنع نفسه بأن ما يأخذه حق تبيح له الشريعة أخذه إما لأنه جعالة على عمله أو هدية من صديق، مهملا في المصالح العامة، متهاونا فيها، معتذرا بأنه من آحاد الناس، ليس في طوعه تقويمها. وما من مساعد يعاضده عليها. وقد أدى الواجب على شخصه، مستبدا برأيه، معتقدا أنه قد بلغ من العقل والدراية إلى حد تنحط دونه

(١) كان السيد رحمه الله يملي وقلما كتب بيده مقالا. وكان تلاميذ كاللقاني وأديب إسحق يكتبون كل ما يقوله حتى الكلم والأمثال العامية التي يمزج بها الكلام عادة كهذه الجمل في الموضعين، وكانت ذائعة في معاشري الحكام من الترك، ولكن أكبرهم الأستاذ الإمام كان يتصرف في العبارة ويجيز ذلك السيد. (هامش محمد رشيد رضا).

أما كلمة «لمون» العامية هذه فهي «ليمون» الفصيحة.

جميع أفكار العالم، ويقصر عن إدراك غايته مدى أنظارهم، مع أنه أعمى البصر والبصيرة، لا يرى ما تحت قدميه ـ مقدما للمفضول على الفاضل، مستندا إلى سلامة قلب ذلك المفضول ولين عريكته وطلاقة وجهه. أي أنه (يهزّ له القاوون)، وفي رواية (يمسح له جوخ) وأنه (سطري لجنابه العالي)، رافعا إلى أسنى المراتب من لا يليق لأدناها، حاسبا نفسه طبيبا روحانيا خبيرا بأخلاق العالم وطبائعهم، حكيما لا ينظر في أعماله إلا إلى المصالح العامة ـ غضوبا سريع العقوبة يحسبها سياسة وتدبيرا مدنيا ـ سفيها بذيئا، يرى أن الناس لا يستحقون سوى قبيح فعله وفحش قوله، ولا يدركون مزية الآداب، ولا يقدرون الأديب حق قدره، خائنا لوطنه، ساعيا في خرابه وإذلال أهله (كأقيا لتيس اليوناني) ويعد نفسه في ذلك مجبورا ملجأ، طالبا للاستعباد، متشبثا بأن الحرية لا تليق بالأهالي لعدم استعدادهم لها[١]، بل إنها مما يوجب فسادهم لو نالوها، آيسا من صلاح العالم[٢]؛ إذ يراهم ـ لنقص قريحته ـ ناقصي الاستعداد فاقدي القابلية، يزعم أنه لو كان لهم نوع من التهيؤ للإصلاح لأتمه لهم بسعيه واجتهاده.

ومن أغرب آثارها[٣] أن المتخلق بها، مع كونه متصفًا بأرذل الأخلاق وأشنع الخصال، يعمى عن أنه متصف بها. مثلا يكون قسي القلب، ويعتقد نفسه رحيما، ومتكبرا، ويرى نفسه متواضعا، وهكذا باقي الخصال مع أنه لو تلبس غيره بأدنى رذيلة لأدركها وشد عليه النكير فيها، حتى أنك ترى كل واحد «كأنه» قد جعل على إحدى عينيه نظارة معظمة (ميكروسكوب) ليقف على دقائق معايب معاشريه، وعلى الأخرى نظارة رصدية (تلسكوب) لئلا يفوته أعمال البعداء عنه، وعلى إحدى أذنيه موصلة الصوت (تليفون)[٤] لاستراق أخبار الناس كيلا يعزب عنه شيء من نقائصهم، وعلى الأخرى حافظة الصوت (فنوغراف) ليستحفظ

---

(١) الإشارة هنا قد تكون للخديو توفيق الذي صرح بمثل هذا القول.

(٢) البشر أو الناس.

(٣) الضمير هنا يعود إلى تلك الخلة، أو الاعتقاد بكمال النفس، أو ما نسميه: الغرور.

(٤) في عام ١٨٧٦ عرض الكساندر جراهام بل آلة تطورت فيما بعد إلى تليفون. ويبدو أن الأفغاني كان قد قرأ عن الاختراع في الصحف وقتها، وكذلك الحال مع الفونوغراف.

قبائحهم، لئلا يغيب عنه شيء منها، ويقتدر على استحضارها وقت الحاجة عندما يتحرك دولاب حقده وحسده، مع أن أقرب الأشياء إليه نفسه. وهو لا يرى شيئا من معايبها، فهو أعمى حديد البصر وأصم قوي السمع.

فتعسا لها من خلة قضت على نوع الإنسان بالاختلال وسوء الحال، وآذنته بالشقاء والعناء، وأوقعت الخبط في الأعمال والخبط في الأعمال والخلط في الأقوال، ولبست الحق بالباطل، والزائف بالصافي، والجيد بالرديء، وحسنت القبيح وقبحت الحسن، وأبرزت المعوج مستقيما والمستقيم معوجا.

ومن نظر بعين الحق وسبر الحقائق بنور البصيرة لا يجد لهذه الخلة (أعني اعتقاد كل كمال نفسه ونظره إلى أعماله بعين الرضى) علة وسببا سوى حب الذات، الذي هو غشاوة على عين العقل، تمنعه من استطلاع الحقائق على ما هي عليه، ووقوفه عند حد الصواب في سير الأفكار، بل هو متغلب على جميع الإحساسات النفسانية وحاكم على كلها بالتغيير. بل لا يختص حكمه بها إذ يتعدى إلى الإحساسات الطبيعية أيضا فإنك ترى مشوه الوجه مختل الخلقة رث الثياب الذي قد تجسدت عليه الأدران والأقذار إذا نظر إلى صورته بهذه الصفة الرديئة في مرآة مثلا لا يشمئز ولا يستنكر، وإذا وقع بصره على من بلواه في ذلك أخف من بلواه، انفعلت نفسه واستنفر واستبشع.

وهذا الوصف، أعني حب الذات، الذي هو علة الشقاء والعناء من الأوصاف اللازمة لذات الإنسان مادام موجودا. فلا ينفك الإنسان عنه ولا هو يزايله، فإذن لا حيلة ولا خلاص من بلاياه ونكباته إلا باستعمال الانسان عقله ورجوعه إليه في جميع أموره، والخروج من ربقة عبودية سلطان حب الذات ورفض أحكامه. وذلك أن يحكم على نفسه بما يراها عليه في مرآة غيره لا في مرآة نفسه (ما أجملك أيها الانسان المعجب في مرآة نفسك وما أقبحك في مرآة غيرك).

وهذا الذي ذكرناه هو العلاج الحقيقي والوسيلة العظمى لوقوف كل عند حده، وسعي كل لاستكمال نفسه، اللذين هما مدار السعادة.

ولسنا نذم حب الذات بجميع أنواعه. فإن منه ما قد يعود بسعادة على طائفة من الطوائف، أو أمة من الأمم، وهو حب الذات الداعي إلى طلب المحمدة الحقة[1] وهو الذي يرتقي بصاحبه إلى توجيه أفكاره وأعماله نحو المصالح العمومية بدون أن يطلب في ذلك شيئا سوى الحمد وخلود الذكر.

والسلام على من اتبع الهدى، ورجح العقل على الهوى.

* * *

(١) الحق مصدر يستوي في الوصف به المذكر والمؤنث والمفرد والجمع (هامش رشيد رضا).

٢

المهدية
و
المهدى السودانى

المهدية والمهدي السوداني

المهـــدية

(١)

في العام الفائت، كانت جريدة «المتصلب» «L'Intranrigeant» السباقة في تعريف الجمهور الباريسي على إحدى الشخصيات الأكثر أهمية وأحد أسمى العقول في العالم الشرقي، الشيخ الأفغاني جمال الدين، العدو اللدود الذي تلقاه إنكلترا في كل مكان، والذي يبدو أنه أدى إزاء إنكلترا قسم هنيبعل. ولنستعد هنا هذا الحدث الذي ذكره مراسلنا «فوكلان» «E. Vauquelin» في «ذكريات من الثورة المصرية». ذات مساء في مسجد الحسين في القاهرة، وأمام أربعة آلاف شخص، ألقى جمال الدين خطابا حماسيا، فضح خلاله، وبحس عميق، وقبل ثلاث سنوات، الهدف النهائي للسياسة الإنجليزية على ضفاف النيل. بعد يومين، وبناءً لطلب القنصل العام لإنجلترا، أوقف خطيب مسجد الحسين، وساقوه في مركب ونقلوه إلى جدة على شاطئ الجزيرة العربية. انكفأ جمال الدين حينها إلى داخل مقاطعة الحجاز، حيث لم يعد يسمع عنه شيء.

منذ بضعة أشهر، وصل الشيخ الأفغاني إلى باريس، وأعطانا ملاحظات ومعلومات عن الوضع في الهند التي مكث فيها عدة سنوات والتي تجول فيها من مدة قريبة، وقد أعجبنا بالفائدة المباشرة التي انطوت عليها هذه المعلومات (مقالة الأفغاني عن الهند نشرت في الصحيفة نفسها بتاريخ ٤ نيسان - أبريل ١٨٨٣).

واليوم شاء الأفغاني أن يقدم لنا دراسة عن المهدى الذي ثور الإسلام بظهوره في منطقة النيل الأبيض، والذي منذ فترة وجيزة كبد الجيش الإنجليزي - المصري، أشنع

هزيمة. هذه الدراسة ننشرها كما هي، وكما وصلت إلينا دون أية إضافة، ودون أي حذف. وليس هناك أحد أفضل من الشيخ الأفغاني المشهور، يستطيع أن يكتبها لأن أحدا لا يعرف العالم الإسلامي أفضل منه، ولأن أحدا لا يستطيع التكهن بالتبعات الخطيرة التي يمكن لأحداث السودان أن تلقاها في مصر وفي غيرها. وفيما يلي نص مقالة الأفغاني:

المهدي ليس نبيّا

«الشخص الغامض، محمد أحمد، الذي برز خلف اسم المهدي منذ عامين في السودان، والذي عبر قضائه شبه التام على الحملة العسكرية التي قادها الجنرال «هيكز» «Hicks» بدأ يشغل الرأي العام في أوروبا، ويستنفر بصورة خاصة الصحافة الإنجليزية التي تعكس، في الوضع الراهن للأمور، المشاعر الحقيقة للأمة. هذا الانتصار، الذي زرع الفوضى في وزارة الخارجية، يبدو أنه احتفظ للسيد «غلادستون» «Gladstone» في وادي النيل بنفس الثمار التي جناها اللورد «بيكونسفيلد» «Beaconsfield» في أفغانستان.

ومن ناحية أخرى، فتح هذا الانتصار الباب أمام مطامع الخديو السابق إسماعيل باشا، وكذلك أمام مطامع حليم باشا، فكل واحد منهما يعمل بنشاط للحصول على عطف إنجلترا، ولا يتوانى الواحد منهما أن يعد الإنجليز بخنق هذه الانتفاضة على شرط أن يؤكدوا له دعمهم للوصول إلى عرش الخديوية. أما بالنسبة لتوفيق فهو في وضع في غاية التعقيد وفي حالة تصبح عصيبة، يوما بعد يوم. نرى هذا الأمير البائس تحت رحمة احتمالين كلاهما مشئوم: احتلال الإنجليز النهائي لمصر، أو وصول المهدي إلى القاهرة. وتحت رحمة طموحين: طموح أبيه إسماعيل وطموح عمه حليم.

وإني أقترح أن أقدم في مقال لاحق بعض التقديرات الشخصية للمهدي من وجهة نظر سياسة، ومن زاوية مصالح القوى الاستعمارية ومصالح تركيا، وللتحدث عن الانطباع الذي يمكن أن يولده اسم المهدي في العالم الإسلامي، كما

سأتحدث عن نوايا إنجلترا إزاء هذه المسألة الخطيرة، وعن الربح الذي يأمل بتحقيقه الأشخاص الطامعون بالخديوية. لكنني سأكتفي الآن بتلخيص بعض الأحداث التاريخية التي هي من طبيعة تهم الجمهور وترشده حول المهدي، حول قوته لدى المسلمين، وحول طرائف المسلمين في الاعتقاد به، الأسباب التي أدت إلى هذه المعتقدات والأحداث ذات الطبيعة المشابهة والتي حصلت في الماضي، وأخيرا سأتحدث عما ينتظره الإسلام حاليا من المهدي.

المهدى كلمة عربية معناها: الملهم من الله لاتباع الصراط المستقيم - وهو ليس بنبي كما تزعم بعض الصحف، ولا يحظى المهدي لدى المسلمين إلا باعتباره واحدا من أبناء الرسول العظيم، تقي، ورع، تبعا للصراط الذي رسمه جده محمد، ويلتزم بالمذهب الإسلامي بأمانة. مهمته الإلهية تقوم على إلغاء البدع، والمناداة بالعدالة، وإقامة المساواة بين كل المؤمنين وبنشر اسم الإسلام، وجعله متصلا في كل أنحاء المعمورة. ويعبر عن المهدي بالعربية بعبارة: «قائم آل محمد» وهذا معناه: هو الشخص الذي من بين المنحدرين من النبي الكبير، سوف ينهض لدعم الإيمان الإسلامي. والاعتقاد بمجيء المهدي منتشر في كل الأصقاع الإسلامية دون أي تمييز بين الفرق. وهذا الاعتقاد راسخ لدى الشعوب الإسلامية إلى حد أنه مستمر منذ القرن الأول للهجرة.

الطبري وابن الأثير، المؤرخان الأكثر شهرة واحتراما لدى المسلمين ذكرا في كتاباتهما أن المؤمنين خلال منتصف القرن الأول للهجرة كانوا يقولون عن عمر بن عبد العزيز نسيب النبي وأحد خلفاء بني أمية الأكثر عدالة، بأنه إذا لم يكن المهدي المنتظر، فإنه لن يكون سوى يسوع ابن مريم الذي سيخرج قبل نهاية العالم. إن انتظار مجيء المهدي يتزايد كليا عند المسلمين في كل المرات التي يجدون فيها أنفسهم في ضيق، أو يرون أنهم مهددون في دينهم أو واقعون تحت سيطرة قوة أجنبية، وحيث يشبهون رجلا ضالا في ليلة حالكة الظلام وسط صحراء شاسعة، منتظرا بفارغ الصبر ظهور نجمة تقوده.

هذه المعتقدات مبنية على آيات وعلى أحاديث لا تمس وشديدة الاحترام،

منسوبة إلى النبي الكبير محمد (ﷺ) وقد وردت هذه الأحاديث في أكثر من كتاب، من بينها: المسند، للإمام أحمد بن حنبل السني، ومؤسس أحد المذاهب الإسلامية الأربعة، والصحيح للسيد علي الترمذي، ومسند «فردان» (كما ورد في النص الفرنسي في الجريدة: Firdano وابن ماجه إلخ..).

كل العلماء المسلمين، باستثناء ابن خلدون في مقدمته ونفر آخر محدود من العلماء أجمعوا على الاعتراف بأصالة هذه الأحاديث وصحتها. ويظهر للعيان من خلال هذه الكتب أن النبي العظيم محمد (ﷺ) تكلم عن المهدي في أماكن عديدة، حيث يدعوه حينا باسم المهدي وحينا باسم القائم. وقد قال: «لو لم يبق من الدنيا إلا يوم، لطول الله ذلك اليوم حتى يلي رجل من أهل بيتي يواطئ اسمه اسمي». (كما ورد في صحيح الترمذي، الجزء التاسع ص ٧٤ـ ٧٥. وثمة اختلاف بسيط في الترجمة الفرنسية للفقرة الأخيرة). وقال في حديث آخر: «القائم (المهدي) سيكون واحداً من ولدي وسيهبكم الخيرات بلا حساب». وفي حديث آخر: «سيمنحكم (المهدي) كنوزا رومية وستعطيه الأرض جم ثرواتها». (يمكن مقاربة هذين الحديثين الأخيرين بالحديث الذي أورده ابن حنبل في مسنده «يكون في أمتي المهدي (...) فتنعم أمتي في زمانه نعيما لم ينعموا مثله قط، البر منهم والفاجر، ترسل السماء عليهم مدرارا ولا تدخر الأرض من نباتها شيئا ويكون المال كدوسا). وفي حديث آخر (بحسب ترجمتنا للنص الفرنسي): «إذا امتلأت الأرض ظلما وجورا، وإذا أصبح المؤمن (المسلم) أكثر سواء من عبد، فانتظروا أن يظهر واحد من صلبي، المهدي».

(هذا الحديث يمكن مقاربته بالحديث الذي أورده ابن حنبل في مسنده: «لتملأن الأرض جورا وظلما فيبعث الله تعالى رجلا مني اسمه اسمي واسم أبيه اسم أبي..»). وقال أيضا: «أبشروا بالمهدي رجل من قريش من عترتي يخرج في اختلاف من الناس وزلزال فيملأ الأرض قسطا وعدلا كما ملئت ظلما وجورا». وقيل في موضع آخر: «إذا استولى عليكم بنو الأصفر (يلمح النبي هنا إلى قدامى الرومان) فانتظروا القائم من أهل بيتي» (لم أجد هذا الحديث بالعربية). وهذا حديث آخر أيضا: المهدي منا، ويكون اسمه اسمي (محمد) واسم أبيه اسم أبي

(عبد الله)، واسم أمه اسم أمي (آمنة). (لم أجد أيضا هذا الحديث بصورة حرفية).

وهناك عدة أحاديث أخرى من النوع نفسه، وتقطع، بطريقة لا تقل بداهة، باليقين بقدوم المهدي. أما بالنسبة للاستشهادات، التي استخدمها العديد من القديسين والتقاة، والتي تزعم أنها تلقت الوحي الإلهي والتي تثبت بأن المهدي أو القائم سوف يظهر في الشرق أو من الغرب، من مكة أو من الكوفة، وتحدد هذه الاستشهادات هذه الفترة أو تلك موعدا لخروج المهدي، وهي كثيرة ومتعددة إلى حد أنني لم أجد لزاما ضرورة الإسهاب فيها.

كل مسلم ينتظر المهدي

لقد خرج تحت اسم المهدي أو القائم مئات الأشخاص في كل القرون وفي كل البلدان الإسلامية. وإن كان غالبية هؤلاء لم ينجحوا لكن ذلك لم يمنع بعضهم من تأسيس ممالك حافظ عليها الأتباع طيلة قرون عدة. أبو مسلم الخراساني الذي قضى على خلافة بني أمية وشيد خلافة بني العباس، لم ينجح في حشد الجماهير وفي بناء جيش مهيب في «مرو» وفي غيرها من نواحي خراسان إلا بعد أن استعمل لنفسه اسم قائم آل محمد (المهدي). وقد استطاع بهذه الوسيلة أن يلزم الجمهور بإعلان أبي العباس السفاح خليفة. وهو أول خليفة من بني العباس وأحد أحفاد العباس عم النبي الكبير محمد.

إدريس الأكبر، أحد أحفاد محمد، والذي أقام مملكة الأدارسة في زمن هارون الرشيد، وبنى مدينة فاس، لم ينجح في ذلك إلا خلف اسم قائم آل محمد، وأيضا عبيد الله جد الخلفاء الفاطميين، فإنه بصفة المهدي هذه استطاع هذا الرجل الذي احتل القاهرة وسوريا والحجاز واليمن أن يبني ممالك واسعة وأن يشيد مدينة المهدية التي ما زالت تحمل اسمه حتى أيامنا هذه.

محمد، زعيم الموحدين - (الذين يعتقدون بوحدانية الله) - لم يستطع أن يجلب

المرابطين إلى نصرة قضيته ونشر فتوحاته حتى بلاد الأندلس تاركا لخلفائه مملكة شاسعة، إلا عبر ادعائه بأنه المهدي.

بكلمة وجيزة، خلف هذا الاسم (المهدي)، كم من رجالات الإسلام أنجزوا أعمالا باهرة ومعتبرة، وقادوا الأوضاع إلى تغيير جدي في عالم المؤمنين. رغم كل الذين أطلقوا على أنفسهم اسم المهدي وتعاقبوا وصولا إلى أيامنا الحاضرة، فإن المسلمين ما زالوا ينتظرون واحدا جديدا. الشيعة الاثنا عشرية، كالفرس مثلا، والذين يؤمنون باثني عشر إماما منحدرين بتعاقب من محمد، فهم وإن كانوا يتفقون مع السنة حول الجزم واليقين بمجيء المهدي، إلا أنهم يختلفون عنهم في تعيين شخصيته. فهم (الشيعة) يقولون بأن «محمدًا المهدي» هو ابن الحسن العسكري، التاسع (بل الحادي عشر) من بني أحفاد النبي الكبير، ويقولون بأن «محمدًا المهدي» ولد في سامراء (مدينة قرب بغداد)، في عهد الخليفة المتوكل العباسي. وأنه ذات يوم، وخشية من الإجراءات القاسية التي اتخذها الخليفة ضده قرر محمد المهدي وهو في الخامسة من عمره، الاختباء وخلال ستين سنة بقي على اتصال بمناصريه. هذا الاختفاء يدعوه الشيعة: الغيبة الصغرى. ويرى الشيعة أيضا أنه بدءا من هذا التاريخ قام بقطع صلاته مع أتباعه الذين يعتبرونه حيا حتى أيامنا. مقدرين مدة وجوده بأكثر من ألف سنة.

وتبعا لعقيدتهم، سوف يظهر المهدي هذا بين الركن (وردت خطأ في النص الفرنسي بعبارة الكك Kick) والمقام، في مكة، وسيجعل من الكوفة (بالقرب من بغداد) مكانا لإقامته، وسينشر سيطرة الإسلام من الشرق إلى الغرب. باختصار، مهما تنوعت هذا المعتقدات من ناحية الشكل، فإنه لا يقل صحة بأن كل مسلم ينتظر المهدي، ومستعد للسير خلفه وللتضحية بحياته وبكل ما يملك. المسلمون الهنود خاصة، ونظرا لمعاناتهم اللامحدودة وتحملهم أقسى العذابات وأطولها من جراء السيطرة الإنجليزية، فإنهم الأكثر انتظارا للمهدي بفارغ الصبر.

أخيرا، فإن سطوة المهدي في أنظار المسلمين تتبع فحسب النجاح النهائي الذي يقوى على تحقيقه، على أي حال، تلك كانت حالة كل الذين سبقوه.

المهـــــدية
(٢)

المقالة الثانية عن المهدي كما نشر في جريدة «L'Intransigeant» بتاريخ ١١ كانون الأول (ديسمبر) ١٨٨٣ . وفيما يلي تقديم الصحيفة للمقالة الثانية :

«ننشر هنا تتمة الدراسة القيمة التي شاء الشيخ جمال الدين أن يعطينا إياها حول المهدي والنتائج المحتملة لظهوره المنتظر في السودان، ونجد لزاما علينا التذكير بما سبق وقلناه منذ ثلاثة أيام : إن هذه الدراسة نشرت كما قدمت إلينا دون أي تعديل، فالشخص الذي كتبها مسلم، وهذا ما لا يمكن تغافله . هذا الرجل المسلم، يتحدث كابن مؤمن من أبناء الإسلام؛ ولذا فكرنا أن نحفظ لهذا العمل طابعه الخاص، وأن ندع الكاتب يتكلم بحرية» .

فيما يلي نص مقالة الأفغاني :

إن الهزيمة التي ألحقها محمد أحمد ـ بقواه غير المنظمة ـ منذ فترة وجيزة بالجنرال «هيكز» Hiks، أعطت نتيجتها بتبديد الشكوك التي أحاطت شخصيته من قبل سكان بعض مناطق السودان . أن انتصار «العبيد» رفع من شأن سطوته في أنظارهم إلى درجة أنهم باتوا يعتبرون ما أنجزه بمثابة معجزة .

إضافة إلى ذلك، ولد هذا الحدث لدى المصريين، الأمل بالتخلص من السيطرة الإنجليزية بمساعدة المهدي، ومن جهتهم، فإن مشايخ جامعة الأزهر بدأوا يطلبون المغفرة في أعقاب الفتوى التي تناولت محمد أحمد كدجال .

إن انتصار «العبيد» الذي كان له دوي واسع في العالم الإسلامي، أيقظ المشاعر

الدينية لدى كل شيوخ الطرق (الأخويات الدينية) مثل القادرية والنقشية (المقصود على الأرجح هو النقشبندية) والجلالية والسنوسية والشاذلية إلخ . . وهذه الأخويات تمارس سلطة كبيرة على أتباعها الكثيرين . هؤلاء الشيوخ لا ينتظرون سوى عمل إضافي باهر يمكن من وضعهم لحساب المهدي، كي يثوروا ويشكلوا قضية واحدة معه . من ناحية أخرى، فإن الجنود المصريين نظرا لكونهم مسلمين ويعتقدون تبعا لذلك بالمجيء الأكيد للمهدي، وواثقون أيضا أنهم بمقاومة محمد أحمد لا يخدمون مصالحهم ولا مصالح بلدهم، وبأن إنجلترا فقط هي التي ستستفيد بالطبع من أي خسارة قد يلحقونها به، لذلك لا يرغبون في أي حال من الأحوال بمقاتلة أي وحدة من وحدات المهدي المقاتلة .

قبل إنجاز أي مأثرة أخرى ـ وتلك معجزة جديدة ليست غير ممكنة، ونظرا للانتصار الذي حققه المهدي ضد عشرة الآف جندي نظامي، ونظرا للدعوات والنداءات التي أطلقها عن ذكاء إلى مشايخ القاهرة ومكة والمدينة، وقبل انتشار الهبات الدينية واستعداداتها في الشرق كما في الغرب، فإن الأتراك، برأيي، وحدهم قادرون، تحت اسم الخلافة، أن يصبحوا أسياد الموقف، وأن يستبقوا الاضطرابات الخطيرة . لكن القوى الأوروبية التي تنتهج سياسة غامضة النتيجة، وكذلك إنجلترا التي لا تخفي مقاصدها، تعارض بقوة أي تدخل تركي .

وإذا حقق محمد أحمد ـ انتصارا آخر ـ أي إذا احتل الخرطوم أو اقترب من تخوم مصر العليا، فإنه سينجم عن ذلك هبة عامة لدى كل السكان العرب الواقعين تحت السيطرة العثمانية، وستلقى تركيا صعوبة بالغة، نظرا لضغطها الحالي، في إخماد هذه الهبة .

وبدون شك، ستنشأ حركات أخرى في عدة نقاط من الأقاليم الواقعة تحت السيطرة التركية . سأذكرها هنا بدقة . من هذه المجموعات الإسلامية الجاهزة للانتفاض : الشيخ السنوسي وأتباعه، وهم كثيرون في طرابلس وبين البدو العرب القاطنين ساحل الحجاز ـ بنو حرب، وهم يشكلون قبيلة ذات شأن تقيم بين مكة والمدينة ـ العسير، بين الحجاز واليمن ـ الزيدية في صنعاء وكوكبان ـ داهي (لقب) الإسماعيليين في نجران من بلاد اليمن ـ محمد أبو (بل ابن) الرشيد في نجد، وقبائل

عنيزة وشمر على تخوم بغداد من الموصل حتى سوريا. كل هذه القبائل التي تهب في كل لحظة ضد تركيا بسبب عدم رضائهم عنهم، لن يطلبوا أحسن من انتهاز الفرصة التي يقدمها لهم المهدي في سبيل التخلص من الخليفة (السلطان). حينئذ، سيكون من المستحيل على العثمانيين الذين يعلنون اسم الخليفة ـ الوسيلة الوحيدة التي في حوزتهم لكي يحافظوا على سيطرتهم على مختلف السكان المسلمين ـ قلت سيكون من المستحيل على العثمانيين أن يخنقوا انتفاضة لا يمكن الاستهانة بنتائجها. فالمسلمون يعتقدون بالفعل أن الخلافة، شرعية كانت ـ أي في يد قريشي ـ واحد من قبيلة محمد ـ أو غير شرعية ـ أي بين يدي غاز، فإنه ينبغي لها أن تزول أمام ظهور المهدي، الذي سيكون الخليفة الحقيقي بالنسبة للمؤمنين.

إن مشايخ الأخويات الدينية، القادرية والشاذلية، هم أيضا، لن يعدموا وسيلة في هذه المناسبة كي ينظموا دعاية نشيطة، سوف يستصرخون المشاعر الدينية لأتباعهم لجرهم إلى الالتزام بالالتفاف حول المهدي هذا، الذي هو بالضبط جزء من هذه الأخويات.

هذه الانتفاضة التي ستحدث بدون أدنى شك، وبمجرد حصول انتصار آخر للمهدي، في كل البلاد العربية الواقعة تحت السيطرة العثمانية، وإن كانت تشبع رغبات إنكلترا التي تسعى إلى إضعاف هيبة الإسلام ولكنها (الانتفاضة) لن تتوانى عن وضع إنكلترا في حالة استنفار. إن مقاصد الإنجليز الخفية إلى هذا الحد أو ذاك، هي الإنهاك التدريجي لتركيا من أجل الاستيلاء بالتالي على أكبر حصة من ممتلكاتها. إن بريطانيا العظمى تغذي النوايا العازمة على تشكيل خلافة صغيرة في مكة، لصالح عشيرة بني عون وحيث إن أحد أعضائها هو حاليا شريف مكة، وذلك بهدف تمكينه من حيازة وسيلة قوية للسيطرة على كافة المسلمين. إن حصول انتفاضة مشابهة لتلك التي أتوقعها، ستكون حاملة الأذى لإنجلترا إلى حد أنها ستستدعي بالضرورة تدخل القوى الأوروبية ذات المصالح الجدية في الشرق. وعندئذ سيتاح لإنجلترا أن ترى كيف ستفقد الحصة الكبيرة التي تطمع بها عبر تقطيع أوصال الفريسة العثمانية. ولن يكون من المستحيل أن يتكون في الشرق ـ على أثر تعقيدات معينة قد تحدث في أوروبا وتمنع القوى المعنية بالأمر عن التدخل ـ مركز

خلافة مهمة للعرب. هذان الاحتمالان لا يقلان شؤما الواحد من الآخر بالنسبة للإنجليز.

ولكن ماذا؟ هل تأمل إنجلترا إذن بإجراءاتها المعتادة، أي بالخديعة والمكر، وعبر إعلانها عن الدخول إلى كل البلاد، وعبر إفصاحها المنافق عن رغبتها بجعل هؤلاء السكان سعداء، وبتوفير الأمان والرفاهية لهم، وذلك بعد أن غرست جذور الحقد في قلوب كل المسلمين، حين انتزعت من أيدي الإسلام أوسع وأغنى مملكة في العالم، أي هذه الإمبراطورية التيمورية ـ الهندية التي تضم حوالي ٢٥٠ مليون نفس، قلت هل تأمل إنجلترا بخنق صوت المهدي، الصوت الأكثر إدهاشا من كل الأصوات لأنه يتجاوز بالقوة حتى صوت الجهاد الذي يخرج من أفواه المسلمين كافة؟!

هل تعتقد إنجلترا بقدرتها على خنقه قبل أن يبلغ كل نواحي الشرق، من جبال هملايا إلى دولاغهير «Dawlaghir»، من الشمال حتى الوسط، مخاطبا مسلمي أفغانستان، وبلوشستان، والسند والهند، معلنا بصوت عال مجيء المخلص الذي ينتظره بفارغ الصبر كل طفل في الإسلام: المهدي، المهدي، المهدي!

وهل عن طريق ترك السودان للمهدي، كما تلمح إليه غالبية الصحف الإنجليزية، وعبر اتفاق سلام يعقد بين محمد أحمد والحكومة المصرية، وحيث الهدف الوحيد من ذلك هو الاستيلاء لاحقا على السودان (كما ذكره بالمناسبة قسم من الصحافة الفرنسية)، هل بهذه الطريقة تأمل إنجلترا بأن تنجح في إسكات الصوت المهيب للمهدي؟ سيكون ذلك قطعا من نسج الوهم، لأن الشخص الذي ينهض خلف اسم ديني معلنا نفسه نبيا أو المهدي، لن يتوقف إطلاقا في مسيرته، واثق تماما أنه إذا تراجع فإن الثقة التي منحها له مناصروه سوف تأخذ بالضعف وستئول حتما إلى الزوال.

إن قسمة المهدي لا يمكنها أن تكون إلا هذا: الموت أو تحقيق الهدف الذي رسمه لنفسه. وهل عن طريق الاستعانة بالفرق العسكرية الفرنسية، وهي بذلك تبرهن عن ضعفها الذي يجهله الشرقيون، تحسب إنجلترا بأنها ستخنق صوت المهدي؟ في

هذه الحالة سوف تفضح ماضيها بهذه الطريقة، وستعود إلى الوضع الذي دمرته ودون أن تشاء، سوف تعطي مصر للمصريين. وهذا ما نرغبه، مع المجازفة برؤية غلادستون البائس وهو يسقط عن عرش السلطة. وحين تيأس إنجلترا من التوصل إلى اتفاق سلمي مع المهدي، فهل ستقترح عندئذ أن تقوم بجلب الوحدات العسكرية الهندية الإسلامية إلى السودان؟ قبل كل شيء، هل هذا ممكن؟ وكيف يمكن للحكومة الإنجليزية أن تتصور بأن المسلمين، وفي سبيل تمتين سلطة عدوهم الوراثي أي الإنجليزي، سيكونون قادرين على الدخول في حرب مع الرجل الذي ظهر كي يدعم إيمانهم؟

أم أن إنجلترا تعتقد بأنها ستتوصل إلى مخادعة الهنود في هذه القضية، كما سبق وخدعتهم في قضية «عرابي»، حيث ستجعلهم يعتقدون هذه المرة أيضا، بأنها لا تفعل سوى القيام بمساعدة السلطان من أجل كبح المتمردين؟ لقد بات الهنود على يقين، بعد الذي حصل في مصر، بأن إنجلترا مصممة على أن تلعب تجاه تركيا نفس الدور الذي لعبته في الماضي تجاه السلطة التيمورية.

أم أن إنجلترا تتصور بأنها ستستدعي جنود السيخ و«الكوركو» «Kourkou»؟ لكن تدخل هذه الفئة سوف يؤدي بالنتيجة ليس فقط إلى الازدياد الخطير للحقد على الإنجليز من قبل المسلمين الهنود، الذين لن يروا بدون عناء وبدون مرارة ذهاب الهندوس إلى الحرب ضد منقذهم (المهدي) فإضافة إلى ذلك قد ينجم عن هذا الرهان تبعات أخرى لا تقل كارثية عن سابقاتها بالنسبة إلى الإنجليز، إنها تهييج السكان المسلمين الهنود إلى درجة أنهم سيستفيدون بدون شك من غياب جزء من الجيش الإنجليزي الموجود في الهند.

المهـــدية

(٣)

إذا أردنا أن نقيم حسابا دقيقا للمخاوف التي تعتري الإنجليز من جراء الانتصارات المتلاحقة لمحمد أحمد (المهدي)، فإنه لا مناص لنا من معرفة وضع الإنجليز في الهند، ومشاعر السكان الهنود تجاهها، وأخيرا النسب الحقيقية لقوتها العسكرية في هذا البلد.

إن عدد الجنود الأوروبيين الذين يمكن لبريطانيا العظمى أن تجهزهم لا يتجاوز الخمسين ألفًا. والخمسون ألفًا هؤلاء، ينتشرون على كافة نقاط الإقليم الهندي وصولا إلى برمانيا. ولا يسع إنجلترا بأي طريقة من الطرق أن تعتمد على الجنود المسلمين والهندوس، في حال حصول انتفاضة، لأنه لم يبق في الهندوستان بيت واحد كبير لم يتعرض للهدم أو للتشويه، ولم يبق قلب لم ينقبض، دون إقامة أي تمييز بين المسلمين والهندوس. لقد انتزعت إنجلترا المملكة التيمورية الواسعة من أيدي الإسلام، كما استولت عنوة على حكم «الميريت» «mirits» الذين يشكلون العدد الأكبر والأفتى بين الهندوس. لقد فتنت إنجلترا أشراف السند و«راجوات» السيخ في البنجاب. كما قضت على عظماء البنغال ولم توفر ممالك «ميسور» «Mysore» و«أود» «Awed» التي أفرغتها من السكان بواسطة المجازر. وأخيرا، قامت إنكلترا بتقطيع الأقاليم التابعة لرجاوات چيبور «Djeypour»، ودچوبتور «Djoptour» وبرودا Brouda حيث استولت على القسم الأكبر منها.

أما الراجوات وكبار النافذين، وعددهم قليل جدا على كل حال، الذين ما زالوا يحتفظون بممالكهم، فإنهم لا يشعرون بالاطمئنان إزاء مشاريع إنجلترا في

المستقبل، ويجهلون إذا كانت إنجلترا سوف تستشعر الضرورة لتركهم حائزين على أملاكهم، ويتوقعون بين يوم وآخر أن يجدوا أنفسهم وقد انتزع منهم القليل الذي بقي لهم. وليس لديهم أدنى وهم حول المصير الذي تعده لهم المطامع البريطانية. إن الإنجليز مقتنعون تماما أنه بمجرد حصول فتنة في الهند، فإن كافة الجنود المحليين، المسلمين والهندوس على حد سواء سيؤلفون قضية مشتركة مع الثائرين، وسيتحدون خلف الراية ذاتها، ولكونهم مدعومين من الرجاوات وكبار النافذين الذين يرفضون انتزاع ممتلكاتهم منهم، فإن الجنود سيثورون ضد المسيطر عليهم ودون التفتيش عن مبرر لهذه الانتفاضة، ودون أخذ الوقت للتفكير بالفائدة التي سيجنونها، ودون اختبار النتيجة التي قد يصلون إليها.

لا يبدو أن محمد أحمد (المهدي) يجهل الوضع الحقيقي للإنجليز في الهند ونواياهم المبيتة بهذا القدر أو ذاك من أجل وضع اليد على مكة، ولا يخفي المهدي علمه بأن أول مواجهة جدية يخوضها سوف تكون ضد الإنجليز في مصر. ولذا فقد أرسل بمبعوثين وبدعوات إلى علماء مكة، وبصورة خاصة إلى العلماء الذين هاجروا من هندوستان، ومن أفغانستان وبخارى، والذين استقروا في مكة.

في هذه النداءات، التي سينشر نصها في أقرب فرصة مناسبة، يدعو المهدي المسلمين إلى النهوض من أجل تأكيد الإيمان الإسلامي ومن أجل نصرته في تحقيق مهمته الإلهية. وإذا كان هؤلاء العلماء العديدون لم يعلنوا حتى هذه الساعة عن تأييدهم لمحمد أحمد، فإني لا أشك لحظة واحدة، كما سبق وقلت، بأن هؤلاء العلماء سيقفون إلى جانبه، وذلك بمجرد أن يحقق المهدي انتصارا جديدا وجديا والذي بدوره سوف ينجز أمر انضوائهم لحسابه.

إن الإنسان، بطبيعته، ميال إلى مبالغة كل الأخبار التي تأتيه من البعيد، إلى درجةأن العدد واحد المتنقل من شفة إلى شفة والمتضخم بواسطة الهرج العام، لا يني أن يتحول إلى ألف، وهكذا فإن الرابية سوف تجري مشاهدتها على أنها جبل. ولهذا، فإن الإعلان عن ظهور المهدي، سوف يملأ قلوب الذين ينتظرون الانعتاق بالوعود الكبيرة وسيفيضون أملا وفرحا.

أو أول تململ سوف يحدث على ما يبدو عند مشايخ الطرق (الأخويات) المعروفين بالشيشتية «El - Chichtia» وهم من عائلة أولران شاه «Olran - Shah» في بلوشستان، وكذلك عند القادرية في السند، الطقشندية والقادرية في جبال أفغانستان بقيادة ابن «اهوندسيوات» «Ahoundsiouath»، وعند الوهابين المجاهدين في أفغانستان وفي بلوشستان بقيادة أميرهم عبد الله. جميع هؤلاء سيلقون الدعم من جماعة «الميريت» القاطنة في «بونا» «Pouna» والتي بلغ عدد أفرادها منذ عام أكثر من ٥٠٠ ألف نفس. هذه الجماعة، هي أيضا، تنتظر بفارغ الصبر كي تهب.

ستحظى هذه الحركات المدهشة حتما برد معاكس في الهند، إذ سيحصل نهوض عام، وسيجد الإنجليز صعوبة بالغة في الحصول على مبرراته. وفي كل الأحوال، وبالتأكيد لن يصل الإنجليز إلى قمة غايتهم كما حصل في الانتفاضة الأخيرة. إن حدوث انتصار جدي للمهدي ـ والذي سيكون بلا جدال بمثابة معجزة جديدة في أنظار المسلمين ـ سيكون له كنتيجة حتمية ليس فقط اندلاع الانتفاضة في بلاد الإسلام الواقعة تحت السيطرة التركية كما في بلوشستان أيضا وأفغانستان والسند وهندوستان وبخارى وخوقند وخيفا ـ بل سيفضي أيضا إلى اضطرابات في طرابلس وتونس والجزائر وصولا إلى المغرب؛ لأن كل المسلمين ينتظرون المهدي الذي يعتبرون مجيئه بمثابة ضرورة مطلقة.

العلاج الوحيد، برأيي لإزالة المرض قبل أن ينتشر في كل الجسم، لا يقضي، كما تعتقد بعض الصحف الإنجليزية المهمة، بالتخلي عن السودان والتوصل إلى اتفاق سلمي يعقد بين المهدي وبين الحكومة المصرية، بل بواسطة التدخل التركي، أو بتعاون الفرنسيين مع الإنجليز من أجل تفادي حصول كارثة.

غير أن الإنجليز بعيدون جدا عن القبول بتدخل فرنسي، ولن يتنازلوا عن ذلك قبل أن ينغرز الخنجر الإسلامي في صميم قلبهم، وعندئذ سيكون العلاج بلا فعالية. بالفعل، فإن الإنجليز لم يدخلوا مصر بمفردهم وضد أماني الفرنسيين، إلا لأنهم رأوا هؤلاء قد استقروا في تونس. وقد فهموا (الإنجليز) جيدا بأنه لم يبق أمام فرنسا وهي إحدى القوى العسكرية الأكثر إدهاشا، لتحقيق الاستيلاء على باب

الهند - وأعني بذلك مصر - سوى السيطرة على طرابلس الواقعة حاليا في الأيدي الغافلة لتركيا.

لماذا لا ترغب إنجلترا، بصدد هذه القضية، بمجرد الكلام عن تدخل تركي؟ هل لأنها تهاب تركيا، أم لأنها تخشى أن تقفل عليها هذه القوة (تركيا) طريق الهند؟ لا أعتقد بأي واحدة من هاتين الفرضيتين. فتركيا، بالفعل، وحين كانت أقوى مما هي عليه الآن، وقبل شق قناة السويس، ألم تدع الجنود الإنجليز يعبرون مصر لمحاربة إخوانها في الدين - أي الهنود المسلمين - وانتزاع أملاكهم وممتلكاتهم؟ إن مبرر موقف إنجلترا لا يمكن إذن ان يكون غير الحقد الصريح على المسلمين من قبل الإنجليز، وخاصة من قبل السيد غلادستون البروتستانتي المتحمس واللاهوتي المتشدد.

إذا لم تقم فرنسا وإنجلترا ببذل كل طاقتهما لاستباق احتمالات معينة، فإنه سينجم عن تحرك إنجلترا بمفردها في هذه المسألة الخطيرة، كوارث بالغة ستلحق بهاتين القوتين.

أما بالنسبة للرجلين الطامحين إلى الخديوية في مصر، أي الخديو السابق إسماعيل وحليم باشا واللذين يستفيدان من الفرصة التي يمنحها لهما المهدي من أجل الحصول على عواطف إنجلترا الطيبة، فإنني سأكتفي، بصددهما الآن ولكي لا أتعب القارئ، بالتحدث عن واحد منهما، وبأكبر اقتضاب ممكن.

إن صعود حليم باشا إلى عرش الخديوية، سيمنح بدون شك سرورا بالغا لكل الذين يأملون بتوسيع وتقوية السلطة العثمانية. فحليم، بالفعل، واحد من المقربين للسلطان، ويعده باستمرار بوضع حكومة القاهرة تحت الرعاية الكاملة لديوان الأستانة كما هي حال ولايات سوريا وحلب.. إلخ.. إلخ.. لكن ليس لحليم أي حزب في وادي النيل، وهو معروف بصورة قليلة جدا، والنزر اليسير من الناس الذين يعرفونه فإنهم يعتبرونه ملحدا.

وندرك بسهولة أن رجلا متهما بالزندقة من قبل المصريين العميقي التدين، لن يكون بمقدوره أن يقف وجها لوجه أمام محمد أحمد الذي يخرج للناس خلف هيبة

لقبه الديني أي المهدي. صحيح أن عرابي باشا ذكر اسم حليم باشا، بل وصرح بأنه يقبل به كخديوى، ولكن لا ينبغي الاستنتاج من ذلك أن عرابي كان مناصرا لحليم أو أنه كان لهذا الأخير حزب في مصر.

فقط حين وضع عرابي أمام الجدار وأرغم على الإفصاح عن الرجل الذي يؤيده من بين المتنطعين إلى عرش الخديوية حينذاك وبقصد أن يقوي وضعه في مصر، أعلن عرابي تأييده لحليم.

أما بالنسبة للخديوى السابق إسماعيل، فإنني سأكرس له مقالة خاصة أقيم فيها بالتوازي، النتائج المشئومة والنتائج الطيبة التي يمكن أن يحظى بها أمر إعادته إلى عرش الخديوية.

* * *

٣

باب ما يؤول إليه أمر المسلمين فى المستقبل

باب ما يؤول إليه أمر المسلمين في المستقبل

إذا نظرنا إلى الحالة الراهنة رأينا أن ما آن الأوان للتكلم في مستقبل الإسلام فإن انحطاطه في زمن السلطان سليمان المسمى بالمشرع من يوم حصار مدينة ويانه في سنة ١٦٨٧ لم يزل شيئا فشيئًا حتى بلغ أواخر القرن الأخير أي عهد السلطان محمود الثانى الذي بلغت رجال دولته أعلى درجة في التأخير وتملكت بعد الإنكليز والمسكوا والفرنسيين على كثير من المسلمين وبقي معظم أهالي الإسلام يخبطون في الجهل منتظرين سقوط المملكة التركية تحت صواعق الإفلاس والحروب الباطنية والحروب الخارجية التي يخشى من حصول النصر فيها فضلاً عن الهزيمة على أن تلك المملكة التركية هي التي ورثت الملك من الخلفاء الذين دانت لهم الأرض بأجمعها وخضعت لها ممالك أوروبا بصياحها ودموعها وهي الآن حصن غير منيع لحفظ شوكة الإسلام ووقاية واهية للتجمع والالتئام.

فما ظنك الآن بما يؤول إليه أمر المسلمين وهي في ظنك من تقلب الأحوال وضيق من عدم تحقق الآمال؟! أفيخطر ببالك أن يقال إن هذا الدين يتلاشى وإنه أخذ زمنه ومضى؟! أو يخطر ببالك أن فيه الكفاية لتنظيم أحواله ويرجع إلى قوة مَنْشَئه ويكون معينا على نشر التمدن في جميع أقطار الدنيا. فهاك مسألتان خاصتان بحالَ الإسلام وما يؤول أمره إليه بالنسبة لانصلاح شئونه في المستقبل وبالنسبة لسياسة النصارى الذين تحت حكومة الإسلام، وهاتان المسألتان لهما دخل عظيم في المسألة الشرقية التي لا تحول ولا تزول.

فلا وجه للمجاوبة عنهما بوجه الإيجاب لأن الدليل الأقوى لتعضيد كل منهما لابد من دخوله في مسألة الأديان. وقال المؤلف فونطه: إن الدين قاصر على الزمن

الذى ظهر فيه وإن الأديان سترفع من الأرض بعد أن تنتشر المروءة على وجهها وإن آخر دين أكثر تنقيحًا من باقي الأديان التي تقدمت وإن التنظيمات التي تحصل في الدنيا لابد لها من دين جديد فإذا كان هذا الدين هو دين الإسلام يلزمنا أن نتوقع زمن ظهوره على الأحوال التي حصلت فى الدنيا وتضاهي قواعده الأديان المتقدمة ثم نبحث في الثمرات التي ملئت منها التواريخ ونطلع على أسباب انحطاطه في هذه الأيام وإذا تأملنا في الأسباب الموجبة للانحطاط ظهر لنا أنها ناشئة من عدم موافقة ذلك الدين للتقدم والتمدن الحاصل في هذا الزمن. فاذا أمعنا النظر في درجات تلك المسألة رأينا الإسلام ظهر بعد النصرانية بستمائة واثنتين وعشرين سنة فكانت قواعده أعلى وأمتن من دين النصرانية.

وعندنا دليل آخر وهو أن الدينين ظهرا في أرض واحدة وأن الدين النصراني سقط في بلدة يهوذا ولم يظهر بأوروبا بعدها إلا بعد أن قاسى كثيراً من الشدة واللوعة في أوروبا، وأما الإسلام فإنه أزهر وأثمر وعلا شأنه في كل بلدة دخلها وكان عدد المسلمين بعد الهجرة بقرن يبلغ مائة مليون أكثرهم كان من اليهود والنصارى ولم يبق من عبدة الأوثان شيء إلا وطغى عليه سيل الإسلام فأغرقه وكذب[1] يونس حيث قال إنه لا يبعث نبي في بلده فإن محمداً صلى الله عليه وسلم بعث في بلده وظهر أمره في جزيرة العرب. ومن ادعى أن قوة السيف هي التي نشرت ذلك الدين فقد ضل ضلالاً بعيداً لأن العدد القديم من فرسان الصحابة لم يكن كافيًا في إلزام ثلث الدنيا باتباع الإسلام ونشر التمدن بين الأنام في زمن كانت فيه صولة الرومان والأروام وكان دين النصرانية كثير التشعب والمذاهب وكان الخصام واقعًا بين كثير من تلك الشعوب وحصل الاضطراب عند نقص مذهب الأرثذوكس فترتب على ذلك قلقلة الجمعيات وسفك كثير من الدماء واحتيج إلى إيجاد مرشد يصلح بين الناس ويهديهم إلى الطريق المستقيم فكان ظهور الإسلام داعيًا لسلامة الجميع و اتفاقهم على وحدانية الإله. فأحرقت معابد الأصنام وأضاء نور الإسلام بلا إله إلا الله محمد رسول الله وبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذه الكلمات ومحو آثار الأصنام وإزالة اعتقادات الأروام في تعدد الآلهة. وبعد

(١) كذا بالأصل «كذب»، ومعناها: «أخطأ»، وهذا ما قاله من قِبَل رأيه.

أن مهد الطرق ومكن كلمته أباح للعرب ما كان من عوائدهم موافقًا لكلمة التوحيد وأقر اليهود على دينهم والنصارى على تعظيم المسيح وأمه وقال إن المسيح من روح الله وإن مريم أحصنت فرجها، فما كانت تعتقده الروحانيون في إحصان مريم مأخوذ من الإسلام.

ولما رأى أن النصارى تكره بقية الأديان أباح حبها، وقال إن اختلافها لم يكن إلا بإرادة الله وفي القرآن: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [هود: ١١٨]. وقال تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٤٦) وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٦، ٤٧] فصح على ذلك أن دين الإسلام يقبل العوائد المتقدمة ويقبل التأويل لموافقته للعلوم المتأخرة. فإن الأقدمين كانوا يعتقدون عدم إدراك أمر الروح وذلك موافق لـ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥] ولم يخل شيء من أحكام الإسلام عن موافقته لحكم عقلية كتحريم النبيذ وبعض اللحوم والميسر لثبوت ضررها بالتجربة. وحكم الوضوء هذا أمر صحي وقال بعض المؤلفين الطاعين إن دين الإسلام اشتمل على ما كان في دين النصرانية من الأمور الموافقة للشرع والطبع وكذلك أغلب المؤلفين النصارى سلموا للعرب في التمدن وعظموه على أن التمدن لا ينسب للعرب بل للكتاب والسنة، وورد في الحديث: «اطلب العلم ولو بالصين»، وقال أيضًا: «عظموا من علمكم كلمة كتعظيم آبائكم». وسئل النبى صلى الله عليه وسلم لمن الحكم؟ فسكتوا فقال: «لأعلمكم». فكان هذا الحديث وأمثاله موجبا لازدياد الرغبة في العلم ونشره مع التمدن في البلاد المتوحشة حتى ظهرت الألفة بين سائر الناس وظهرت المعارف في بلاد الأكراد وغرناطة وسبتة والقيروان من أعمال كسرى الأندلس ثم بدمشق والعراق والموصل وبغداد وأصفهان وبخارى وسمرقند والهرات وقابول وكندهار ودهلي من بلاد الهند وأشرقت شموس العلم بالإسلام في سائر النواحي وكانت بلاد النصرانية وقتئذ من الجهل في ظلمات بعضها فوق بعض، ومن اطلع على

التاريخ علم أن الروم والرومان إن كانوا قد ابتدأوا في نشر التمدن فإن المسلمين أتموا نشره في عهد المأمون بن هارون الرشيد.

ولقد كانت عادة المسلمين أنهم إذا ملكوا بلداً بادروا في تعليم أهلها وجعلوا في كل قرية مدرسة، وتلك آثارهم تدل عليهم لأنك إذا نظرت إلى مسجد من مساجد صدر الإسلام رأيت بجواره مدرسة وسبيلا وشتان بين تعليم تلك الأيام وتعليم أيامنا هذه. ومن شروط الإسلام المساواة بين الصغير والكبير والقوى والحقير فإن طفيل بن عمر أتى النبى صلى الله عليه وسلم وقال له: إذا أسلمت كيف تكون مرتبتي عند الناس؟ فقال: «الناس كأسنان المشط» أي في الاستواء. وقصة حيلة بن الأسهم من ملوك العرب لما أسلموا في عهد عمر بن الخطاب، وحجّ داس على بردته أعرابى فلطمه حيلة فشكاه الأعرابي لعمر فدعى حيلة ليقتص منه فقال: فكيف يكون ذلك وأنا من ملوك العرب وهذا صعلوك؟! فقال: قد سوى الإسلام بينكما.

وكانت المناصب في صدر الإسلام بغير مقابل؛ إذ كان الأمير يعيش من الجملة فكان على صهر النبى صلى الله عليه وآله وسلم عاملاً وكان عمر يضرب الطوب ويعيش منه وكان السلطان محمود الأول صائغًا ومحمود الثاني خطاطا يأكل من عمله.

وناهيك بالعدل فإنه كان طبيعة للخلفاء والملوك لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾ [النحل: ٩٠]. وقال سليمان: القوة تزيد في اتساع الممالك والعدل يحفظها وأقوى دليل على عدل المسلمين أنهم كانوا يحسنون معاملة النصارى من رعاياهم، ولما رأى ملوك الروم ملوك المسلمين لا يخرجون عن كتاب الله ولا ينفذون الأحكام إلا بفتوى من شيخ الإسلام صاروا يتحاكمون عندهم في قضاياهم. وحكي أن السلطان بايزيد الثاني كان حاضراً بالمجلس الشرعي وأراد أن يتكلم فمنعه القاضي فينار زاده وقال: إنه غير عدل لعدم حضوره في المسجد يوم الجمعة كما هي عادة الخلفاء والملوك. ومن يسب النساء في الإسلام (ويمارس)[1] الاستعباد فقد أخطأ فإن المسلمين يعظمون نساءهم وإن العلوم الإسلامية مروية عن عائشة وفاطمة وخديجة وغيرهن، وفي الحديث الشريف: «الجنة تحت أقدام الأمهات».

---

(١) غير موجودة في النص الأصلي.

وأما تعداد الزوجات فليس حكما إلزاميا لما ورد في الكتاب المجيد ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ [النساء: ٣]. وحقوق النساء عند المسلمين أكثر مما عند الأوربيين. فإن المرأة تبلغ رشدها من تسع سنين ومهرها على زوجها، فإن تزوجت لها الترف في متاعها وهي المصدقة بقولها في الشهادة على نفسها وتحريم الخمر والميسر فيه حفظ للزوجة مع تقى الزوج وورعه.

ونهاية القول فإن من ينسب الضعف للإسلام بنسبة مأخذه فقد أخطأ، لأن الكتاب والسنة سار بهما الإسلام وعلا شأنه في التمدن والتقدم مبلغًا عظيمًا من القرون. ولما أن هجر العلم وحاد المسلمون عن اتباع شريعتهم أخذت دولتهم في الانحطاط. ومن المشهور أن مبدأ انحطاط الإسلام كان من عهد السلطان سليمان وتصميمه على عدم تأويل السنة بما يوافق مواقع الإسلام حوال في أوقاتها مع أنه سئل النبى صلى الله عليه وسلم وآله سلم فيما نقول في المستقبل. أنتبع نص القرآن أم نتبع ما فسر به القرآن والأحاديث؟ فقال صلى الله عليه وآله سلم: شهادة الرجل حيا خير من شهادة عشرة من الأموات». فيفهم من ذلك أن شريعة الإسلام كالثوب المرن تقبل التمدد والتشكل بأشكال التمدن والتقدم بخلاف دين النصرانية لتحكم النفس وتشديدهم وعدم الإباحة في التأويل فبقيت غير منتخبة. وأعجب من هذا أنهم لقبوا السلطان سليمان بالمشرع مع أنه أغلق باب التفسير بالقوة والاقتدار وجعل معنى القرآن قاصرًا على آخر تفسير أمر به فسقطت بهجة العلوم الإسلامية، في زمن أخذت أوروبا فى أسباب التقدم والمعارف. ونرد على ذلك عيبًا في كيفية الهجاء المتبعة فى اللغة التركية والعربية والفارسية وهى أن الحركات لا تعرف إلا بالشكل ويستحيل بغيره معرفة قواعد القراءة في تلك اللغات بخلاف ألف باء الأوروبية فإن حركتها تكتب حروفًا إذا تعلمها أي شخص أمكنه أن يقرأ بالصحة في أي كتاب ولو لم يفهم المعنى. ولا شك أن تقدم العلم مبني على حسن ترتيب لغته وأن النفور يتصاعد إذا لم يجد عبارة وجيزة يتكيف بها. هذا ولم يبق للمسلمين إلا الإيمان والحمية على اتباع كتاب الله فلا يخرج حبه عن قلبهم أبدا. وإن قيل لك إن النصارى لكثرة غواية الفلاسفة لهم وزحزحتهم عن دينهم شيئًا فشيئًا في مدة ثلاثمائة سنة يتركون دينهم ولا يبقى له وجود فصدقه، وأما إن قيل لك عن المسلمين شيء من ذلك فلا تصدقه مطلقًا.

وإن أمكن الإغارة على بلدة من بلاد المسلمين فإنه لا يمكن جبرهم على ترك دين الإسلام واتباع دين النصارى ولو عرضوا للهلاك بل يميلون للحكم على كره منهم فإن لاحت لهم فرصة للتخلص نفروا مهللين بالشهادتين.

والحاصل أن الحمية الإسلامية غنية عن التعبير وأن حب المسلمين في نبيهم وتفضيله عن باقي الرسل أمر لم تقلقله سياسة الدول إلى الآن. وحيث ثبت أنه من القوة البالغة الحدة وأنه لا يمكن إزالته فالأولى موافقته بالعلوم المتأخرة والانتفاع به. وإن دول فرنسا وإنجليزا[1] والروسيا لم يعتدوا إلى الآن بطريقة في حكوماتهم توافق دين الإسلام، فتراهم يتبعون أنفسهم في رد المسلمين عن دينهم فلم يمكنهم ذلك. ويستعملون الظلم والقسوة التي لا تفيد شيئًا. ومما يشبه الأوروبا والممالك المتقدم ذكرها في معاملة المسلمين السلطان محمود لأنه لما شرع في التعليمات الحربية الأفيركية أدخلها على المسلمين بوجه أفهمهم أنه شارع في تغيير قواعد الدين فقامت عليه القيامة من الداخل والخارج وتقلبت عليه الأحوال فأهلكته. وأما المرحوم محمد علي باشى[2] فإنه أحيا مصر بعد العدم ونشر ذكرها بين الأمم فأخذت في أسباب التمدن واتسقت في الروه!

ولا يخفى أن كافة المسلمين ينضرون من الحالة التي هم عليها الآن ويحبون تغييرها بأي وجه كان فمن ثم كان قيام أهل العلم وخلع السلطان دليلاً على تيقظ الإسلام وأن المسلمين من ابتداء مملكة مراكش إلى بلاد الهند قد قربت أن تتحد كلمتهم على نصر الدين وتحسين أحوال المسلمين سيما لما بلغهم من الصرب أنهم يريدون نصر الصليب. وأن أغلب دول أوروبا تساعدهم على ذلك فكان سعيهم من باب البغي والعدوان رحيم المرتع قليل المصرع فياليت المبالغ التي صرفتها الدولة في مشترى السفن المزرخة والآلات الحربية كانت صرفت في طلب العلم ولو في الصين كما في الحديث وكانت الأمة الإسلامية تقدمت في المعارف والفنون، لكن نحمل ذلك على الاحتراز من بأس المعتدي ولا ضرر فيه وحيث تعين على الدولة أن توافق دول أوروبا في إعطاء الضمانات المطلوبة لراحة النصارى فلا بأس في ذلك.

---

(١) إنجلترا.

(٢) باشا.

إنما يجب على الدولة أن تنتهز الفرصة وتلتفت إلى تمدن المسلمين ونشر العلوم والفنون بينهم لأن هذا الزمان مساعد لذلك إذ لا وجود للماليك والانكشارية الذين عطلوا السلطان محمود في زمنه سيما للمسلمين الآن رغبة عظيمة في معرفة العلوم الأوروبية فإننا سمعنا مدرسة فتحت مجانًا في محروسة مصر منذ ثلاث سنوات وبلغنا عند افتتاحها أن التلامذة والراغبين هرعوا إليها ولم يكن يبقى إلا ثلاثمائة طالب فوجد عدد الذين دخلوا فيها يومئذ يبلغ سبعمائة وحصل مثل ذلك حيث أمرت الحضرة الخديوية بفتح مدرسة للبنات وكانت أول مدرسة فتحت في مصر ما كان يؤمل أنها تنجح، ففي أول يوم بلغ عدد الوارد فيها قدر المطلوب ثلاث مرات فمن نظر إلى ذلك بعين التأمل رأى نتيجة عظيمة لا تنال ولا بالقتال. فنشر التعليم خصوصًا بين النساء لا شك أنه يئول أمره إلى فصل مشكل المسألة الشرقية. ولا يحتاج الأمر فيها قتال ولا نزال لأن سيف التعليم أمضى من سيف المحاربات.

ولنضرب هنا مثلاً بالأرض المزروعة يأتيها الشتاء فيستر زرعها بالثلج فترى كالميت وإذا أتى عليها الصيف وذابت الثلوج أخرجت زخرفها وازينت. فكذلك الإسلام إذا التفت إلى معرفة العلوم والفنون دارك الدرجة العليا في التقدم كان عزمه قويا ومستقبله مرضيا. إن الله على كل شيء قدير[(١)(*)].

---

(١) تمت بخط سيد أحمد الحكيم الأزهري البحراوي الحنفي. كتبت هذه المقالة في شهر صفر ١٢ فيه سنة ١٢٩٤.

(*) فى سنة ١٣٥٣هـ. ش (الإيرانية)، قد أعطانا نسخة من هذه المقالة للسيد جمال الدين الحسيني، أخونا السيد حسن محجوب، حيث وجدها، بين الأوراق والوثائق الخطية في مكتبة «مجلس سنا» فى طهران وكان الأخ محجوب مديراً للمكتبة آنذاك... إلخ.

٤

الحكومة الاستبدادية

الحكومة الاستبدادية

إن طول مكث الشرقيين تحت نير استبداد المستبدين، الذين كان اختلاف أهوائهم الناشئ عن تضاد طبائعهم، وسوء تربيتهم، مع عدم وجود رادع يردعهم، ومانع يمنعهم، وقوة خارجية تصادمهم في سيرهم، سببًا أوجب التطاول على رعاياهم وسلب حقوقهم، بل اقتضى التصرف في غرائزهم وسجاياهم، والتغير في فطرتهم الإنسانية، حتى كادوا أن لا يميزوا بين الحسن والقبيح، والضار و النافع، وأوشكوا أن لا يعرفوا أنفسهم، وما انطوت عليه من القوى المقدسة، والقدرة الكاملة، والسلطة المطلقة على عالم الطبيعة والعقل الفعال الذي تخضع لديه البسائط والمركبات، ويطيع أمره النافذ جميع المواليد من الحيوان والنبات. وإن امتداد زمن توغلهم في الخرافات التي تزيل البصيرة، وتستوجب المحو التام والذهول المستغرق، بل تستدعي التنزل إلى المرتبة الحيوانية، ومداومتهم من أحقاب متتالية على معارضة العلوم الحقيقية التي تكشف عن حقيقة الإنسان، وتعلمه بواجباته وما يلزمه في معاشه، وتبين له الأسباب الموجبة للخلل في الهيئة الاجتماعية، وتمكنه من دفعها، والسعي في إطفاء نورها بما ورثوه عن آبائهم من سفه القول وسخف الرأي والجدل في اضمحلال كتبها وضياع آثارها واستبدالها بما أوقعهم في ظلمات لا يهتدون إلى الخروج منها أبدا[1].

كل هذه الأسباب تمنع القلم عن أن يجري على قرطاس بيد شرقي في البلاد الشرقية بذكر الحكومة الجمهورية وبيان حقيقتها ومزاياها وسعادة ذويها الفائزين

---

(١) استعمل «استبدل» هنا بما هو الشائع عند المتأخرين عامة. والذي في القرآن العزيز أن الباء بعد «استبدل» و«تبدل» تدخل على المبدل منه لا على البدل. فليتنبه له الكتاب. (هامش المنار).

بها. وإن المسوسين بها أعلى شأنا وأرفع مكانة من سائر أفراد الإنسان، بل هم الذين يليق بهم أن يدخلوا تحت هذا الاسم دون من عداهم، فإن الانسان الحقيقي هو الذي لا يحكم عليه إلا القانون الحق المؤسس على دعائم العدل، الذي رضيه لنفسه يحدد به حركاته وسكناته ومعاملاته مع غيره، على وجه يصعد به إلى أوج السعادة الحقيقية، وتصده عن أن يرقم على صفحات الأوراق، ما يكشف عن ماهية الحكومة المقيدة، ويوضح عن فوائدها وثمراتها، ويبين أن المحكومين بها قد هزتهم الفطرة الإنسانية فنبهتهم للخروج من حضيض البهيمية، والترقي إلى أول درجات الكمال، وإلقاء أوزار ما تكلفهم به الحكومة المطلقة، وتطلب مشاركة أولي أمرهم في آرائهم وكبح شره النهمين منهم الطالبين للاستئثار بالسعادة دون غيرهم. ولهذا أضربنا صفحًا عن ذكرها، وأردنا أن نذكر في مقالنا هذا الحكومة الاستبدادية بأقسامها فنقول:

إن الحكومة الاستبدادية باعتبار عناصرها الذاتية، وأقانيمها الحقيقية التي هي عبارة عن أمير أو سلطان، ووزراء، ومأموري إدارة وجباية، تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: الحكومة القاسية وهي التي تكون أركانها، مع اتسامهم بسمة الإمارة والوزارة والإدارة والجباية، شبيهة بقطاع الطريق. فكما أن قاطع الطريق يقطع طرق السابلة، ويسلبهم أموالهم ومؤنهم وثيابهم التي تقيهم الحر والبرد وسائر مواد حياتهم، ويتركهم في البوادي والقفار حفاة عراة جياعا تقطعت بهم حبال الوسائل، ولا يلاحظ أن فيهم الهرم والصغير والعاجز والضعيف الذين لا يستطيعون التخلص من المهالك، ولا يقتدرون النجاة، ولا يبالي بموتهم وهلاكهم عن آخرهم، ولا تأخذه في ذلك الشفقة والرحمة. كذلك هؤلاء الأركان يغتصبون ضياع رعاياهم وعقاراتهم، ويستولون على مساكنهم وبساتينهم، وينتزعون بالضرب والحبس والكي وغيرها من أنواع العذاب ما بأيديهم من ثمرات اكتسابهم، ويدعونهم في مخالب المصائب، معرضين للأسقام والآلام، وأهدافا لسهام البلايا، التي ترميهم بها عواصف الرياح الزمهريرية والسمومية، ولا يخشون

اضمحلالهم وإبادتهم بالكلية، ومحق حياتهم بالمرة[١] بل يستبشرون بذلك كأنما هم أعداؤهم، ولا يشعرون أنهم قواد السلطة وأساسها. ومن أفراد هذا القسم الحكومة الجنكيزية[٢] والتيمورية وغيرهما من حكومات التتر والبرابرة كما تشهد بذلك التواريخ.

القسم الثاني: الحكومة الظالمة. وأولياء هذه الحكومة تماثل الأخساء الذين يستعبدون أناسا خلقوا أحرارا ظلما واعتداء. فكما أنهم يكلفون عبيدهم بأعمال شاقة وأفعال متعبة، ويجبرونهم على نقر الأحجار، وخوض البحار، وفلق الصخور، وقلع الجبال، وطي المفاوز، وجوب البلاد، في صرة الشتاء وهجيرة الصيف، ويؤلمون أبدانهم بالسياط إذا لجأوا آنا ما إلى الراحة التي تجذبهم الطبيعة إليها، ويحجبونهم بأشغالهم المستغرقة لأيام حياة هؤلاء المظلومين عن مزايا جواهر عقولهم المقدسة، حيث لا يجدون فرصة من دهرهم للنظر في الآفاق، وفي أنفسهم، كي يرتقوا من الإحساس البهيمي إلى عرش الإدراك الإنساني، ويشاركوا أبناء جنسهم في اللذائذ الروحية، ويجتنوا ثمار عقولهم ليؤازروهم بنتائجها من الصنائع البديعية، والمخترعات الرفيعة، فيسعدوا مع السعداء. ومع ذلك يحرسون حياتهم، ويحرصون على استبقائها استيفاء للخدمة منهم بتقديم قوت من أردأ ما يقتات به لسد الرمق، وثياب خشنة رثة لتحفظهم من أظفار العواصف وبراثن القواصف. فلا يكون حالهم مع ساداتهم إلا كحال البهائم والأنعام الأهلية، لا يعيشون إلا لغيرهم، ولا يتحركون إلا برضاه، بل بمنزلة آلة غير شاعرة بأيدي مستعبديهم يستعملونهم كما يشاءون.

كذلك هؤلاء الولاة مع رعاياهم، فإن الرعايا لا يزالون يتحملون المتاعب والأوصاب، ويكدون أيام سنيهم، ويسهرون لياليها، مشتغلين بلا فتور بالغرس والحرث، والحصد والدرس، والندف والحلج، والغزل والنسج، مهتمين بالحدادة

---

(١) قيل لحاكم شرقي إن رعيتك يموتون في عمل السخرة الفلاني الذي كلفتهم به فلو رفقت بهم. فقال: «وهل نحن استلمناهم بالعدد فنخشى أن ينقصوا» (هامش المنار).

(٢) وضع رشيد رضا «الحكومة الإنجليزية» وحاول أن يشرح ذلك في الهامش (المصدر السابق ص ٥٨٠)، وبالرجوع إلى الأصل تبين أن الأفغاني يقصد الحكومة الجنكيزية نسبة إلى جنكيزخان.

والنجارة، والملاحة والتجارة، ساعين في حفر الأنهر وإنباع المياه، وإنشاء الجداول والجسور، متكبدين آلام التغرب في الحر المبيد والبرد المميت، كي ينالوا (أي الحكام) أرغد العيش بطيب المطعم والمشرب والملبس والمسكن، ويحوزوا الراحة والرفاهية والحظ والسعادة. وهؤلاء الظلمة لا يفترون عن السعي في سلب ما بأيديهم جبراً، وغصب ثمار مكاسبهم وفوائد متاعبهم رغما، ولا يدعون لهم مما اكتسبوه بكد يمينهم، وعرق جبينهم، سوى ما تقوم به حياتهم الدنيئة، حتى تراهم بعد اقتحام هذه الأخطار وتحمل تلك المصاعب، لا يقتاتون إلا بكسرات خبز رديئة ناشفة، يبلونها بدموعهم المنسكبة من جور ولاتهم الفاتكين، ولا يسترون أبدانهم إلا بخرق رثة مرقشة بدمائهم السائلة من سياط حكامهم الجائرين. ولا يسكنون إلا في الأكنة المنخفضة، والأخصاص الخسيسة، كأنهم أنعام حرمتهم الطبيعة من المزايا الإنسانية، ولا يشاهدون إلا بوجوه مغبرة مقشرة، وأبدان مقشفة معفرة. وتدوم عليهم هذه الحال الرديئة التي نشأوا عليها، والمعيشة الدنيئة الي اعتادوها، حتى يقنعوا بها ولا يتعلقوا سواها، بل يتنزلون بسوء تصرف هؤلاء الولاة مما منحوه من فضيلة العقل إلى رتبة البهيمة، ولا يحسون بمعيشة أكمل مما هم فيه ولا يتألمون إلا بالآلام الجسمانية.

ومن أقسام هذه الحكومة غالب حكومات الشرقيين في الأزمان الغابرة والأوقات الحاضرة، وكذلك أكثر حكومات الغربيين في الدهور الماضية، ومنها أيضا الحكومة الإنجليزية الآن في البلاد الهندية.

القسم الثالث: **الحكومة الرحيمة** وهي تنقسم إلى قسمين: **القسم الأول منها الحكومة الجاهلة**. ودعائم هذه الحكومة تحاكي الأب الرحيم الجاهل. فكما أنه يحث أبناءه على اقتناء الأموال، واكتساب الثروة، واستحصال السعادة، والاقتصاد في المعيشة، بدون أن يبين طرقها، ويمهد لهم سبلها، لعدم علمه بها، ويدعوهم رأفة إلى المجاملة والموادعة، ورفع الشقاق والنزاع من بينهم، بغير أن يحدد لهم الواجبات، ويقدر الحدود اللازمة للإدارة المنزلية[1] لقصور إدراكه عنها، فكأنه يدعوهم إلى أمر مجهول مطلق لا يهتدون إليه سبيلا.

---

(١) يستخدم الأفغاني هنا ـ وبعد ذلك ـ مصطلح «الإدارة المنزلية» بالمعنى القديم الذي وضعه فلاسفة الإغريق لما يعرف اليوم باسم «الاقتصاد».

كذلك حال هؤلاء الدعائم الرحماء الجهلاء يطلبون من رعاياهم السعي في المكاسب والصنائع، والتمسك بالتجارة والفلاحة، والتشبث بالعلوم والمعارف، ويغرونهم على مجاراة الجيران، ومباراة أهل العرفان، والتعلق بأسباب النجاح والفلاح، بلا تشييد المدارس المفيدة، وتأسيس المكاتب النافعة، وتسهيل طرق المعاملات، وبث فنون الزراعة، جهلاً منهم. ويريدون من أولئك الرعايا التباعد عن الشقاق والنفاق، والاحتراز عن الاعتداء والاعتصاب، والتجنب عن الفساد والعناد، والحيف والميل في الحقوق، والاحتراس عن كل ما يخل بالراحة العمومية، بلا تقنين ناموس عادل، حافظ للحقوق، معين للحدود، فاصل للقضايا، قاطع لما يطرأ من النوازل، جامع لجميع ما يحتاج إليه الإنسان في اجتماعاته المدنية. ومن أفراد هذه الحكومة سلطنة بعض سلاطين المجبولين على الشفقة المطبوعين على الرأفة، الذين كانوا يبكون على سوء أحوال رعيتهم مع جهلهم بما يصلح شأنها. والسير بذلك ناطقة.

القسم الثاني منها: الحكومة العالمة. وهي تنقسم إلى قسمين: **القسم الأول: الحكومة الأفينة.** وأقانيمها تضاهي الأب العالم المأفون[1]. فكما أن شفقة هذا الأب تسوقه إلى العناية بأحوال أبنائه، وتقسره عليها، وأن علمه بأسباب الترف والثروة وعلل المعيشة الهنيئة المرضية يقوده إلى الاهتمام بتأديبهم بأحسن الآداب، وتعليمهم الفنون، وتمرينهم على الحرف، ويجبره على أن يبين لهم قوانين العشرة، ويحدد لهم حقوقهم. ولكن بعد ذلك يتركهم وشأنهم لضعف رأيه، وقصر نظره، وجهله بأن ملازمة الشبان للآداب واجتنائهم ثمار معارفهم التي اكتسبوها، واجتهادهم في المكاسب لا تكون إلا بقوة حافظة، ما لم تحنكهم التجارب لما جبلوا عليه من الميل إلى الشهوات، والانعكاف على البطالة، والقاعد عن الفضائل، فيهوون في هاوية التعاسة، وتذهب مساعيه سدى.

كذلك هؤلاء الأقانيم[2] يعمرون بيوت العلم، ويشيدون دور المعارف، وينشئون المعامل، ويوسعون نطاق التجارة، ويواظبون على تشريع سياسة مدنية،

---

(١) الأفين: ناقص العقل. والمأفون: ناقص العقل أيضا، والاثنان بمعنى واحد.

(٢) الأقانيم: الجواهر أو الأصول، ومفردها الأقنوم: الجوهر والأصل.

تثبيتًا للحقوق، واستتبابًا للراحة، على مقتضى ما أحاطوا به من أحوال رعاياهم، ولكنهم، لعدم تدبرهم في العواقب، وعدم تبصرهم بأن افتقار انتظام أحوال العباد، وسير أمورهم على نهج العدل، ونيلهم غاية بغيتهم من مساعيهم إلى العلة المبقية كافتقارهم إلى العلة الموجدة، لا يواظبون على أعمالهم هذه، ولا ينظرون إليها نظرةً ثانية بل ينبذونها ظهريا، ويتركونها نسيا منسيا، فيتطرق إليها الخلل، ويعتريها الفساد، ويسري إليها الانحلال، لما جبل عليه الإنسان من الحرص والشره، والميل إلى الجور والاعتداء، المستلزمة لمخالفة القانون فيقع كل في العطب والنصب والشقاء والعناء، ويستولي عليهم الفقر والفاقة ويصيرون كأرض موظوبة[1]، بتوالي تطاول أيدي جائريهم، وتعاقب اعتساف معتديهم. ويشبه أن تكون حكومة المأمون وبعض سلاجقة إيران من أفراد هذا القسم.

القسم الثاني: الحكومة المتنطسة[2]. وأساطينها الحكماء، تضارع الأب المتدبر المتبصر، لا يبرح ساعيا في إعداد الأسباب الموجبة لسعادة أبنائه زمن حياتهم، وتهيئة معداتها القريبة والبعيدة، ولا يتجافى آنًا ما عن مواظبة دقائق حركاتهم وسكناتهم، وتفقد شئونهم واستكناه أحوالهم، ولا يتقاعد لمحة عن تأييدهم في سيرهم بآرائه السديدة وأفكاره الصائبة، خوفا من التواني والكسل والإهمال والفشل، وخشية من عروض الموانع التي تصدهم عن البلوغ للغاية.

فنجد هؤلاء الحكماء الأساطين يعلمون أن قوام المملكة، وحياة الرعايا، بالزراعة والصناعة والتجارة، ويعرفون أن كمال هذه الأمور وإتقانها لا يكونان إلا بأمرين، أحدهما وهو في الواقع علتهما الأولى: العلوم الحقيقية النافعة والفنون المفيدة، التي لا يمكن حصولها، والفوز بها إلا بمدارس منتظمة، ومدرسين ماهرين، ومتخلقين بأخلاق فاضلة، شفوقين على المتعلمين شفقتهم على أبنائهم، وثانيهما إعداد آلات الزراعة وأدوات الصناعة، وتسهيل طرق التجارة البرية والبحرية، ويفقهون أن حفظ أساس المدنية، وصون نظام

---

(١) هي التي رعيت مرارا حتى لم يبق فيها كلأ ولا نبات. (هامش المنار).

(٢) نطس: استقصى الأمر ودقق فيه النظر، وكذلك: تنطس. والمعنى هنا: حكومة الخبراء.

المعاملات، وفصل المنازعات، وكف أيدي المتعدين، ومنع المدلسين، وكبح الأشرار، وردع الفجار، لا يكون إلا بالمحاكم الشرعية والسياسية المؤسسة على دعائم العدل والإنصاف.

وإنها لا تحقق إلا بقانون حق، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة - حتى إرش الخدش[١] - إلا محفوظا بأمناء يقظين، محروسا بعدول نشطين، محفوظا بعلماء فقهين، معززا بقضاة مقسطين، مؤيدا بحكام أعفاء وأعوان بررة، يدركون ببصيرتهم الوقادة مصالح العباد، ومناهج تعمير البلاد، ووسائل درء المفاسد الداخلية، وطرق منع النوازل الخارجية، وأن القيام بذلك لا يكون إلا بضرب ضرائب عادلة عليهم يجمعها جباة عدول، تصرف في منافعهم العامة لدى الضرورة بلا حيف وميل، وانتخاب طائفة من أبطالهم الموصوفين بالصداقة وعزة النفس وعلو الهمة لحفظ الأمنية[٢] الداخلية، ودفع الأعداء الخارجية، ويشعرون بأن استكمال سعادة المملكة، وصيانة استقلالها، لا يكونان إلا بارتباطاتها السياسية وعلائقها التجارية مع الممالك الأخرى، وأنها لا تتم إلا برجال عارفين، دهاة، متبصرين، محبين لأوطانهم (لا كحسن أفندي فهمي شيخ الإسلام الأسبق في الأستانة[٣] الذي كان يقول لعدو وطنه الجنرال إغناتيف سفير الروسية فيها: إنك عيني اليمنى، وإن حيدر ابني عيني اليسرى، كما ذكره حضرة مدحت أفندي في كتابه المسمى بأس الانقلاب) متدربين محنكين بالسياسة عالمين بالحوادث قبل ظهورها، محيطين بطرق التجارة، فيقومون بواجبات ما اقتضته حكمتهم، وما أحاطوا به علما، ولا يتهاونون آنًا ما عن أداء حقوق رعاياهم، ولا يفتدون راحة أنفسهم بسعادة أولئك الضعفاء. وزد على ذلك أنهم يدرون أن غالب أفراد الإنسان طبع على الحرص، وفطر على الشر، وجبل على الشهوة، وخلق متهاونًا بواجباته متوانيًا عن إصلاح شئونه، ونشأ على المكر والحيل، وغرز فيه حب الاعتداء على حقوق الغير وعدم

---

(١) الإرش شرعا بدل الدم أو الجناية أو هو للأطراف كالدية للنفس. (هامش المنار).

(٢) الأمنية: الأمن.

(٣) قيل - ومصدر ذلك هو الأفغاني نفسه - إن حسن فهمي هذا كان من أعداء الأفغاني وحساده خلال إقامته في تركيا (١٨٦٩ - ١٨٧١) وأنه تسبب في طرده منها.

الاكتفاء بما ملكته يداه، وغرس فيه بغض الشرائع والقوانين، حينما يراها سدا يمنعه من سلوك سبيل الغدر، وحاجزا يردعه عن مقتضيات الشره، وغلا يكف يديه عن التطاول. وإنهم يفهمون أن كل ما يقع في العالم الإنساني من المرض والصحة والفقر والغنى والنصب[1] والراحة، بل كل ما يقتضي الشقاء والسعادة، ويوجب الصلاح والفساد، لا بد وأن يكون لإرادة الإنسان وحركاته الاختيارية فيه دخل تام، ويدركون أن الإنسان ما دام على هذه السجية والغريزة فهو كمريض تنازعته أمراض خطرة مختلفة، لا ينجو منها إلا بتمريض طبيب ماهر يعرف العلل والعلاج، ويتفقده آناء الليل وأطراف النهار، فيهتمون حكمة وشفقة بتتبع أحوال الرعايا مثل ذلك الطبيب الماهر، ولا يبرحون عن موازنة أعمالهم وأفعالهم وحركاتهم، ولا ينفكون عن مقايسة آرائهم وأخلاقهم، ولا يفترون عن تعديل ثروتهم وغنائهم، وتقويم علومهم ومعارفهم وتجارتهم وزراعتهم، وإحصاء عددهم، وتعداد أحيائهم وأمواتهم، ولا يتوانون عن مقابلة الصادر والوارد في ممالكهم، والمعادلة بين قوة حكومتهم واقتدارها واقتدار الغير وقوته، لكي يقتدروا على تدارك مصالح البلاد قبل تمكن الفساد، ويقدروا على جبر الكسر وسد الثغر، ورفو الخرق، وإزالة جراثيم الرزايا والمصائب، وإبادة أسباب الخلل والمصاعب. وإذا لم يمكنهم القيام باستقصاء دقائق التعديل والتقويم، وجزئيات الموازنة والمقايسة مباشرة، انتخبوا رجالا يقظين عارفين بأحوال الدول وقواها، متبصرين بشئون الممالك وأسباب سعادتها وشقائها، عالمين بفنون التجارة والزراعة والصناعة ولوازمها، مهندسين محاسبين لأداء هذه المصالح، وتسجيلها في السجلات بغاية الدقة والإتقان، وعرض كلياتها على هؤلاء الولاة الحكماء، مع بيان موارد النقص والخلل وإيضاح أسبابها. وغير خاف أن تسجيل المعادلات وحفظ الموازنات للدول ألزم من تقييد التاجر معاملاته في دفاتره اليومية، فإنه لا يلزم من إهمال في التقييد والتثبيت، إلا أن يضيع رأس ماله على جهل منه، ويصبح مفلسا، وهذا ضرر خاص به. وأما إهمال الدول في حفظ المعاملات وتسجيل الموازنات فيوجب

---

(١) النصب ـ بفتح النون والصاد: التعب والإعياء.

خراب البلاد وهلاك العباد ومن أجل هذا تجد للدول الغربية عناية تامة بهذا الشأن المسمى عندهم بالإستاتستيك[١].

فهاك يا أيها الإنسان الشرقي صاحب الأمر والنهي حكومة رحيمة حكيمة وعليك بها، والقيام بشأنها، وحفظ واجباتها، وإلا فبحياتك التي أفديتها براحة العالم أن تعفونا عن تحمل ثقل تشدقك بالرحمة والعدالة والحكمة والفطنة. أتريد أن تظلمنا ونكافئك بالشكر؟ وتغصب حقوقنا ونجاريك بالثناء؟ أو تظن أنك تقدر أن تغر كل العالم وتعمي بصائرهم؟ وأن تنزل بالملك عندهم منزلة الحق؟ وأن تجلس جورك مجلس العدل؟ وأن تقيم سيئاتك مقام الحسنات؟ وأن تقعد رذائلك مقعد الفضائل؟ ولعلك اغتررت بتمجيد المتملقين، وتعظيم المتبصبصين[٢]، وتبجيل المتزلفين أمامك. ويحك، لو كنت تعلم مقامك في النفوس، ومنزلتك لدى أرباب البصائر والعقول لودعت هذه الدنيا الخئون التي ألهتك، وفارقت حياتك العزيزة التي طالما افتديتها بالمروءة والإنسانية.

وأما أنتم يا أبناء الشرق، فلا أخاطبكم، ولا أذكركم بواجباتكم، فإنكم قد ألفتم الذل والمسكنة والمعيشة الدنيئة، واستبدلتم القوة بالتأسف والتلهف. صرتم كالعجائز لا تقدرون على الدرء والإقدام، والجلب والدفع والرفع. فإنا لله وإنا إليه راجعون.

---

(١) الإستاتستيك: علم الإحصاء، وكان علما حديث النشأة في ذلك الوقت. ومن الواضح أن الأفغاني نقل الاسم عن الفرنسية.

(٢) المتبصبص: الطامع أو الراغب في الملق.

٥

«أحرار» يقتلون الحرية

الخديوى أعار يديه للاحتلال خوفًا على العرش

مصر باب الشرق وفيها لم يخمد العصيان

«أحرار» يقتلون الحرية[١]

السيد رئيس التحرير

لقد خان الأحرار الإنكليز كل تعهداتهم التي ضمنوها برنامجهم السياسي، الذي بموجبه وصلوا إلى الحكم. . . وذلك بتدخلهم في شئون مصر، وجهودهم التي هم بصدد بذلها في سبيل السيطرة على هذا البلد.

إنهم خانوا وعودهم، بسبب تعهدهم أمام ناخبيهم للدفاع عن حق الناس وحرية الأمم في كل أنحاء المعمورة.

الأحرار فاقوا المحافظين في مجال الفتوحات والحروب الظالمة، التي انتقدوا بفصاحة اللورد بيكونسفيلد وأصدقائه، بسببها.

ومن لا يتذكر غلادستون خلال الانتخابات العامة، الذي لم يتردد في تأييد «الزولو» الذين تخطوا الحدود الانكليزية، والأفغان الذين، بتحالفهم مع الروس وحدهم، قضوا على علاقاتهم الصداقية مع إنجلترا.

وهو، غلادستون نفسه، الذي أعلن الحرب على المصريين الذين لم ينتهكوا حدود أحد، وكل ما طلبوه هو أن يعيشوا أحرارا في وطنهم. . . الذين لم يعطوا أفضلية، على صعيد التحالف، لأية دولة أوروبية، دون الأخرى. مفضلين العيش بسلام وبصداقة طيبة مع الجميع.

أهكذا، إذن، يجري اللعب على قيمة الكلمات بين الأوروبيين، وهل يجب أن نعتقد بأن الذين يزدانون بينهم بلقب الأحرار، في وطنهم، هم أسوأ أعداء الحرية لدى الآخرين.

(١) مجلة أوراق ـ العدد السابع (كانون الثاني/ يناير ١٩٨٤).

فضلا عن ذلك، فان فتح إنكلترا لمصر قد تم وفق موضة الفتوحات الخاصة بهذه الأمة والمتبعة منذ جيلين، فإنكلترا لا تقدم على ذلك، والسلاح باليد. إنها تحترس جيدا. وبالعكس، هي تدخل البلد الذي تطمع به، تحت كل الأشكال الأكثر مجاملة، وكل المظاهر الأكثر مودة. هناك، تنحاز أحيانًا إلى جانب الأمير ضد الشعب، وأحيانًا إلى جانب الشعب ضد الأمير. وهي تنحاز مرة لدولة ومرة لأخرى، تبعًا للظروف، ووفقًا لعروض الخدمات الملحة، واضعة تحت تصرفهم أخلص موظفيها وضباطها الذين سرعان ما يهيمنون على كامل الإدارة. وليس ما يمنعهم من الظهور بالتجرد من أية غرضية، حيث إنهم لا يقصدون إلا إنقاذ الأمير من أعدائه الداخليين، وتخليص الشعب من أعدائه الخارجيين.

هذه المسرحية، المتكررة، لعبتها إنكلترا مؤخرا، تارة إلى جانب الخديو توفيق، وطورا إلى جانب الحزب الوطني المصري، حيث لم تعد تعرف، حتى اللحظة الأخيرة، أيا من الاثنين هو تحت حمايتها نهائيا. بالنسبة للخديوى، حاولت أن تقنعه أنها الوحيدة التي تستطيع وتريد دعمه ضد الحزب الوطني، الذي يهدف فقط إلى قلبه، وهذا خطأ. وقالت للحزب الوطني وعرابي بواسطة جواسيسها السريين، إنها الدولة الوحيدة التي ترغب في الحكم الذاتي لمصر، وهذا أيضًا خطأ.

واحسرتاه! فلو كان الخديو أكثر فطنة أو أكثر ثقافة، لكان تذكر ما يترتب عادة على الأمراء والأسر المالكة، الذين يقبلون المساعدة والحماية من إنجلترا ضد مواطنيهم. في الواقع، بدأت إنجلترا في تجديد سلطتهم، معلنة أنها خادمتهم الأولى.. تلك السلطة الملكية التي وضعتها بريطانيا دائما في المقدمة، وجابهت بسببها الجميع في الداخل والخارج، ولكن شرط أن تتصرف السلطة تلك كما يحلو لها (أي لإنجلترا).

هذا ما يمكن رؤيته في الهند خلال ٨٠ سنة. فإنجلترا لديها الصبر ـ الصبر كان فضيلتها السياسية الكبرى ـ أن تظهر بمظهر الصديق المتواضع، الأكثر سعادة والخليفة الأكثر تبجيلا من عائلة تيمور المالكة، رغم أنها منذ اليوم الأول لتدخلها الصداقي لم تترك لهم، في التحديد وفي الحقيقة، غير اللقلب الشرفي للشاهنشاهية، ولم

تخلع القناع وتظهر على حقيقتها: السيدة الوحيدة والمطلقة للهند، إلا منذ حوالي ثمانين سنة.

لو كان توفيق أكثر ثقافة، لأدرك أن إنجلترا، وهي تسيطر كما فعلت، بحجة الدفاع عن البلد، وعن الجيش المصري.. ستعامله، وهو الخديو، تمامًا مثلما عامل «النابابا» في «البنغال» و«لاكانو» و«كاماتاك» وغيرهم من «النابابيين» الذين هدرت دمهم وضمت بلادهم، بواسطة الجيش الذي وضع تحت رعايتها حيث أعادت تنظيمه، كما ادعت، من أجل الدفاع عن العرش.

ولو أردت أن أقيم مزيدا من المقارنة والتشابهات، لكنت لاحظت كيف أن إنجلترا حين استولت على جزيرة قبرص، قد تظاهرت بالقول إنها لم تسلخها نهائيا عن الإمبراطورية العثمانية التي سوف تعيدها إليها. ولكن حين سلخت كالكوتا من آل تيمور، لم تقل إلا الشيء نفسه.

حتى خلعها لإسماعيل واستبداله بتوفيق، ليسا شيئا فريدا في سياسة إنكلترا الشرقية. ذلك أن الاحتفال الرسمي نفسه، قد جرى برعايتها، يوم تم خلع «النابابا سراج الدولة»، واستبداله بمراد جعفر.

باختصار، إنجلترا هي بصدد تفكيك الإمبراطورية العثمانية من أجل ابتلاع الأجزاء المرغوبة منها، الواحد تلو الآخر، تمامًا بالطريقة نفسها التي ابتلعت فيها الهند، ببطء، ولكن بلا مخاطر.

غير أنها، لسوء حظها، قد اضطرت إلى التخلي عن نهج النفس الطويل في مصر، رغم أخطائه، فإن نجاحات الحزب الوطني، الذي لم يقبل بأقل من الحكم الاستقلالي للبلد، قد دفعتها إلى التفكير الشديد. إن حكم الحزب الوطني لمصر، كان مناقضا لما حلمت به؛ ولذلك سرعت الأحداث. والمعروف أن النتيجة المباشرة لتسريع الأحداث: قصف الإسكندرية، إبطال حياد قناة السويس، ومعركة التل الكبير، وغيرها.

ولكن الكوارث الماضية الناجمة عن تسريع الأحداث، ليست موضع اهتمامي

الآن. ما أريد التوقف عنده هو نوعية وكمية النتائج المتلاحقة التي ستنجم حتمًا عن تلك السياسة.

أولى تلك النتائج أن إنجلترا، من الآن وصاعدا، لن تتمكن من إخفاء لعبتها.

في شهر حزيران (يونيو) المنصرم، تذرعت إنجلترا، لتدخلها في مصر، بمطلب الحزب الوطني أن يكون لمجلس الأعيان حق فحص الميزانية، مع أن المطلب صحيح، ومشروع ومنطقي، جدا.

«كلا لا أستطيع الموافقة على ذلك» أجابت الحكومة الإنجليزية بإصرار. «إن مثل هذا الادعاء يمس شروط المراقبة الموضوعة عبر اتفاق دولي بين مصر، فرنسا وإنجلترا، اتفاق مصادق عيه ومعترف به من أوروبا. لا تمسوا شروط اتفاق المراقبة، إنها مقدسة».

إن ما كان مقدسًا لإنجلترا في شهر حزيران (يونيو)، أصبح أقل قداسة بعد القصف في أيلول (سبتمبر)، ثم انتهى تمامًا الآن. فحتى تصبح سيدة مصر سريعًا، عمدت إنجلترا نفسها إلى إلغاء الاتفاق، رغم احتجاج فرنسا الشديد، والقلق القليل الذي أبدته أوروبا، التي تنظر بحيرة إلى ما يجري في هذا المجال بين القوتين الغربيتين الأعظم.

بلا شك، لقد استعملت كلمة غير دقيقة تمامًا، بقولي إن إنجلترا نفسها هي التي ألغت الاتفاقية، فهي كلفت رسميا توفيق ووزيره الأول شريف باشا، للقيام بتلك المهمة. ولكن هذا التوكيل لم يغش أحدا ولم يثبت، إلا أن إنجلترا، منذ اليوم، صار لها اسمان مصريان مستعاران بدلا من واحد.

بالنسبة لحيرة أوروبا، فهي تفهم على ضوء الأزمة الداخلية التي تجتاح فرنسا، ولكن من المتوقع ان الحيرة ستزول بزوال الأزمة. وإنجلترا، عند الحاجة، تتعهد بوضع حد نهائي للأزمة، عبر وقاحتها الخداعة. في الواقع لا أحد يجهل، أنها وحدها منذ شهر آب (اغسطس)، سرقت حق الأمم بأخذها قناة السويس قاعدة لعملياتها الحربية. تحت خطر توقيف تجارة العالم بأسره. وإنجلترا نفسها اليوم، ترفع الصوت عاليا في أوروبا، متشكية من الأضرار التي لحقت بتجارتها الخاصة

بسبب الحرب المجرمة التي أضرمتها. وفي اليوم الذي يتسنى فيه لأوروبا أن ترى كيف يهزأون بها في مصر ويضحكون من سمو مصادقتها، فحينئذ لا يكون لها أن تسأل أو تتذكر من هي المتشكية ومن أى شيء تتشكى. وعاجلا أم آجلا، فان أوروبا ستستيقظ ذات يوم لتبلغ إنجلترا أنها ليست مادة لسخريتها. ولكن ثمة يقظة أخرى سابقة، حيث تكون نتائجها مخيفة للإمبراطورية البريطانية، وأقصد بها يقظة الهند.

أنا لا أعتقد أني أبالغ في قولي إن خشونة تدخل إنجلترا في مصر قد أفقدتها، في لحظة، كل ما نالته عبر براعة رجال الدولة عندها خلال سنوات طويلة، من ميل وثقة الهنود. لقد أصبحت إنجلترا، الآن، موضع بغض عميق من قبل الهنود المسلمين، السنة منهم، والشيعة، وسواء جاء ذلك بالغريزة أو عبر تحذير ممن لهم معرفة بالهند، فالمسلمون الهنود قد اقتنعوا الآن أن هدف الإنجليز من الاستيلاء على مصر، هو في الدرجة الأولى للتحضير من أجل فتح الحجاز ومكة. وهم يعتقدون جميعًا أن الإنجليز، في حال وضع يدهم على مهد ومركز الإسلامية، سيتوفر لهم عامل قوي من أجل القضاء على هذا الدين. ذلك أنه من المعروف أن لدى عامة الهنود فكرة عن إنجلترا مختلفة عن فكرتهم إزاء فرنسا أو روسيا مثلا، وهي أن الأولى تطلب منهم إضافة إلى الإتاوات والضرائب حيث تحاول استمالتهم إلى الديانة المسيحية. والذي يعرف الشرقيين واهتمامهم القلق عندما يهددون باعتقادهم الديني.. يتوقع حدوث كل شيء.

لقد سافرت إلى الهند خلال الحملة العسكرية الأخيرة لمصر. هناك لم ألتق مسلمًا واحدًا إلا وكلمني عن هذه الأحداث بقلق وألم عميقين. الجميع قالوا لي: «يجب أن نتضرع الآن حتى تسرع روسيا في أخذ الهند من الإنجليز، وتقلب هنا حكومتهم الشرهة.. حيث، بخلاف ذلك، ستلاقي الإسلامية، قريبا، بينهم من هم أكثر المضطهدين المبغضين. إن إرسالياتهم تريد أن تعمل منا مسيحيين، بأي ثمن».

يجب الاعتراف أن ما تنشره في تلك الحقبة جريدة «الأخبار» الهندية في لاهور، ليس بمقدوره أن يهدئ من تلك التصورات. كانت الأخبار تنشر، من دون

تعليقات، بعض المقالات نقلا عن الجرائد الإنجليزية شبه الرسمية، مثل قولها: «إنه يجب على حكومة صاحبة الجلالة أن تقرر، بسرعة، فرض المسيحية على مسلمي الهند، حيث، دون ذلك، لن تصل إلى شيء، لأن المخالفين لها دينيا، هم مخالفون سياسيا، ولا يرون في الهيمنة البريطانية إلا هيمنة غير شرعية وزائلة، حيث لا يجب أن تكون إطاعتها إلا في الحد الأدنى، إضافة إلى عدم الثقة بها. وعليه، فلا ريب أنه من الضروري أن تتصرف إنجلترا كما تصرف الفاتحون المسلمون، حيث تفرض بدورها دينها على الشعوب المغلوبة».

إني لا أقدر هذه الألفاظ حق قدرها، بالنظر إلى الاحتمال الديني الحديث. أما بالنظر إلى التدبير السياسي المألوف، فمما لا خلاف فيه، أن العبارات تلك تدعو إلى عجب الكتاب الذين لم ينسوا أن ثورة عام ١٨٧٥ نشأت عن خوف وتهديد أقل وضوحًا من هذا التغيير في الدين، وإني أعلم يقينًا أن هذا الخوف قد استولى الآن على كل أفغانستان وبلوخستان، حيث جاءوها بطريق سمرقند وأشكاباد من أملاك روسيا. وليس من الخطأ أن تتنبأ بأنه سيتم حصد مثل هذا الزرع حين تحل روسيا في «مرو»، مما لا يطول أمد انتظاره. لأن حلم الإنجليز المتعلق بدعم ألمانيا والنمسا ضد روسيا في أوروبا، بما يحولها عن الهند، هو حلم وهمي.

هاك في آسيا النتائج القريبة والأكيدة تقريبا، في مذهبي، لضلال أحرار الإنجليز في المسألة المصرية، أما في أوروبا، فمن الممكن أن لا تكون هذه النتائج في ساعة ما مخيفة. ومهما كانت تأكيدات وزارة الخارجية مطمئنة وضاحكة، بالنسبة لأفكار أوروبا الحالية في هذا الشأن، فإن أمرا واحدا متغلب على كل ذلك، وهو أن أوروبا لا يمكنها أن تنسى أن مصر كانت في مدة أجيال عديدة أرضا حرة مفتوحة لكل الأوروبيين، الذين كانوا يتمتعون فيها بمنفعة خاصة، فكانوا يتجرون فيها ويربحون بحرية. وكيفما ننظر الآن في المسألة نرى أن هذا الحق نقص ومس بالتداخل الإنجليزي، الذي تتألم منه الآن النمسا وإيطاليا، وبالأخص فرنسا التي لم يصادف نفوذها المخصب في تلك الجهات فشلا إلى تاريخ هذا التداخل، فإن مصر كانت ولا زالت على الدوام باب الشرق، ولكل أمة أوروبية عظيمة أو صغيرة مصالح وعلاقات في الشرق. فإذا كان في نية إنجلترا أن تحفظ لنفسها وحدها هذا الباب

وتضع مفاتيحه في جيبها، فكل الأمم على اختلاف أجناسها تجد بذلك إهانة واحتقارا لها، وتدفع بقوة الحوادث رغم المغايرات والمخاصمات التي تفصلها عن بعضها في جهات أخرى من الأرض، إلى تأليف عصبة واحدة ضد إنجلترا في الأرض المصرية، وهذه هي النتائج التالية المتوقعة لسياسة وزارة غلادستون المصرية.

بقي علي أن أظهر أن هذه السياسة الإنجليزية المصرية لا تصادف في أرض مصر نفسها أخطارا قليلة، لأن الأفكار بعيدة فيها عن السكون. والعصيان لم يخمد فيها بمطامعه الشرعية وغيرته الوطنية. والخديو توفيق، بإعاراته مداخلات الإنجليز أذنا صاغية، بأمل إنقاذ عرشه وبقائه بعيدا عن بعض الأخطار الناجمة من رعاياه، مما أدى إلى استدعائهم لمساعدته وفتحه أبواب البلاد لهم. غير أنه عندما يتضح له أن المدعين لحمايته ليسوا إلا عبارة عن سجانين، وعندما يعرف حقيقة هدفهم، التي ليست تعمير مصر، بل السيطرة عليها واستثمارها.. في ذلك اليوم، لا نشك أنه يرفض أن يكون أداة بأيديهم، وسيخجل من كونه قد أعار يديه للأجانب الذين احتلوا بلاده.

عندئذ، سيفعل ما فعله ملك الأفغان الشاه سودجاه، لأن توفيق ليس أقل ديانة من الملك الأفغاني، بل إنه يعادله بالوطنية والشجاعة ذلك أن توفيق يجب أن يكون ابنا جديرا بأبُوَّة محمد علي.

إذن، مثل شاه سودجاه، سوف يصرخ: اطردوا الإنجليز، ولو اقتضى ذلك أن تدوسوا على جثتي.

عندها، سيجد توفيق والمصريون في أوروبا حكومة مفعمة بعواطف الشجاعة والشهامة تمد لهم يد المساعدة.

«جوستيس»

٢٧ آذار ـ مارس ١٨٨٣

٦

بابيـــــة

بابيَّـــة

دين ظهر في بلاد االعجم نحو سنة ١٨٦٣ بدعوة رجل من أهل شيراز يعرف بالسيد علي محمد وكان تلميذا لبعض تلامذة الشيخ أحمد زين الدين الإحسائي الذي مزج التصوف والفلسفة بالشريعة وجمع بين اعتقادات الشيعة الإمامية والأصول الفلسفية على طرز جديد وقال إن المهدي الغائب المنتظر ظهوره عند الشيعة هو الآن من سكان عالم روحاني غير هذا العالم الجسماني سماه بجابلقا وجابرسا وإن أجسام سكان ذلك العالم الروحاني كأجسام الجن والملائكة المسماة بالأجسام الهورقليائية وهي من اصطلاحات الكيميا القديمة، وقد قفاه على هذا الأثر تلامذته وقاموا في مقام التعليم على هذه الطريقة وكان من أمر السيد علي محمد المذكور بعد أن حج إلى مكة أن ادعى أنه باب المهدي وأقام على تقرير هذه الدعوى مدة وأسس ذلك الدين من عناصر إسلامية ونصرانية ويهودية ووثنية ولقب نفسه باب الدين ثم ترك هذا اللقب ولقب نفسه النقطة أو خالق الحق مدعيًا أنه ليس نبيا بسيطًا بل هو مشخص للآلهة ومنح أحد أتباعه لقب الباب وأرسل دعاة إلى جهات مختلفة. ثم بناء على قول مقتداه الشيخ أحمد المذكور في أمر المهدي ادعى ثانية أنه المهدي بعينه وأن ذاك الجسم اللطيف الروحاني قد ظهر في هذا الجسم الكثيف المادي ولما كانت الرجعة أي رجوع بعض الأئمة السابقين وتابعيهم من الأصول الثابتة في مذهب الإمامية والتناسخ من اعتقادات طائفة الباطنية الذين تسلطوا في بلاد العجم مدة طويلة كان له بقايا في النفوس فقام جماعة من أتباع هذا الرجل - أعني السيد عليا - وادعى بعضهم أنه الحسن وبعضهم أنه الحسين وبعضهم أنه غيرهما من الأئمة وتابعيهم، وأيد هذه الدعاوى عندهم رأي رآه هذا الرجل نفسه وهو أن شخصية الشخص التي باعتبارها يمتاز عن غيره وينال اسمًا خاصا به كحسن أو حسين مثلاً إنما هي صفاته وأخلاقه التي يكون عليها، فمن وجدت فيه

صفات شخص وأخلاقه وأحواله على وجه تام فهو هو في أي زمان كان. ولقرب هذه الاعتقادات من مشرب الطائفة الشيخيةً من الشيعة وهم أتباع الشيخ أحمد زين الدين المذكور آنفًا لبى دعوة هذا الرجل كثير من أهالي بلاد العجم المتمذهبين بذلك المذهب الجديد. فلما رأى إقبال الناس عليه وإجابتهم دعوته ترفع في دعواه فقال إنه هو النبي وإن الله قد أنزل عليه كتابًا يسمى بالبيان وأنه المشار إليه بقوله تعالى خلق الإنسان علمه البيان. والإنسان هو محمد والبيان هو هذا الكتاب المنزل على السيد علي. وكتابه هو يحتوي على كثير من العربي المسجع وبعض الفارسي إلا أن العربي منه كان ملحونًا فلما سئل عن سبب وقوع اللحن في هذا الكتاب المنزل مع أن اللحن نقص أجاب بأن الحروف والكلمات كانت قد عصمت واقترفت خطيئة فى الزمن الأول فعوقبت على خطيئتها بأن قيدت بسلاسل الإعراب وحيث إن بعثتنا جاءت رحمة للعالمين فقد حصل العفو عن جميع ا لمذنبين والمخطئين حتى الحروف والكلمات فأطلقت من قيدها تذهب إلى حيث شاءت من وجوه اللحن والغلط. ومما ينسب إليه أنه كان سريع القلم في الكتابة حتى كانت سرعة قلمه تحسب من جملة معجزاته. وقد لقب نفسه بالذكر وزعم أنه المراد من الآية ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]. ومن قوله: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣]. وأمثال ذلك من الآيات القرآنية وأخذ يدعو الناس إلى دينه ولم يعلم من يجيب دعوته فتبعه جمع كثير من أهالي بلاد العجم واستفحل أمره وعلقت بقلوب الناس دعوته وأوقع تابعوه في قلوب الناس رعبًا وخوفًا إذ كانوا يقفون على سرائر الناس وخباياهم فمن كان يومئ بطعن في معتقدهم لم يلبثوا أن يقتلوه وفشا منهم التعدي والغدر حتى كانوا يتشكلون بأشكال متعددة كالسائلين ونحوهم ليتمكنوا من الفتك بمن ظنوا به أو توهموا فيه أنه يشير بسوء إلى مذهبهم فسفكوا بذلك دماء كثيرة، وكانوا شبه الناس بالفداوية الذين اشتهر أمرهم على عهد الفاطميين (راجع إسماعيلية) ثم إنهم لم يقفوا على هذا الحد بل تجاوزوه إلى أن أثاروا الفتنة على الحكومة في ثلاثة مواضع وأبرزوا من الجسارة ما لم يسمع بمثله حتى كان الرجل منهم يتزر بإزار ويأخذ سيفه ويهجم على الألوف من العساكر عريانًا ليس عليه سوى الإزار وكانوا يعتقدون أن من يموت منهم في المحاربات يقوم بعد أربعين يومًا فاشتد على الحكومة خطبهم وحاولت كبحهم فقاوموها وثبتوا

أمامها إلى أن قبض على هذا الرجل - أعني السيد علي محمد - وقتل بالرصاص على فتوى العلماء في تبريز وذلك سنة ١٨٥٠ بعد أن بقي في السجن ١٨ شهرًا وقذف بجثته في خندقها وذلك فى عهد الشاه الحالي في السنة الثانية من جلوسه على كرسي المملكة. ويزعم أتباعه أن جثته قد صعدت إلى السماء، أما غير أتباعه من الأعجام فيقولون إن جثته قد أكلتها الكلاب. وبعد مضي سنة من قتله حاول ثلاثة من أتباعه قتل الشاه فرموه بالرصاص إلا أنه أخطأه فنشأ عن ذلك اضطهاد شديد فقتل جماهير من أتباع الباب في طهران وعذبوا بعذابات تقشعر لها الأبدان ومن جملتهم قرة العين الآتي ذكرها، وكان ذلك باعثًا على زيادة امتداد الباقية في العجم والهند وقسم من تركيا.

ثم إن هذا الرجل كان قد أوماً في بعض رسائله إلى أن الذي يخلفه بعد موته شاب من تلامذته يسمى يحيى ويلقب بصبح أزل، فلما وقع تشديد الشاه عليهم وتعقبهم بالقتل في جميع الأماكن هرب كثير منهم إلى بغداد من بلاد الدولة العلية. وممن خرج منهم يحيى صبح أزل وأخوه الأكبر المسمى بميرزا حسين علي الملقب ببهاء. فاختفى صبح أزل عن أعين الناس بأمر أخيه وادعى أخوه أنه حاضر بين الناس إلا أنهم لا يرونه إذ ليست الأبصار بقابلة لأن تناله. ولما وقع الاتفاق بين الدولة العلية ودولة الشاه على إخراجهم من بغداد ونقلتهم الدولة إلى ادرنه تنفس صبح أزل وأسفر على الناس قائمًا بأمر الخلافة داعيًا إلى دين أستاذه السيد علي فحسده أخوه وأنكره وادعى أنه دجال فوقع الشقاق بينهما وافترق التابعون فئتين فئة اقتدت بصبح ازل، وأخرى ببهاء والأولى تسمى أزلية والأخرى بهائية والبابية اسم لهما عام. وبعد مدة، أحست الدولة العلية منهم سوء المقاصد وأوجست منهم شرا فنفت صبح أزل إلى جزيرة قبرص فمات فيها ونفت بهاء إلى عكاء وهو الآن فيها مع جمع من أتباعه.

وأما ديانة الباب فثبت مبدأ واحدا كسائر الأديان على ما يتراءى من قول أتباعه وتحكم بصدق جميع المرسلين السابقين وتقرب من قول النصارى بحلول اللاهوت في الناسوت وتنبئ عن ثواب وعقاب للأرواح بعد مفارقة الأبدان لكن على وجه يشبه الخيال فتلتذ النفوس الطيبة بأخلاقها ومعلوماتها وتتألم النفوس الخبيثة بملكاتها

الرديئة وجهالاتها إلى أن تزول هذه الملكات عنها فتعود إلى عالم الأجسام مرة ثانية وهو ضرب من القول بالتناسخ، وتأمر بالصلاة وجوبا وهي ركعتان فقط وقت الصباح. وقد اتخذ مسجدا كبيرا في شيراز وجعله كعبة تولى الوجوه إليها في الصلاة وتفسد الصلاة بالانحراف عنها. ثم إنه جعل الشهر تسعة عشر يوما لأن هذا العدد عندهم مقدس لأن أصل وحدة اللاهوت مؤلفة على زعمهم من ١٩ أقنوما، ورئيسهم الباب فهو عندهم أعظم من محمد كما أن محمدا أعظم من عيسى، وفرض الصوم شهراً من آخر الحوت بحيث يوافق عيد فطرهم يوم النيروز وهو أول الحمل. ومن أحكامه أنه يجب تخريب جميع البقاع المقدسة كمكة وبيت المقدس وقبور الأنبياء والأولياء عند حصول أول سلطة لأحد ممن تبع دينه ويحرم شرب الخمر وكذا الدخان على عهده وحلله أتباعه من بعده ويندب شرب الشاي ندبا مؤكدا حتى أن من شربه ينال جزيل الثواب ومنها أنه يجوز العقد على اثنتين فقط والشراء والمتعة بغير حصر وعلى ما يقال إنه يجوز نكاح الأخت. ومنها ان من كذب في قول أو نادى شخصا من خلفه فقد أساء وكفارته إعطاء ثلاثة مثاقيل من الياقوت فإن لم يجد فصيام يومين، ومنها أن شهداءهم الذين قتلوا في طهران وغيرها يجب أن يبنى لهم مشاهد مكللة بأنواع الجواهر وأنه يجب على أي سلطان يكون منهم أن يضع سيفه في العالم فإما الدين أو الموت ولا يجوز أخذ الجزية. وأنه يجب على كل واحد منهم أن يكون عنده كأس من الفضة وثوب نظيف نقي، أما الكأس فيتناول بها الماء القراح الصافي وأما الثواب فيتجمل به عند الفراغ، وأنه يجوز أن يظهر بعده كامل آخر لكن بعد أن يمضي من السنين عدد حروف المستغاث، يعني ألفي سنة وكسوراً. ويحظر في مذهبهم اتخاذ السراري والطلاق واستعمال النساء للنقاب ويصح أن يقال ان دينهم إلى الآن لم يقرَّ على نظام واحد بل هو كالرمال السيالة تحدث بسيرها تلا في محل ثم تنتقل وتحدث تلاً آخر بشكل آخر في محل آخر.

وكان من جملة دعاته امرأة فتية بارعة الجمال متوقدة الجنان فاضلة عالمة تسمى باسم سلمة من بنات أحد المجتهدين في العجم، وكانت متزوجة بمجتهد آخر طلقت نفسها من زوجها على خلاف حكم شريعة الإسلام وآمنت بذلك الرجل عن

غيب وكانت تكاتبه ويكاتبها فكان يخاطبها في مكاتباته بقرة العين فلقبت بذلك، كانت تناظر العلماء والفضلاء مكشوفة الوجه بدون حجاب ثم لما وقعت المحاربة بين البابيين وعساكر الدولة في مازندران جيشت جيشا وقادته مكشوفة الوجه وسارت أمامه طالبة إعانتهم، وفي أثناء الطريق قامت في الناس خطيبة وقالت أيها الناس إن أحكام الشريعة الأولى ـ أعنى المحمدية ـ قد نسخت، وإن أحكام الشريعة الثانية لم تصل إلينا فنحن الآن في زمن لا تكليف فيه بشيء فوقع الهرج والمرج وفعل كل من الناس ما كان يشتهيه من القبائح، ثم قبض عليها وألبست البرقع جبراً وحكم عليها بأن تحرق حية ولكن الجلاد خنقها قبل أن يشعل النار بالحطب الذي أعد لإحراقها. ومن أحكام هذا الدين أنه لا يجوز أن يضرب المعلم تلميذه أصلا وأن الزكوات والصدقات لا يجوز إعطاؤها لغير البابيين فإن فقد فقير في البابيين فتصرف على من بقي على مذهب الشيخ أحمد زين الدين الإحسائي.

وأما نسبتهم إلى الإباحية (الكمون) بهذا من لوازم مذهبهم، حيث إن كل من خالفهم في معتقدهم فدمه وماله هدر. وأما تشاركهم في الأموال فهو من مقتضيات كل دين أو مذهب جديد إذ يتعاون وأهله ببذل جميع ما بأيديهم ويرتفع الحجر والحرج من بينهم. فهذا ما رواه عنهم السيد جمال الدين الأفغاني المشهور وغيره[1].

(١) دائرة المعارف، قاموس عام لكل فن ومطلب، تأليف: المعلم بطرس البستاني، ج٥ ـ دار المعرفة، بيروت ص ٢٦ ـ ٢٨.

٧

دائـرة المعـارف

رســـالة
من أديب إسحق إلى جمال الدين الأفغاني

سيدي الأستاذ الأعظم

لئن كـان لأدوار الزمـان قضـاء نافذ في الناس، فلقـد حال الكمـال أنفس آحـاد الرجال عنه، فما تنفعل بالحادثات ولا تؤثر فيها التقلبات، بل هي في مقام التجرد الذي تستوي فيه مظاهر عبث الأيام بأبناء الزمان. والسيد[١] لا زال حجة هذا القول، ما ترك فضيلة ولا قعد عن مكرمة ولا ضن بمنفعة، ولكن قضاء الزمان الذي لم يؤثر فيه قد كان نافذاً في مريديه، فما أطاقوا الخير معروضا من جانبه ولا ذادوا الشر طارئا من جانب الأحداث وهكذا وقع من بعضهم[٢] الإهمال فى مكاتبة من راسلهم عن السيد من أمراء الهند، فانقطعت أخباره عن سائرهم إلى هذه الأيام فعسى أن يعوضهم المستقبل مما أضاعوه خيرا فيجد الأستاذ تحت سماء الحرية[٣] مستقراً طيبا أمينا، فلا تحتجب بعد ذلك أنوار أفكاره عن البصائر، وإن احتجب ضياء وجهه عن الأبصار. وقد حمل البصير[٤] إلينا مفتتح مقالة السيد في الشرق والشرقيين[٥] فكانت مقدمته غذاء للألباب وما يليها مهمازا للعزائم ولا تزال

---

(١) أي الأفغاني، وكان يوقع بكلمة «السيد» بعض مقالاته.

(٢) ربما يقصد بعض تلامذته من المصريين، الذين انقلبوا عليه بعد أن طردته السلطات البريطانية من مصر، ونفته إلى الهند.

(٣) أي باريس، حيث كان يقيم الأفغاني حين كتب أديب إسحق رسالته.

(٤) جريدة البصير لصاحبها خليل غانم، وهو وطني لبناني لجأ إلى باريس هربًا من السلطان العثماني عبدالحميد، وكتب هناك في كبريات الصحف الفرنسية أمثال «الديبا».

(٥) نشر المقال في «أوراق» (العدد الثالث) نقلا عن جريدة «أبو نضارة». وكان قد نشر في حينه في جريدة «البصير» وفى جريدة يعقوب صنوع، في آن، كما هو حال مقالات المشاهير من الكتاب.

الأنفس مشتاقة إلى البقية اشتياق الظماء إلى بارد الماء، فالمسئول من كرم السيد أن يرسل إلى ما طبع منها ومن سواها في البصير وغيرها من جرائد لندرة وباريس جملة، فتلك أمنية للعاجز فيها شركاء كثيرون ممن عرفوا السيد بالخبر أو بالأثر ولست أذكر للأستاذ شيئا مما لدي من أخبار مصر العمومية فإنها تصل باريس قبل ورودها إلينا، بل قبل شيوعها في مصر ولكني أحسبه مشتاقا إلى الأخبار الخصوصية عن بعض الأصدقاء فهذه أعرف منها أن عبدالسلام بك[١] على أحسن حال من السلامة والعافية على أنه منقطع في منزله اجتنابا للشبهات إلا عن بعض الأخصاء، وأن سليم أفندي النقاش[٢] سار إلى مصر بإذن حكومتها على أن يصرف أموره وأشغاله ثم يعود، فهو الآن هناك يستمنح رجال تلك الحكومة عوضا ماليا مما لحق به من الخسارة بسبب تعطيل مطبعته وجريدته بلا موجب معلوم[٣]، وأن سعيد البستاني عزل إثر الفتنة ثم أعيد إلى الخدمة بمثل الراتب الذي كان له من قبل وهو الآن على حد قول القائل: وخمول ذكرك في الحياة سلامة، أما أبو تراب[٤] فقد أبلغت إليه وعد السيد باستقدامه إلى باريس عن قريب فكاد يطير بذلك سرورا وهو مقيم هاهنا على الدعة والراحة يترصد معنا الأخبار ويعد الأيام ويستبطئ البرد، فعسى أن تجيئنا كتب السيد بما نتوقع ولا بأس في تعليلنا بالأماني فما الحياة إلا الأمل وله في تحقيقه رأيه العالي المؤيد وأمره الكريم المطاع ومني على حضرته السلام بالإجلال والإعظام.

الخادم

أديب إسحق

بيروت في ١٥ آذار (مارس) ١٨٨٣

---

(١) عبد السلام المويلحي، وهو أحد تلامذة الأفغاني.

(٢) لبناني وطني أصدر في مصر جريدتي «التجارة» و«العصر الجديد» حيث حرر فيهما إسحق، وكان صديقًا للأفغاني.

(٣) إشارة إلى التدابير القاسية التي اتخذت بحقه وبسائر أبناء بلاد الشام، الذين كانوا يصدرون دوريات في مصر من قبل حكومة عرابي باشا الثورية.

(٤) خادم الأفغاني، الذي لازمه طوال حياته.

كتاب «دائرة المعارف»

«إن اللسان يقصر عن تقديم فريضة الشكر والثناء لقطب العلماء وسيد الفصحاء، الحكيم الذي ذاع صيته في كل مكان، وحدث بفضله الركبان، القابض على عنان روح العصر، المفيض من طيب فضله في كل مصر، السيد السعيد الكريم الأصل، العميم الفضل، زبدة العلم والأدب، وأمام كل من كتب وخطب، جمال الدين الأفغاني وفقه الله إلى نوال كل مراد، ونفع به الناس في كل صقع وناد، كيف لا تتشنف الأسماع بذكراه، وهو ينبوع الفضل ومبدأه. وكم له يدا تشهد بزاهر تلك الأفضال، وبياض ما له من الأعمال، وهو صائغ هذا العقد من ألفاظه الدرية، ومفرغ أبلغ المعاني في هذه القوالب العسجدية. هذا وإننا لنشكر حضرة الأدباء أصحاب الجرائد الوطنية في الديار المصرية، وهي جريدة «الأهرام» و«مصر» و«مرآة الشرق»، بنشرهم شهادة ذلك العلامة لدائرة المعارف بين الخلق. ونسأله سبحانه وتعالى أن يمن علينا بحسن النهاية كما وفقنا إلى محاسن البداية».

بطرس البستاني

قال السيد جمال الدين الأفغاني:

«ان الإنسان باعتبار أقنومية المتجاذبين المتدافعين وهما جوهره العقلي النوراني وهيكله الهيولاني الظلماني يقسم إلى قسمين: أحدهما وهو القسم الأعظم سواداً الأكثر أفرادا وهو الذي تنقلب فيه جنبته البهيمية الظلمانية على أصله العقلي الذي به قوام انسانيته فتستعمله لقضاء أوطارها من جلب الملاذ الحسية الجسدانية وتمهيد

طرق الشهوات الخسيسة الحيوانية فلا يهتم إلا بالمأكل والمشارب والتفنن فيها ولا يسعى إلا لتزيين الملابس وتشييد المساكن لا يدرك اللذائذ العقلية ولا يتطلبها ولا يسعى في تحصيلها، بل ينكرها ويسخر ويهزأ بمن يجتهد لنيلها والوصول إليها ولا يعقل الفضائل الحقيقية فيميل إلى التحلي بها ولا يفقه الرذائل فيجنح عنها ولا يشتاق إلى المحامد الحسنة فينزع إليها.

وهذا القسم وإن كان على صورة الإنسان إلا أنه في الحقيقة من البهم والعجماوات بل أحط منها منزلة فإن حيوانا ما من الحيوانات لم يهمل شيئا مما أودع الله فيه من الخواص التي تنادي به إلى كماله الواجب له بخلاف هذا القسم من الإنسان، فإنه قد أهمل أشرف خواصه وهي خاصة العقل التي بها يمتاز عن غيره من أصناف الحيوانات وقد ذهب عليه أن المأكل والمشرب والمسكن إنما هي مقاصد بالتبع لا بالذات يرام نيلها لاسبقاء الحياة كي يكتسب بها المعارف العقلية والملكات الفاضلة.

والقسم الثاني هو الذي يبتغي لذة أخرى فوق اللذائذ الجسمانية بل كثيراً ما يكف نفسه عن اللذائذ الحسية ويغادرها رغبة في استحصال تلك اللذة. وهو ينقسم إلى قسمين أحدهما السلاطين والأمراء وذوو المناصب والرتب. فمن هؤلاء من يتقشف في معيشته مأكلا ومشربا وملبسا ويصرف فكرته أثناء الليل وأطراف النهار ويتجافى عن مهاد الراحة والدعة إلى وهاد التعب والمشقة ويتباعد عن السكون والطمأنينة إلى الاضطراب والحركة. بل قد يقتصر من لوازم حياته على الضروريات التي لا يمكن التعيش إلا بها ولا يبالي بفقد ما عداها من الحاجيات والكماليات فهو بالحقيقة معذب الجسم مؤلم البدن يحمل نفسه على تحمل كل ذلك سعيا في توسيع الممالك وفتح البلدان وقهر السلاطين واستحصال المراتب العالية والمناصب السامية ليمكن بذلك هيبته من القلوب وعظمته في النفوس وينال من الناس محمدة وثناء ويكون ذلك غاية لذاته ومنتهى مطلوبه ولا يعد ما سواه لذة.

وهؤلاء وإن طلبوا لذة روحانية إلا أنهم راموها من غير وجهها وأتوها من غير بابها فإن أعمالهم هذه لا توجب توقيرهم من النفوس ولا انطلاق الألسنة بالثناء عليهم خصوصا عند ذوي العقول والبصائر، لما أنه لم يترتب عليها فائدة في العالم

الإنساني ومع ذلك قد أخطأوا المرمى لأنهم قد اتخذوا لمقصدهم هذا وسائل القتل والنهب والقهر والسلب وإحقاق الباطل وإبطال الحق وتخريب البلاد وتدمير العباد، وهذه الوسائل المشئومة قد انتزعت محبتهم من القلوب وأسكنتها الضغائن والأحقاد عليهم ونفرت منهم الطباع وبدلت التعظم بالتحقر والمدح بالذم والثناء بالثلب لدى العارف والعامي والعالم والجاهل. وها هي كتب التواريخ مشحونة بمثالبهم ومعايبهم وأطلال القرى ورسوم المدن المخضبة بدماء ساكنيها تشهد بشناعة أعمالهم وقبح مساعيهم وخروجهم عن حد الإنسانية إلى خطة السبعية والافتراس حتى نرى أن أفضلهم وأنزههم لا يوصف إلا بعدم الظلم والجور والارتشاء وغير ذلك، وليس بخاف أن هذه الأعدام لا تعد مدائح إذ ليس لهم حق في التعدي حتى يمدحوا بالكف عنه على أن مادحيهم بهذه الأعدام لم يأتوا ذلك إلا رياء ونفاقا وقلبهم ينكر عليهم وما مدحهم بذلك إلا كمدح بعض الآحاد بأنه ليس بسارق ولا مختلس مثلا.

الثاني الحكماء المصنفون والعلماء المؤلفون والعرفاء المخترعون وهؤلاء هم الذين رفضوا مقتضيات الجنبة البهيمية ونزهوا أنفسهم عن الصفات الخبيثة السبعية وبذلوا راحتهم وصرفوا نفيس عمرهم في تحلية عقولهم بأنوار العلوم الحقيقية والمعارف العقلية ونفوسهم بالصفات والأخلاق كاملة، بل أبت نفوسهم الشريفة وهممهم العلية أن تقف بهم عند هذا الحد من الكمال ـ أعني تحصيل الفضائل القاصرة على ذواتهم ـ بل بذلوا الوسع وأجهدوا النفس في نشر العلوم والآداب ووضع القوانين العادلة واختراع الصنائع النافعة والفنون العالية وغير ذلك مما لا يقوم للنوع الإنساني قائم إلا به لا يختصون بذلك جنسا دون جنس ولا وطنا دون وطن ولا يبتغون بذلك سوى لذة الكمال العقلي واستحصال المحمدة الحقة بما قلدوا به أعناق أفراد النوع البشري من نتائج أفكارهم وآثار أعمالهم فصار توقيرهم في النفوس وتعظيمهم في الأفئدة فرضا على كل شخص من النوع الإنساني بالطبع، إن أنكره لسانه شهدت به جوارحه وجنانه بل حازوا السلطنة الحقيقية في المملكة الإنسانية لا يعزلون عنها بموتهم ولا تزول سلطتهم المعنوية الحقيقية ما دامت السموات. انظر إلى سلاطين اليونان والرومان والفرس والكلدان قد محيت أسماؤهم من صفحات

الأذهان لا يطلع عليها إلا المتوغلون في قراءة التواريخ وسير الأمم. وأما فيثاغورس وسقراط وأرسطو وأفلاطون وبزرجمهر وجاماسب فلا تزال الأنفس رطبة بذكراهم ناطقة بفضائلهم ومزاياهم والنفوس معترفة بعوارفهم ومذعنة بعظمتهم وأن هؤلاء العظماء الفضلاء من الشرقيين والغربيين في الأزمان الغابرة والأوقات الحاضرة يحتلون جميعهم من الشرف مكانا عليا واستحقاقهم للمحمدة الحقة والثناء الخالص يتفاوتون فيها على حسب تفاوتهم فيما حازوه من الفضائل وما ترتب على مؤلفاتهم ومصنفاتهم ومخترعاتهم من الآثار والفوائد، فمن كان منهم في المعارف أوسع دائرة وبالآثار أعم فائدة وأتى من الأعمال ما يقيم نظام الهيئة الاجتماعية لنوع البشر كان أحق بالمدح وأجدر بالثناء فيجب على كل من وضع قدمه في أول درجات الإنسانية أن يقدم له الشكر والثناء على قدر طاقته قياما بأداء الحق واستنهاضا للنفوس الحاملة لأن تنال ذاك المقام الأسمى والشرف الأعلى.

ولهذا رأيت من الفرض علي أداء الشكر أصالة عن نفسي ونيابة عن كل عارف باللغة العربية الشريفة أن أنشر عطر الثناء على حضرة العالم الفاضل المتبحر بطرس أفندي البستاني بما أودعه في مؤلفه «دائرة المعارف» من الفوائد الجليلة والمنافع العميمة التي قلد بمنتها أعناقنا قائلا إن هذا المؤلف الفاضل فضلا عن سائر مؤلفاته كمحيط وقطر المحيط وغيرهما قد أتى لنا بكتاب دائرة المعارف محيطا بجميع ما يحتاج إليه الإنسان في معاشه ومعاده، إذ قد حوى جميع التواريخ من سير الأمم والسلاطين وأخبار الأنبياء والحكماء والقديسين وجغرافية البلاد وعلوم الطبيعة والكيميا والنباتات والحيوانات والحساب والجبر والهندسة والفلك وغير ذلك من الفنون الجليلة فمن وهبه الله أدنى عقل غريزي وكان له أقل إلمام بمبادئ العلوم فله أن يستغني بهذا المؤلف عن تجشم الجلوس بين أيدي الأساتذة لأن صعوبة العلوم بصعوبة الوقوف على اصطلاحاتها. وهذا الكتاب قد كشف حجاب الخفاء عن جميع الاصطلاحات بأوضح بيان وألطف عبارة وأرق إشارة غير أنني مع ذلك لا أتمالك أن أظهر أسفي من أن هذا المؤلف لم يبرز بتمامه في عالم الوجود ولست أتوهم أنه من فتور في همة المؤلف لم يبرز بتمامه في عالم الوجود ولست أتوهم أنه من فتور في همة المؤلف الفاضل ولكنه لقصور في رغبة الشرقيين؛ فنوجه إليهم

الخطاب قائلين : يا أبناء الشرق أفلا تعلمون أن سلطة الغربيين وسيادتهم عليكم إنما كانت بارتفاع درجتهم في العلوم والمعارف وانحطاطكم فيها؟ فلم لا تتقد أحشاؤكم بنيران الشوق لهذا المؤلف البديع وأمثاله حتى يبرز بمعدات رغبتكم وكمال شوقكم من عالم القوة إلى الفعل؟! هل رضيتم بعدما كان لكم ذروة الشرف بواسطة العلوم والمعارف أن تدوم لكم تلك الحالة الوخيمة التي أوصلتكم إليها الجهالات والضلالات حتى عادت ترق لكم قلوب الأعداء فضلا عن الأصدقاء؟! فهلموا لاقتناء المؤلفات واقتناص صيد المعارف واعتصموا بعرى الاجتهاد في نيل العلوم واستضيئوا بسنا الحق لتسترجعوا مجدكم وتنالوا حقيقة استقلالكم فتفوزوا مع الفائزين».

* * *

بيروت في ١٥ اذار ٣٤

سيدي الاستاذ الاعظم

لئن كان لدوار الزمان قضاء نافذ في الناس فلقد عدا الكمال انفس آحاد الرجال عنه فما تنفعل بالحادثات ولا تؤثر فيها التقلبات بل هي في مقام التجرد الذي تستوي فيه مظاهر عبث الايام بابناء الزمان والسيد لو زال عجبة هذا القول ما ترك فضيلة ولا قعد عن مكرمة ولا وهن بمنفعة ولكن قضاء الزمان الذي لم يؤثر فيه قد كان نافذاً في مريديه فما الحق الخير معروضاً من جانبه ولا ذاق الشر طارقاً من جانب الا حدث وهكذا وقع من بعضهم الاهمال في مكاتبة من تسلم عن السيد من امراء الهند فانقطعت انباءه عن سائرهم الى هذه الايام فعسى ان يعوضهم المستقبل عما اضاعوه خيراً فيجد الاستاذ تحت سماء الحرية مستقراً طيباً امينا فلو تحجب بعد ذلك انوار انظاره عن البصائر وان احتجب ضياء وجهه عن الابصار وقد حمل البعير الينا مفتتح مقالة السيد في الشرق والشرقيين فكانت مقدمتها غذاءً للالباب وما بعدها مرتاعاً للعزائم ولو تزال النفس مشتاقة الى البقية اشتياق الظماء الى بارد الماء فاسئل من كرم السيد ان يرسل الي ما طبع منها ومن سواها في البعير وغيره من جرائد الشرق وباريس جملة فقلت امنية للعاجز عنها شركاء كثيرون من عرفوا السيد بالخبر او بالاثر ولست اذكر للاستاذ شيئاً مما لدى من اخبار مصر للعمومية فانها فصل باريس قبل ورودها الينا بل قبل شيوعها في مصر ولكني احسبه مشتاقاً الى الاخبار الخصوصية عن بعض الاصدقاء فهذه اعرف منها ان عبد السلام بك على افضل حال من السلامة والعافية بعد ان انقطع في منزله اجتنابا للشبهات

الصفحة الأولى من رسالة أديب إسحق إلى السيد الحسيني

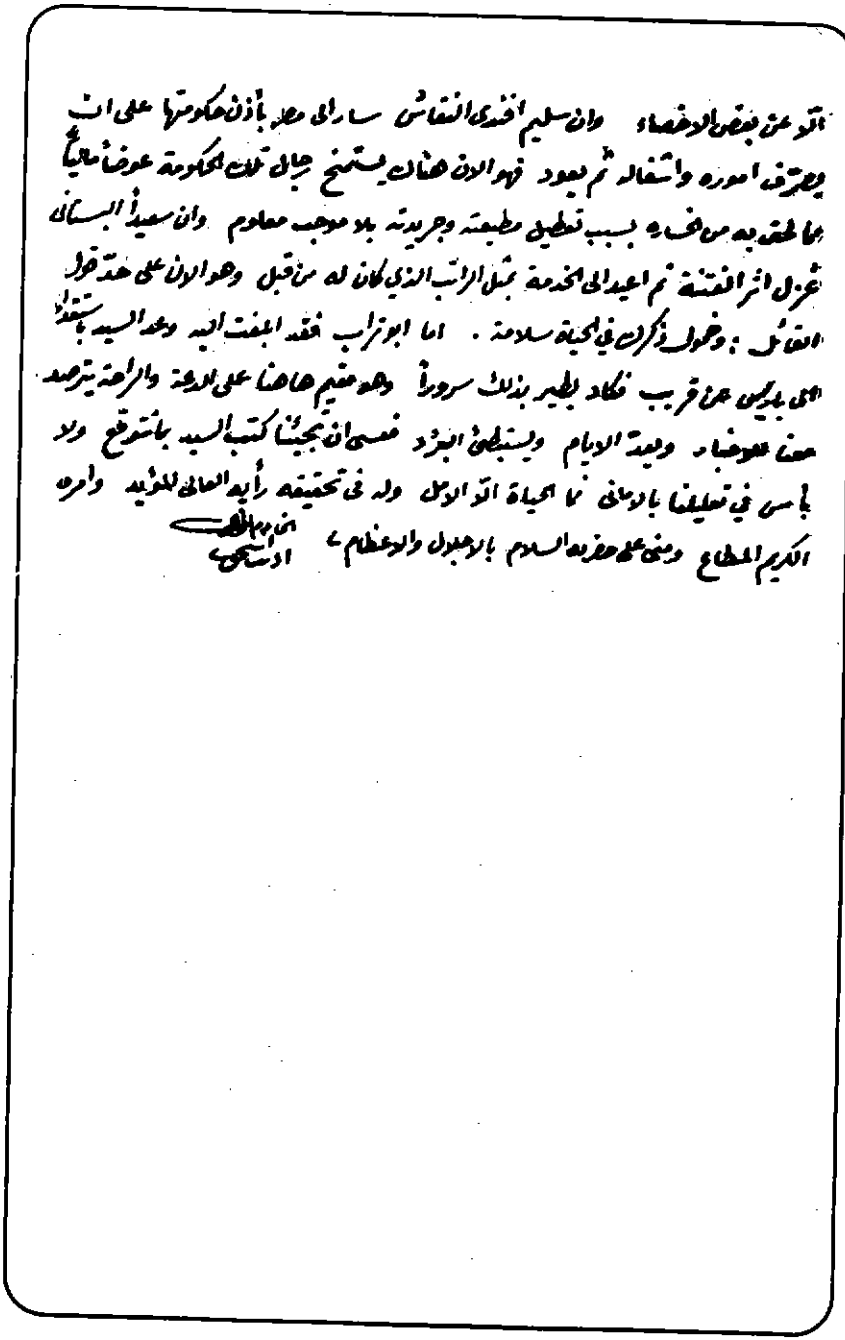

صورة عن الصفحة الأخيرة من رسالة أديب إسحق إلى الأفغاني

٨

خطبة بالإسكندرية

(زيزينيا)

خطبة بالإسكندرية
(زيزينيا)

يا أيها السادة ويا أيتها السيدات.

أرى من الواجب أولا أن أثني على الجراثيم الشريفة الشرقية التي مضت عليها الدهور ومرت العصور وهي في حالة الكمون، لمنع الموانع الخارجية وقسر القواسر الداخلية، ومع ذلك لم تفقد مزاياها العالية، ولم تقدم سجاياها السامية، بل برزت ونمت، فرأينا أصولها الشريفة سادة شرفوا هذا المحضر، لإعلاء كلمة العلوم ورفع منار المعارف، وتأييد أمر الفضل اعتقادًا أن العلم سلطان عادل حكيم، إذا حل ببلد قوم تبعه الغنى والثروة لأنهما لا يحصلان إلا بالتجارة والزراعة التى لا تحصل إلا بالعلم، ولزمه الطمأنينة والراحة لأنه يعين الحدود ويبين الحقوق، فيكون لكل من الناس خط لا يتخطاه، وحد لا يتعداه، ووليته الحرية لأنه يبين للإنسان مقدار نفسه، فيعرف بذلك قدر غيره، ولا يخضع لمن يتوهم فيه السيادة خضوعا أصم، ولا يطيع لمن يعتقد به الرئاسة طاعة عمياء، فلا يؤخذ إلا بالقانون ولا يدين إلا للشريعة، وتلته الشفقة لأنها لا تحصل إلا بأن يدرك الإنسان ما ألم بغيره من المصائب إدراكًا يجسم ذلك في خياله، حتى كأنه يشعر بألمه. وهذا الأدراك هو عين العلم، وعلمًا بأن الجهل سلطان غشوم جاهل يتبعه الفقر والفاقة، ويواليه الارتباك والاضطراب، ويألفه الذل والعبودية، وتلزمه القسوة والشراسة. ولذلك فإنى أقدم الشكر للأفاضل الكرام الأرومات، الشرفاء الأصول، الذين اجتمعوا في هذا المقام لإحياء العلم الموجب لتلك المزايا، ودفع الجهل الداعي لهذه المعاني.

وثانيًا، إنه لمعلوم أن الأمة المؤلفة من طبقات الناس تماثل الشخص الواحد

المؤلف من الأعضاء والجوارح. فكما أن قوام الأعضاء ونموها يكون بالقوة الحيوية، تقوى بازديادها وتضعف بضعفها على نسبة واحدة، كذلك جسم الأمة لا تحصل لطبقاته القوة إلا بروحه الحيوية التي هي عبارة عن الميل إلى المعالي والشوق إلى الكمالات. وليس بخاف عنكم ما ألم بروح الجنسية في الأمم الشرقية من الضعف والوهن المستلزم لضعف سائر الطبقات، فلا تؤاخذوا من قام فيكم خطيبا، إن رأيتم في صوته تهدجا وفي عباراته قلقا، وفي معانيه اضطرابا، فما الخطباء إلا من طبقات الأمة التي ألم بها الضعف بروحها الكلي فسرى إلى طبقاتها وأعضائها؛ ولهذا فإذا رأيتم في خطابتي نقصا، فلابد من التجاوز عنه لكوني رجلا شرقيا.

وإذ تقرر لي ذلك فإني أشرع في بيان المطلب، فأقول: لا أريد أيها السادة أن أذكركم بمجد آبائكم الكرام، وأنكم إما أن تكونوا من أبناء المصريين أو من حفدة الفينيقيين، أو من سلالة الكلدانيين. وإن المصريين قد بلغوا من الهندسة ذروتها، ومن الحساب غايته، ومن المساحة قاصيتها ومن فن جر الأثقال منتهاه، وعلموا اليونان الحكمة والفلسفة. بل إن شخصا واحدًا منهم قد بعث في اليونان روح المعرفة وعلمهم فن تدبير المنزل على حين كانوا همجا متوحشين، وأبان لهم كيفية الزراعة والصناعة على حين كانوا يتعيشون بالصيد والقنص، وأن جل علمائهم ومعظم حكمائهم لم ينالوا الفلسفة إلا بما تعلموا في مدرسة مصر العظيمة.

ولا أذكركم بالفينيقيين وأنهم وضعوا أصول الصناعة، وخاضوا عباب البحار. وكانت إنجلترا واليونان من مستعمراتهم. ولا تزال أسماء بلاد إسبانيا وسلافينا شاهدة بأنهم رفعوا على تلك الأقطار ألوية تمدنهم، وأن أهلها كانوا لا يعرفون الصناعة ولا التجارة. بل كانوا يقدمون لجدودكم كنوز الطبيعة، ومعادنها الثمينة، ليأخذوا منهم الأقمشة والآلات وسائر ما يحتاجون إليه، وأنهم علموا اليونان الخط. وكان أعظم حكمائهم منسوبا إليهم وهو تاليس[1] الصوري.

ولا أعيد ذكر الكلدانيين جدودكم الأول الذين أنشأوا صناعة النحت، وقسموا

(١) طاليس الفيلسوف الإغريقي، وينسب إلى صور في لبنان.

الفلك بالدوائر، وعرفوا معدل الأنهار ومنطقة البروج ودائرة نصف النهار، ووضعوا الأسطرلاب وعرفوا القطب واخترعوا الكرة ذات الحلقتين.

لا أذكركم بجميع ذلك لأنكم تعلمونه علم اليقين، ولا تخافون فيه منكراً أو معترضا، فإن الهرمين، والمسلات، وأعمدة الكرنك، تفقأ بأصابعها الدهرية أعين المعترضين الذين يرمون الشرقيين بالهمجية والنقص في الفطرة، وإن تلول نينوى، وأطلال صور وبعلبك ومنفيس وثيبة[1]، ما بقيت إلا لتثير الغبار على أبصار المنكرين الذين ينظرون إلينا بعين الاستخفاف والاحتقار، وإنما أريد أن أعطف نظركم إلى حالتنا الحاضرة، فإنكم تعلمون بما حصل لنا من الانحطاط، وما حاق بنا من الذل والهوان، وأن النوائب قد خفضت منارنا والأجانب اقتسمت ديارنا. ولا شك أن هذا حادث من الحوادث فلا بد له من علة يوجد بها ويعدم بعدمها. وبعبارة ثانية إنه قد وضع في دائرة الوجود عوالم متعددة، ولكل منها مركز يكون بمنزلة شمس تجذب توابعها بحبال الجذبات اللستيكية التي تدفع تارة وتجذب أخرى، وترسل إليها رسل الأشعة حاملة عناصر الحياة، وإنه قد وضع في كل نبات وفي كل حيوان من التغذية ما هو حافظ لنفسه، ومن التوليد ما هو حافظ لنوعه. ولا شك أن ما وضع فينا من قوى الإدراك لم يكن إلا لننال مرادنا من السعادة. فلابد أن يكون لحرماننا من تلك الأمنية مانع. وإذا سبرنا الموجودات سبراً فلسفيا فلا نجد لتأخرنا غير سببين أصليين، وهما التعصب والاستبداد.

فأما الأول فهو عبارة عن سوء استعمال الدين. فإنا إذا نظرنا بعين التأمل البصير إلى الشارعين من عهد (مهادبو) إلى زرودشت إلى موسى، إلى عيسى، إلى محمد (ﷺ) لا نجد في شرائعهم إلا الدعوة لمعرفة مبدأ الحق، وهو الله، والحث على الفضائل، وفعل الخير، والزجر عن الرذائل والشرور. وبعبارة ثانية لا نلقى بها إلا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولكنا إذا نظرنا إلى الكثير من الذين تبعوهم، فإنا نراهم قد استعملوا تلك الشرائع للشقاق والنفاق، واتخذوها وسائط لإضرام الفتن ووسائل لإلقاء الإحن حتى أمكن للشاعر العربي أن يقول:

---

(١) ثيبة هي طيبة المدينة المصرية القديمة.

إن الديانات ألقت بيننا إحنًا وأودعتنا أفـــانين العـــداوات

وما مثل هؤلاء إلا كمثل رجل قلد السيف لقتل الأعداء فاستعمله في قتل الأحباء، فبئس ما كانوا يفعلون.

وأما الاستبداد فهو أن تكون أمة من الأمم مقيدة بسلسلة رأي واحد من الناس لا تتحرك إلا بإرادته ولا تفعل إلا لرضاه. فإذا كانت الأمة على هذه الصورة لزمها لا محالة أن يصرف كل منها ما أودع فيه من العقل والذكاء لمرضاة شخص واحد فيكون الكل فانيًا فيه. ومن المعلوم أن الرجل الواحد، ولو انفرد في العقل والذكاء والهمة وعلو النفس، لا يستطيع جلب السعادة لنفسه فضلا عن جلبها لأمة كبيرة. وها هنا يمكن لي أن أبشركم بأن قد زال عنا هذا المانع بما نلناه من الحكومة الشورية. فلم يبق إلا أن تسعوا في صيانتها وتأييدها، ولا تكتفوا بمجرد حصولها إذ لا يخفى عنكم أن الحكومة هى كسائر الأجسام الطبيعية والاجتماعية بما يطرأ عليها من التحليل.

وحيث إنا شعرنا بالألم، وعلمنا بسقوطنا في هذه المهواة، وأن أنفسنا تميل إلى الخروج منها، فلا بد لنا من البحث عن الدواء الحقيقي لهذا الداء الحادث، فإذا رجعنا إلى بصيرتنا النورانية وفطرتنا الأصلية علمنا بأنه لا يمكن الخروج عن هذه الخطة إلا بالسبب. فإن المتحرك لا يسكن والساكن لا يتحرك إلا بالعلة. ولا أرى لخروجنا من علة سوى الغيرة. فهي المحركة للنفوس الداعية إلى المجاراة والمباراة، والباعثة على الاهتمام والأقدار، وعلى قدرها تأتي العزيمة وترتفع القيمة. وعلى حسب تأصلها في الأنفس وضعفها يكون صعود الأمم إلى معارج العز والثروة، وهبوطها إلى دركات الذل والفاقة.

ولا شك أن الغيرة لا تحصل إلا بحزب من الوطنيين يعلمون أن لا شرف لهم إلا بجنسهم، ولا قوة إلا بأمتهم، ولا فخر إلا بوطنهم، وأنهم إذا أرادوا تحصيل الشرف بالانتماء إلى غيرهم يكونون بمنزلة الرقعة في الثوب الجديد، أو بمنزلة العبد الذي يفتخر بسيده. ولهذا أرجو منكم يا أيها السادة أن تقيموا حزبًا يصون لوطنكم حقوقه ويحفظ عليه بهاءه. على أني لا ألومكم على انتماء بعضكم إلى الأجنبيين،

فإن ذلك لم يكن إلا فرارا من الظلم وحرصا على الحقوق الإنسانية والمدنية. ولكني أؤمل منكم أن تؤيدوا أمر الوطن وتشيدوا فيه الحكومة الشورية ليستقيم به أمر العدل والإنصاف، فلا يعود بكم من حاجة إلى حماية الأجنبي، بل تمزقوا أوراق الانتماء، وتذاكر الحمايات، حتى يكون شرفكم منكم وإليكم، وحمايتكم في ظل قوانينكم، ولا تكونوا رقعة بالية في ثوب الأجنبي الجديد.

ولا شك أنكم تعلمون أن الحزب الوطني لا تحصل له القوة، ولا يكون له البقاء، ما لم يكن لأهل الوطن لغة جامعة، مهذبة التراكيب جيدة الأسباب، فإن لم يكن لهم ذلك لا تستقر لهم المعارف ولا تقيم بأحيائهم العلوم، وإن ذهب جماعة كثيرة منهم إلى أوروبا وتعلموا اللسان الأجنبي، فإن معارفهم المكتسبة تكون سريعة الزوال، ووطنهم يكون كالبلد الذي لا ماء فيه، يجلب لأهله الماء من ضواحيه، فهو عرضة للظمأ وسوء الحال، وأهله على شفا الاضمحلال.

فإن سأل سائل: كيف يمكن بث الغيرة وإنشاء الحزب الوطني وإحياء اللغة؟ قلنا إن أعظم الأسباب الموجبة لحصول هذه المزايا هو إنشاء قاعة للخطابة يقوم فيها الخطباء الألباء، وينطقون عن الغيرة والحمية بما يبين لنا الحقوق ويعين الواجبات، ويذكرنا بمجد آبائنا وذل أبنائنا، ويرينا حالة الأجنبيين، وما هم عليه من القوة والثروة والمجد والسطوة، فنعلم أسباب السقوط ووسائل الهبوط، ويتبع ذلك إنشاء الجرائد الحرة القائمة بأمر الوطن الآخذة بأطراف الحق، فإنها تقرب الأقصى باللفظ الموجز، وتنبئ بأخبار السلف، وتبين لنا أحوال جيراننا، فترينا المصالح والمفاسد لنجتلب تلك ونجتنب هذه. ولا شك أنه لا بد في عالم المدينة من كل منهما، ولا يمكن البلوغ إلى غاية السعادة إلا بهما. ولا فرق بينهما إلا أن الخطابة تحرك الدم بحركة الخطيب وقوة المشافهة، وأن الجرائد تثبت المطالب في الأذهان بإعادة النظر إلى ما لا أثبت في الصحائف.

ولكني أجلكم يا أيها السادة عن أن تحسبوا أنكم تنالون مزايا المدنية، وتحوزون المعارف والعلوم، وتستكملون أسباب التقدم والسعادة، وتبلغون ذروة المجد والشرف، إن كان العلم فيكم مقصوراً على الرجال. بل أعيذكم من أن تجهلوا أنه لا يمكن لنا الخروج من خطة الخسف والجهل، ومن محبس الذل والفاقة، ومن

ورطة الضعف والخمول، مادامت النساء محرومات من الحقوق، وغير عالمات بالواجبات، فإنهن الأمهات اللواتي تصدر عنهن التربية الابتدائية والأخلاق الأولية. ولا شك أن أول ما ينقش في لوح ذهن الإنسان يكون ثابتًا صعب الزوال. وقد قيل: العلم في صغر كالنقش في الحجر. وأقول إن هذا النقش هو السبب الأصلي في اختلاف المذاهب، وتنوع المشارب، فإن وجدت فيه الكدورة، فلا صفاء في الذهن ولا سلامة في المشرب، ولكن إذا كانت الأمهات عالمات، عارفات بحقوق الإنسانية، متأدبات على ما تقتضيه أحكام الشرف والمدنية، فلا شك أن أولادهن يتخلقون بأخلاقهن، ويكتسبون منهن تلك المزايا الفاضلة. وعندي أنه إذا حصل التساهل في تربية المرأة، وكانت رجال الأمة جميعًا راسخين في العلم والمعارف، مترقين في درجات الكمال، فلا يمكن بقاء الأمة على تلك الحال المكتسبة إلا مدة بقاء أولئك الرجال. فإذا انقرضوا، وخلفهم الأبناء المتخلقون بأخلاق أمهاتهم على ما بهن من النقص في الكمالات العلمية، رجعت أمتهم إلي ما كانت عليه من الخسف وسوء الحال.

أقول هذا وفي يقيني أن حلمكم يقيني الملام، وأن تلطفكم يضمن لي حسن الختام.

* * *

٩

السياسة الإنجليزية في الممالك الشرقية

السياسة الإنجليزية في الممالك الشرقية

بلغنا أن الحكومة الإنجليزية قد عرضت لائحة في المسألة المصرية على الدولة العثمانية تسكينا لروعها، وتطمينا لبالها، تذكر فيها أنها ما قصدت الاستيلاء على مصر، ولا تود وضع اليد عليها، ولكن سوف تبقى العساكر الإنجليزية في البلاد النيلية إلى مدة زوال القلاقل، وحصول الراحة، وتشكيل المجالس والمحاكم. ولا تود الدولة البريطانية أن تمس حقوق الحضرة السلطانية بمداخلتها في مصر.

نعم، هذه هي السياسة الإنجليزية في جميع البلاد الشرقية، عملت بها في الممالك التي أرادت الاستيلاء عليها، وقد حذقت فيها وجربتها مرات عديدة، حتى إذا خاض العاقل فيها رأى أن لا سياسة للإنجليز سواها كأنها عرفت عقول الشرقيين، وعلمت ما فطروا عليه من السذاجة وشدة الاعتقاد بمواعيد عرقوب، فتأخذهم على غرة وتستلب بلادهم، وهم في أمن منها يثقون بعهودها، ولا يعرفون أن هذه الحكومة إنما تقتنص بأوهاق الإيمان[1] ولا تسلك في فتوحاتها إلا مسلك الوداد، حتى إنها قل ما تملكت بلداً بالقوة القاهرة. وإن الشر لا يأتي إلا من معاهداتها.

أليست هي التي أزالت السلطنة التيمورية التي كانت منبثة في جميع أرجاء الهند بمداخلتها الودادية ومواعيدها المؤكدة؟ أليست هي التي نقضت الحكومة النظامية في بنغالة بعساكرها التي وضعتها للمحافظة على تلك البلاد؟ أليست هي التي أزاحت السلطنة الكهنورية بنفس جنودها الذين أقامتهم لتوطيد الراحة فيها؟ أين ذهبت

(١) الوهق: محرك ويسكن الحبل يرمى في أنشوطة فتؤخذ به الدابة والإنسان. الجمع أوهاق. (هامش المنار).

حكومات أمراء الكرناتك ومدارس التي كانت مطمئنة بالعساكر الإنجليزية ومعتمدة على معاهداتها؟ أين حكومَة بنجاب وممالك أمراء السند؟ أين حكومة المراتيين في بونه؟ ذهبت كلها لاعتماد أهلها على وعود الإنجليز وحماية عساكر الملكة. وما أبادهم، لعمري، سوى تلك العساكر نفسها التي وضعت لصيانتها من الفساد الداخلي، فاحذروا يا أهل الديار النيلية من أن يحل ببلادكم ما حل بغيرها، ولا غرو أن يحذو الفتى حذو والده.

وقد بلغنا منذ قدمنا لوندن[١] أن معظم الأوامر التي يجريها الخديو تكتب أولا في الوزارة الخارجية بلوندرة، ثم ترسل إلى المندوب الإنجليزي بمصر، والمذكور يقدمها لحضرة الخديو ليجريها كأنها صادرة عن أمره باختياره، ولا أمر له فيها ولا اختيار، وربما هذا كان الباعث على استقالة رياض باشا من الوزارة.

هذه هي السياسة الإنجليزية التى كشفت عنها غطاءها التجارب، وبهذه السياسة جالت في ميدان جميع فتوحاتها، فلا أظن أنها تتمكن بعد الآن من احتلال عقول الشرقيين بهذه المواعيد[٢]. وما أظن أن السلطان ورجال دولته بعد ما علموا نبأ معاهدات الإنجليز في الهند أن يعتمدوا عليها، ويثقوا بأصحابها، ولا ريب أنهم قد اطلعوا على المعاهدات الإنجليزية التي طبعت في أربعة مجلدات بمطبعة (نول كشور) في بلدة لكناهور. ومنها علموا كيف يستولى الإنجليز على البلاد بحرفة العهود الفارغة والمواثيق الباطلة، وفيما قلناه عبرة لمن يعتبر، وسوف نعود إلى الخوض في هذا الموضوع متصلا.

---

(١) كذا في الأصل المطبوع. وهي لندن.

(٢) إن أمير مكة حسين بن علي وأولاده قد خيبوا آمال السيد جمال الدين فانخدعوا بالوعود الإنجليزية على قول الذين يحسنون الظن فيهم بغباوتهم، والذين يدافعون عنهم. ويرى آخرون أنهم خائنون لأمتهم لا مخدوعون، فإنهم يطلبون الملك، ولم تسم هممهم إلى طلبه إلا من طريق الإنجليز، فساعدوهم على أخذ البلاد العربية ليشتركوا معهم وتحت ظلهم في التمتع بحكمها. (هامش المنار).

١٠

أسباب الحرب بمصر

أسباب الحرب بمصر

لقد ذهب الناس مذاهب شتى في أسباب الحرب التي قدحت الإنجليز زنادها على المصريين، فمنهم من زعم أن الطمع في الاستيلاء على البلاد النيلية الخصيبة كان الباعث على ذلك، ومنهم من اعتقد أن مصالح بريطانيا في خليج السويس حملت الإنجليز على فعل ما فعلوا، وظن قوم أنهم اندفعوا إلى تجشم تلك الخسائر الباهظة غيرة على حفظ نفوذهم السياسي والتجاري بالديار المصرية، والتأمين على استيفاء ديونهم، وهلم جرا.

تلك، لعمري، تعليلات سارت بها الجرائد رجمًا بالغيب أو تمويهًا على عيون الناس.

أما أسباب الحرب الحقيقية فهي ما كان ثبت في عقول الإنجليز والفرنسيين من أن جلالة السلطان عبد الحميد قد سعى منذ تولي الخلافة والملك في جمع كلمة المسلمين المنتشرين في أقطار الهند وإفريقيا وسورية والعراق واليمن والحجاز ومصر، وغيرها من البلاد لكي يجعلهم عصبة مستمسكة بعروة الخلافة الوثقى، وأمة تتساند بعضها إلى بعض كالبنيان المرصوص، وأن يكون السواد الأعظم من المسلمين في يد أمير المؤمنين يستنجدهم في الملمات لمقاومة دول أوروبا إذا طمعوا في سلب بلاد المسلمين. فكان الفرنسيون يقاومون نفوذ السلطان وخلافته في مسلمي الجزائر وتونس، مخافة أن يكون ذلك وبالاً عليهم، وكانت الانجليز تحاذر من انقياد مسلمي الهند إلى دعوى الخلافة ومن الانضمام إلى العصبية الإسلامية. وكانت تلك الدولة القيصرية قد بلغها أن الحضرة السلطانية بعثت برجال الدين إلى المسلمين ليدعوا إخوانهم إلى طاعة أمير المؤمنين، وينشروا بينهم رسائل تولد في

عقولهم فروض الانقياد إلى الراية النبوية إذا نشرها السلطان ودعاهم إلى التشمير عن ساق الجد لنصرته والجهاد في سبيل الملك والدين.

وما زاد في طنبور الإنجليز نغمة إلا النشرات التي كان السيد (نصرت علي) ينشرها في دهلي بإيعاز السلطان، فلما أخذت مشروعات السلطان ومندوبيه تضرم نار الغيرة الدينية، وتثير الحمية الإسلامية في نفوس بعض من الهنود، اضطرت الحكومة الإنجليزية بالهند إلى اتخاذ الاحتياطات اللازمة لمنع سريان تلك العدوى. وعثرت في أثناء ذلك على رسائل منتشرة بين المسلمين كانت قد طبعت في القسطنطينية بدار الطباعة الشاهانية، وأرسلت إلى الأقطار الهندية لإنهاض همة المسلمين، فألقت القبض على كثيرين من الذين وجدت عندهم من تلك الرسائل وحاكمتهم، ومن ذلك الوقت شرعت إنجلترا تتوجس في تلك المقدمات نتائج وخيمة في ممالكها الهندية، فكمنت بالمرصاد تترقب الفرصة الملائمة لتمزيق شمل تلك العصبية الإسلامية التي يصفها الإفرنجيون باسم (بانسلاميزم)[1] وفيما كانت تضرب أخماسا في أسداس، وتقدم رجلا وتؤخر أخرى، بلغها أن الحضرة السلطانية قد باشرت تنفيذ مشروعاتها بالديار المصرية، وضم مسلمي تلك البلاد أيضًا إلى العصبية الإسلامية، بواسطة الشيخ محمد ظافر، والسيد أحمد سعيد المدني، وبسيم بك، وراتب بك، وأحمد عرابي وأحزابه، فأصدرت الدولة البريطانية أمرها إلى مندوبها بمصر بأن يستقصي حقيقة الخبر.

أما ذلك المندوب فكان بادئ ذى بدء يعتقد أن الحرب الأهلية عبارة عن عصبية عسكرية جل سعيها في إصلاح شئونها وطرد الضباط الشركس من مصاف الجهادية المصرية، ولكن خيل إليه بعد ذلك أن الحضرة السلطانية قد اغتنمت من ثروة العساكر المصرية، واتخذت عرابي باشا آلة لقضاء أغراضها، وتوطيد نفوذها في القطر المصري وضم المصريين إلي العصبية الإسلامية، فرفع المندوب الإنجليزي تلك الأخبار إلى لورد جرانفيل، وأثبت وجود عصبية دينية قد تردت برداء عصبية سياسية وطنية، تدعي تحرير الفلاحين من ربقة المرابين والأجانب. وفي الحقيقة

---

(١) Pan Islamism: الجامعة الإسلامية.

ليست سوى عصبية إسلامية دينية تحت قيادة السلطان أمير المؤمنين، غرضها الوحيد مقاومة دول أوروبا وإنهاض همة المسلمين في الهند والجزائر وتونس وبلاد العرب، فتداركت إنجلترا العواقب، وصممت على إذلال تلك العصبية الإسلامية قبل أن يستفحل أمرها، لأن الإنجليز تعتقد أن مصر باب الهند وخليج السويس دهليزها فإن استفحل أمر عرابي باشا وحزبه لحق بهم المصريون على اختلاف أجناسهم، وتبعهم السوريون والعرب، وأنشئوا أمة عظيمة الشأن شديدة البأس تضر الإنجليز ومستعمراتهم في الهند. فرسخ في عقول رجال السياسة البريطانية أن منع إفشاء الوباء خير من علاجه بعد انتشاره، وصمموا على إخراج عرابي باشا وأحزابه من الديار المصرية، إما بالحسنى وإما بالإكراه، طمعًا في إطفاء نار الفتنة، وتمزيق شمل العصبية الإسلامية المتظاهرة بشعار الوطنية، فلما أيسوا من إخراجهم بالحسنى، عولوا على إذلالهم بالأساطيل المدرعة، والمدافع المثمنة، والجنود البحرية والبرية، وما انثنوا حتى فتكوا بهم في ملحمة التل الكبير، وكانت القاضية على عرابي باشا وأحزابه، وقد ثبت في عقول كثيرين أن إذلال عرابي وأنصاره قد أذل العصبية الإسلامية إذلالاً لا عز بعده ما توالى الفرقدان.

* * *

١١

الحق والباطل

أو نتائج سياسة الإنجليز في مصر

الحـق والبـاطل

مـا اختلف رأيان في أمر إلا كـان أحـدهمـا حقـا والآخر باطلا . إن الحق أوسع الأشياء تواصفًا، وأجلاها برهانًا، وأوضحها بيانا . ولقد صنف الحكماء فيه كتبا، وبينوا سننه، وذكروا شواهده، وقسموه إلى أقسامه من حقوق الملل والدول والرعاة والرعايا، وشـرحوا في مصنفـاتهم أن الحق قوام الاجتمـاعات الإنسـانية، منزلية كانت أو مـدنية، وأن مدة دوام الاجتـماعات وبقـاء الدول بمقدار دوام الحق فيـها وبقائه، لأن بالحق يحصـل التكافؤ بين القوى المجتمعة لاكتساب الأمنية والسعادة اللتين هما غاية سير الأمم في حياتهم .

فإذا حصل الانحراف عنه زال التكافؤ فاضمحل الاجتماع، ووقفت الأمم دون بلوغ غايتها .

ولو تأمل البصير في زوال الأمم الغابرة لا يرى له سببا سوى الحيدان عن الحق . وأن الحق مهمـا كـان لديه من الظهـور والبروز، وسعـة المجال في التواصف، أضيق الأشياء تناصفًا وتعاملا، وأخفى الأمور عمن أراد أن يسلك مسالكه، ويزن بميزانه أعماله وأفعاله، لأن الحق يكون للإنسان وعليه . فإذا كان عليه فحينئذ يشاب إدراكه المتبجس من محض عقله بالحاسات الطبيعية، ويمتزج بالأوهام الناشئة عن عاداته، فيخفى عليه محجته، ويسلك مدحض الباطل، ظنا منه أنه على الحق، غير حائد عنه، وهذا هو السبب لاختلاف الأمم في آرائهم ومسالكهم . ولا يعرف الحق بنفسه إلا من انقادت طبيعته لعقله، وأزال ناشئة العادات عن لوح ضميره، فصار عقلاً صرفًا، يخضع لحكمه ويهتدي بنوره، لا يجد الباطل فيـه سبيلا، ولا يضل عن رشده أبدًا .

وقليل من يتحقق في الإنسان بهذه الصفة وإن كانت حماة الحق كثيرة .

انظر إلى الحزب الحر[١] في الحكومة الإنجليزية كيف كانوا يحامون عن حرية الأمم، ويحثون الدول على إطلاق ربق العبودية عن الشعوب، ويدافعون عن الأيرلنديين، ويجاهرون بدمائهم الحزب المحافظ، ويذكرون شنائع أعمالهم في حرصهم على الفتوحات عند اعتزالهم عن الحكم. وكانوا ينددون على دزرائيلي في إقدامه على حرب الأفغانيين، قائلين له إن شير علي خان[٢] حر في بلاده، له أن يقبل سفير الروس ويرفض سفير الإنجليز، وليس لأحد أن يعارضه في أمره هذا، مع أنه كان لدزرائيلي أن يقيم الحجة عليهم قائلا إن رفض شير علي لسفير الإنجليز واستقباله لسفير الروس ـ وقد كان مصادقًا لنا ومعاهدا إيانا ـ دليل على اتفاقه مع الروسية، ومحالفته لها، فيجب علينا أن نتدارك هذا الأمر قبل ظهور نتائجه الوخيمة كي لا نجلب بأيدينا مضرة على البلاد الهندية. ولما آل الأمر إليهم، وأخذوا زمام الحكم بأيديهم، ما حرروا بلادا، ولا أعتقوا عبادًا ولا أطلقوا رقابًا، بل صاروا على الأمم أشد من الحزب المحافظ، وزادوا في التحريج والتضييق وأحكموا حلق العبودية، وشددوا ربق الرقبة، وضيقوا المجال على النفوس التي تهوى الحرية وتميل إليها.

وها هو صراخ الأيرلنديين ينبئك عن سيرهم في سياحة سياستهم، وسلوكهم في مذهب إدارتهم.

وأعجب من كل هذا أن المصريين بأجمعهم، ولا أستثني منهم أحدًا، أرادوا أن يضعوا في بلادهم أساس الحرية، بتشكيل مجلس النواب، تملصا من ربقة الاستبداد الذى يستجلب الوبال على المستبد ومن استبد عليه كليهما، وخروجا من مضيق العبودية التي نشأت من الإيثار والاستيثار بلا ملاحظة المنافع والمضار، وطلبا للانخراط في سلك الأمم المتمدنة، رجاء أن يحظوا من السعادة بما حظيت به الأمم، واتفق معهم خديوهم لما أن رأى صدق نياتهم وإصابة رأيهم، وأن حكومته لا تقوى إلا باتفاق كلمة الأمة، وهو نتيجة المجلس الذي تسعى الأمة في تشكيله.

---

(١) المقصود هو حزب الأحرار الذي تزعمه في ذلك الوقت غلادستون.

(٢) أمير أفغانستان.

ولما رأى الحزب الحر في الحكومة الإنجليزية ميل المصريين إلى الحرية، وسيرهم إليها، وسعيهم في طلب أسبابها، ما ونوا أن جبهوهم بالرد، وعارضوهم بالعنف، ودافعوهم عن الوصول إليها، وأوجبوا الشقاق بين الراعي والراعية، علما منهم أن اتفاق كلمة المصريين لإصلاح بلادهم بالإدارة الشوروية[1] يصد الحكومة الإنجليزية عن نجاحها في مقاصدها المشطة، ويمنعها عن استملاك تلك الأقطار بمداخلتها الودادية، كما فعلت من قبل بالممالك الهندية. وألقوا في روع الخديو، ودسيسة منهم، أن هذه المساعي ليست لتأسيس الحرية ونصب دعامة المدنية، وإنما هي لتغيير الحكومة واستبدالها وساعدهم على ذلك بعض وزرائه الذي جلب إليه الجهل العجب بنفسه والاستبداد برأيه. والخديو، لسلامة قلبه، ظن أن هؤلاء لا يريدون إلا تشييد حكومته، ولا يبتغون إلا تأسيس مباني إمارته بمقاومة المعارضين، ومصادمة المقاومين من أهل الوطن، فأصغى إليهم، واعتمد بكله عليهم، وجاهر أعوانه الذين كانوا يسعون في إصلاح البلاد، ونجاح العباد، وصون حكومته عن دخل الأجانب بالمقاطعة والمناوأة، فاضطر أعوانه لما أن رأوا حيدانه عنهم وميله إلى الذين لا يريدون إلا ختل المملكة، واختلاسها من أيدي مالكيها، أن يقابلوه بما قابلهم به.

وبعد أن خلبوا قلب الخديو بموارباتهم، لاحظوا ما للأمة الفرنساوية من الحقوق في تلك الأقطار، فعلموا أن نجاحهم في مقاصدهم لا يكون إلا باتفاقها معهم في الرأي دون العمل، فوجدوا منه مقتحمًا، بذل جهده في إمالة آراء الأمة إليهم، بلا ترو، في أن حالتها الحاضرة تمنعها من مشاركتهم في الأعمال.

ثم لما علم الحزب الحر في الحكومة الإنجليزية أن سهام موالستهم قد أصابت، جندوا الجنود، وألبوا العساكر، وساقوهم لفتح الديار المصرية، متظاهرين بأن الغرض تأييد الخديو في حكومته، ودفع المفسدين الذين يريدون خلعه، وكأنهم أرادوا بسيرهم هذا أن يجعلوا جزيرة قبرص في البلاد العثمانية بمنزلة كلكتا، وخلع إسماعيل باشا ونصب توفيق باشا كخلع سراج الدولة من البنجالة ونصب

(١) الصواب هو الشورية من الشورى، ولكن صحف ذلك العهد كانت ترسم الكلمة على هذا النحو مع كثير غيرها.

مير جعفر، فيفعلوا في هذا فعلهم في البلاد الهندية. ولا غرو في ذلك فإنه قد سبقهم إلى مثله أسلافهم من قبل. وإنما العجب أن يصدر هذا الفعل من الذين رفعوا لواء الحرية، ونادوا بأعلى صوتهم بفك رقاب الأمم عن العبودية كأنهم عن انعزالهم ما كانوا يحامون عن حرية الأمم، إلا لأن يأخذوا زمام الحكومة بأيديهم، فجعلوا المحاماة عن الحق آلة للوصول إلى باطلهم، أو عموا عن معرفته بعدما استقروا على منصة الحكم، واستبدوا بالأمر، كما هو دأب كل من لم يخلص عقله عن شوب الهوى واتباع العادات. بل يمكن أن يقال إن هؤلاء في حرصهم على استلاب حقوق الأمم مع دعوى حماية الحرية عجزوا أن يلبسوا باطلهم بلباس الحق، وأن يقيموا دليلا سفسطيا على مداخلتهم في القطر المصري، حتى وقعوا في المتناقضات وأتوا بالمتضادات. فإنهم رأوا وجوب الحرية على المصريين لطلبهم عرض ميزانية المراقبين على مجلس النواب، مستدلين بأن هذا إجحاف بحقوق المراقبين ونقض للعهود المبرمة بين الحكومة الخديوية وبين الحكومتين الفرنسية والإنجليزية في أمر المراقبة. ثم إنهم حرصا على استملاك مصر رفعوا المراقبين بلا استشارة من الحكومة الفرنسية ولا موافقة منها، وتشبثوا فيه بأمر الخديو، وطلب شريف باشا. ولا شك أنهما لم ينطقا إلا بما لقنوهما مما يؤسسون عليه أساس تملكهم.

متى كانت الحكومة الإنجليزية تصغى إلى الخديو وتأتمر بأوامر شريف باشا، حتى يظن أن رفع المراقبين كان مبنيا على مجرد الامتثال والائتمار لا غير؟! فيا له من برهان ما أدحضه، ومن دليل ما أضعفه، ومن عذر ما أنكره! ثم إنهم هم الذين هتكوا حقوق الأمم، وأوجبوا العطلة فى تجارتها بإقامة الحرب في ترعة السويس. والآن، إغفالا للدول، وتسكينا لجأشها، تراهم يشكون من وقوع الخل في التجارة أيام الحرب لشغلهم الترعة بسفنهم الحربية، بأمر الخديو على حسب دعواهم، فكأنهم يشكون من أنفسهم، ويسخرون بأقوالهم هذه من عقول الأمم، ويتلاعبون بالخديو ورجاله لاستلاب ملكه.

وليت أن صدر هذا الإجحاف بحقوق المصريين عموما، وحقوق الخديو خصوصا، من الحزب المحافظ، حتى لا يقال إنه لا يوجد في الإنجليز حزب يحامي عن الحرية، ويدافع عن حقوق الأمم. وما تظاهر بعض رجالها بهذا الاسم إلا رياءً،

وسمعة مكيدة منهم، حتى ينتهزوا الفرصة، ويستلبوا البلاد على حين غرة من أهلها. ودع الآن دعوى محاماة هؤلاء المجازفين عن الحرية بالباطل، حتى نتكلم في النتائج التي ترتبت على مداخلة الإنجليز في مصر، وما يمكن أن يترتب عليها، فنقول إن مداخلة الحكومة الإنجليزية في القطر المصري أوجبت نفور مسلمي الهند عنها قاطبة، سنيين كانوا أو شيعيين أو وهابيين. وقد انتشر بينهم، وقر في أذهانهم إمَّا من استنباط أنفسهم أو بدسائس الدول التي لها مآرب في الهند، أن غرض الحكومة الإنجليزية وبغيتها الحقيقية من الاستيلاء على مصر أن تجعل هذا الاستيلاء مدرجة لوضع اليد على الحجاز وإدخال مكة المكرمة في حوزتها. وإذا استتب لها الأمر في تلك البلاد التي هي محتد الديانة الإسلامية، ومغرس شريعة المسلمين، وركن دينهم، فحينئذ تهتم في إزالة هذا الديانة عن وجه الأرض. واعتقدوا بعد دخول العساكر الإنجليزية في مصر أن هذه الحكومة في فتوحاتها لا تقنع بالضرائب والجبايات التي تقتنيها من الذين تستعبدهم كالحكومة الروسية، بل تحرص على تبديل الديانات وتكدُّ في تغيير الشرائع فحصل لهم قلق واضطراب شديد، كما هي عادة الشرقيين في الحرص على صيانة ديانتهم، والخوف من وقوع الخلل فيها، وكل ينتظر نجاة، ويطلب خلاصا، ويرى أن بقاء دينه مصونا عن الفساد لا يكون إلاَّ بيد أجنبية، وكنت عند استمرار الحرب في مصر، وأنا أسوح في الهند، لا أرى رجلا من مسلمي هذه البلاد إلا قد استولى عليه الحزن والأسف وأيقن أن غرض الإنجليز وضع اليد على الأراضي الحجازية.

ولقد أحكم هذه العقيدة في نفوسهم ما كتبه أثناء الحرب صاحب جريدة «أخبار عام»[1] بلاهور نقلا عن جريدة إنجليزية طلب محررها أن تسعى في إحالة الديار الإسلامية إلى النصرانية، قائلا إن مسلمي الهند ما داموا على ديانتهم لا يثقون بالحكومة الإنجليزية، ويحسبونها حكومة أجنبية غير شرعية، لا يجب طاعتها ولا الاستسلام لها، فإذن يجب عليها أن تعطف نظرها إلى هذه الديانة، وتسرع لرسوخ أساسها إلى معالجة ما أوجب هذه العقيدة، وبالجملة فإن الحكومة الإنجليزية بمداخلتها في مصر قد ضيعت ما اكتسبته المدد الطويلة بحسن سياسة رجالها من ميل

(١) إحدى صحف الهند في ذلك الوقت، كانت تصدر بمدينة لاهور.

قلوب مسلمي الهند إليها وثقتهم بها، حتى لا ترى أحدا منهم في هذه الأوقات إلا قد أصر أذنيه نحو مرو وهراة، وشخص بصره إلى عشق آباد يظن أن ديانته لا تصان من الخلل والفساد بالروسيين الذين بغيتهم مصادمة هذه الحكومة. ولا يخفي على المتدربين في سياسة الشرق من الإنجليز ما يمكن أن يترتب على هذه الخيالات الجائلة في مخيلة مسلمي الهند. وأظن أنهم ما نسوا النتائج السيئة التي نشأت في سنة ١٨٥٧ من هذه الأوهام الدينية. وهذه الظنون، على ما علمت، تمكنت من قلوب الأفغانيين والبلوجيين أيضا، ولا أدري أسرت إليهم من الهند أو فشت منهم فيها. والظاهر أن هذه الأقاويل قد انبعثت من سمرقند وعشق آباد، وطافت بالأفغانستان والبلوجستان، ثم ملأت أرجاء الهند، وتمكنت من قلوب أهلها. وأن أثرها إنما يظهر عندما يتخذ الروس بلدة من مرو معسكرا لهم، وليس هذا ببعيد. وعند ذلك فلا علاج. وأما ما يمني به الإنجليز أنفسهم من قهر الجرمانيين الروسية (روسيا) باتفاق مع النمسة فتسلم الهند من مهاجمتها، فهو أضغاث أحلام. لأن النمسة (النسما) أحلم وأحزم من أن تصير سببا لضعف دولة يستلزم ضعفها زوال نفسها كلية.

هذا ما يمكن أن يكون من المضرة على الحكومة الإنجليزية في آسيا. وأما في أوروبا فلا يرتاب أحد في أن أرض مصر كانت بمنزلة حق مشاع بين جميع الإفرنج، يرتعون فيها ويتنعمون بنعمها. فمداخلة الإنجليز تغيظ الكل، لأنهم يعدونها إجحافا بحقوقهم، خصوصا الأمة الفرنسية التي لها في مصر من الحقوق ما لا يمكن أن تنساه.

وإن مصر باب للشرق، ولكل دولة من الدول الغربية مأرب فيها، فإذا وضعت الحكومة الإنجليزية يدها على مصر، فقد أخذت بمخنق الكل، وضيقت عليها في تجاراتها وفتوحاتها. فالدول مع ما بينها من المنافسات والضغائن لا يستبعد اتفاقها، صونا لمصالحها، على معارضة هذه الحكومة في مداخلتها في أرض مصر.

وبعد هذا وذاك، إن النفوس في مصر ما قرت، وإن هيجان القلوب ما همد، والفتنة ما أطفئت، والخديو ما استظهر بالحكومة الإنجليزية - لما تمكن في باله من الوساوس التي ألقاها في روعه أهل الدسائس لنيل أغراضهم، إلا لأن يستقل

بالأمر، ويصان منصبه من آفات يمكن أن تطرأ عليه من الحزب الوطني. وأما الآن، وقد انكشفت له حقيقة مظاهرة الإنجليز، وظهر لديه أن كل هذه الوساوس كانت دسائس منهم للمداخلة في القطر، وتملكه باسم المراقبة والمحافظة، فلا شك أنه لا يرضى أن يصير هو السبب لمداخلة الأجانب في وطنه، وأن يجعله الإنجليز آلة للتصرف في مصر فيفعل كما فعل شاه شجاع الأفغاني، لما رأى أن الإنجليز يريدون أن يتخذوه وسيلة لاستملاك الأفغانستان، فطلب عظماء الأفغانيين سرا، وقال لهم إن الإنجليز قد أنشبوا أظفارهم في بلادكم، ولست أنا إلا آلة في أيديهم فأنقذوا بلادكم، وإن كان فيه هلاكي. وتوفيق باشا ليس أضعف منه دينا، ولا أقل حمية، فمن الواجب أن يقتدي به. وحينئذ لا يعدم المصريون دولة تقوم بمساعدتهم؛ لأنه قد أزيحت اللبسة، وارتفعت الشبهة، وظهرت مقاصد الحكومة الإنجليزية لدى كل الدول.

* * *

١٢

شباب الإسكندرية

شباب الإسكندرية

كثيراً ما كنت أجيل أفكاري، وأردد خواطر اعتباري في أحوال الشرقيين الذين هم آلي وبنو آبائي، وسعادتي بسعادتهم، وشقائي بشقائهم، وما وصلوا إليه من رداءة الأحوال وغاية الانحطاط، والتردي في مهاوي الشقاء، وانفتاح أفواه طمع الغربيين لالتقامهم، والتهام ما بأيديهم، وامتداد سلطتهم في بلادهم، وكنت في حيرة أطلب الوسائل لخلاص أهالي تلك البلاد مما هم فيه والارتفاع بهم من تلك الدركات إلى أعلى الدرجات، فكانت تعييني الحيل، وتنقطع بين يدي الأسباب، وكان أسفي يزداد عندما أنظر ذاك المجد القديم الذي كانت تلك البلاد متوجة به، وتيجانها مكللة بفخره، وكان يأسي يغالب رجائي، وقنوطي يغالب أملي، والأولان يغلبان، إلى أن اتفق لي السفر إلى مدينة الإسكندرية من بضعة أيام، فلما وردت إليها وجدت شبانها على غاية من الفضل والكمال وكرم الأخلاق، ولطف السجايا، وشدة الشوق إلى المعالي. والتولي إلى نبيل المجد الحقيقي، وفي أسمى درجات الشغف بإحياء الوطن، وإعلاء كلمة الأمة، ورفع لواء مجدها وفخرها مع ما هم فيه من الغنى والثروة وتوفر دواعي الترف والانغماس في النعيم وغير ذلك من الأسباب التي لو اجتمعت لشيخ عمر ألف سنة لاجتذبته إلى اعتناقها، وألهته عن النزوع لسواها فضلا عن فتيان هم في عنفوان شبابهم، فقد غضوا أبصارهم عن جميع ما يملكون من القصور المشيدة، والجواهر الثمينة والأموال الوافرة، وولوا وجوههم نحو اكتساب الشرف وبقاء الذكر الجميل، وتعالت هممهم عن أن تميل إلى اللذات الفانية، والزخارف البالية، وأخص من بينهم شبان آل بيت منشة، وآل بيت الكونت زغيب، وآل بيت المخلع، وآل بيت قطة، وآل بيت سرسق، وهم من قد بلغوا من المجد ذراه، ومن الفخار والفضل قصاراه، ومن حسن التربية أعلى

درجاتها، ومن الهمم العلية أقصى غاياتها، فعند ذلك استظهر رجائي على يأسي، وأملي على قنوطي، وظننت بل أيقنت أن سيكون للأمة الشرقية شأن في أقرب زمان، فليستبشر الوطن وبنوه بالظهور بعد الخمول والصعود بعد الهبوط، وبالسعادة بعد الشقاء، بل بالبعثة بعد الفناء، ولا أشك أن الشرقيين بما ينالون من نتائج مساعيهم، وما يجتنون من ثمرات جدهم واجتهادهم، سيقيمون لهم تماثيل على أطلال مدينة منفيس بمصر وربوات صور وتدمر، وعلى هضاب نينوى وبابل تخليداً لأسمائهم، وتذكاراً لآثارهم ومجد آبائهم وأسلافهم.

ورجاؤنا أن يقتدي سائر الشباب الشرقيين بهؤلاء العظماء الفضلاء وأن يتخذوهم قدوة لأنفسهم كي يفوزوا مع الفائزين.

* * *

تعـــليق:

نشرت جريدة «مرآة الشرق» في العدد رقم (٢٧) ما يأتي:

إن ضيق المقام في العدد الماضي من المرآة فوّت عليها أمراً عظيما وهو أن تشفع نبذة أستاذنا ومولانا الأجل «السيد جمال الدين» فيما شاهده من شبان الإسكندرية من علو الهمة بما يناسب المقام من الثناء على أولئك الشبان خصوصا من خص بالذكر منهم، فإنهم أولى بثناء الجرائد الأهلية، بل أخلق بأن تشكرهم الإنسانية وبنوها على تلك الهمة التي صرفوها في تحسين أحوال وطنهم، وتخليص بنيه من ورطة الانحطاط، شأن الأعاظم الذين علموا معنى الوطن وما هي محبته، فقاموا بما وجب عليهم له، ولقد كان في نشر ما شاهده أستاذنا منهم باعثا بعث في أبناء المحروسة من الغيرة التي هي أساس الأعمال ما حملهم على أن يجاروهم، ويحذوا حذوهم... جزا الله أولئك الشبان عن الإنسانية أحسن الجزاء، فإنهم وفوا بحث رعايته، وقاموا بغرض خدمتها، فنثني عليهم ثناء، كما أثنت عليهم همهم العالية.

١٣

المخاطبة بين الإنسان والهرّة

المخاطبة بين الإنسان والهرّة

إن هرّة خطفت حمامة لإنسان وأكلتها؛ فغضب الإنسان غضبًا شديدًا، فأخذ عصا وهجم عليها، وضربها ضربًا أليمًا وقال:

الإنسان: يا أيها الحيوان الخسيس الدنيء الخائن.

الهرة: يا أيها الإنسان، هل يليق بك أن تذكرني وتناديني بهذه الأوصاف القبيحة، إلا أن تكون متصفًا بضدها. فإنه لا يذم شخص غيره بشيء إلا إذا كان طاهرًا منه، وتاركًا له تمامًا ومتصفًا. وأين أمانتك وشرفك؟ وأي آثار ترتبت عليك حتى لا تكون شريفا غير خسيس ولا دنيء؟

الإنسان: العجب من وقاحتك، ألا تنظرين إلى عظم الإنسان كيف بإنارته قد عمر الدنيا، وتسلط عليها، وأدخل جميع الحيوانات تحت رق عبوديته؟

الهرة: يا أيها الإنسان، إنك لم تبين ما هو الشرف، وإنما افتخرت، وتمدحت بحرصك وطمعك وظلمك وعددك، وأنا سألتك عن الفضائل الحقيقية والصفات الجميلة.

الإنسان: أيتها الهرة، أفلا تنظرين إلى الإنسان كيف اخترع العلوم ودونها، والصنائع وأتقنها، وإن في تفصيل ذلك من الأمور الدقائق ما يعجز الحيوان عن الإتيان بأصغر منه، أو ليس هذا من قوة إدراكه وعلو شأنه على جميع الحيوانات؟

الهرة: اعلم أيها الإنسان أن مهندس الكون العظيم ومنظمة قد خلق الهرة والحيوانات غنية عن الإنسان وغير مفتقرة، بأن وضع فيها جميع ما تحتاج إليه في تحصيل سعادتها مدة حياتها. وألهمها من الإدراك ما تميز به ضارها ونفعها، ومن

الجلود ما تتقى به الحر والبرد، ومن الآلات البدنية كالأنياب والمخالب ما تدفع به عدوها ونحو ذلك. وأما أنت فخلقت محتاجًا «فقيرًا» من جميع الوجوه، فاحتجت إلى الاستعانة بالعلوم والصنائع على تحصيل الراحة في حياتك مثل أدنى حيوان، ومع ذلك لم تصل بعد إلى الراحة المطلوبة.

الإنسان: أفلا تنظرين إلى الإنسان كيف وضع القوانين والنظامات، وأقام المحافظين على الحقوق لتحصيل الأمن عليها، وتنفيذ أحكام القانون، حتى يتم بذلك اطمئنان كل أحد على جميع نفسه وحقوقه، فهل يوجد في طائفة الحيوانات مثل هذه النظامات؟

الهرة: أيها الإنسان، إن بيانك هذا قد دلني على أنكم أشرار قد جبلتم على الخيانة والظلم والغدر والعدوان والشقاق والنفاق وجميع الشرور. من أجل هذا احتجتم إلى وضع الحدود والقوانين والقيام بتنفيذها لدفع شر بعضكم عن بعض، حتى يكون لكم نوع ما من الإصلاح، ومع ذلك أين الإصلاح؟ أجبني.

الإنسان: أيها الحيوان، انظر إلى حكمة الإنسان، كيف أحكم الارتباط بين أفراده، حيث جعل الملوك العظام والوزراء والولاة المدبرين والرؤساء المتصرفين حتى يكون كل واحد منهم بمنزلة عقدة سلسلة لاجتماع الإنسانية، حتى ينال السعادة بالتعاون. ويكون النوع كجسد واحد يشد بعضه بعضًا بخلاف بقية الحيوانات فإنهم فرط لا رابط لهم.

الهرة: أيها الإنسان المشاغب المغالط السوفسطائي، إن بيانك قد أفاد أنكم أخساء أدنياء، طبعتم على حب العبودية والرق؛ فإن الحر يستنكف أن يكون خاضعًا لشخص واحد، وأنتم قد اجتهدتم لأن تصيروا عبيد العبيد. ومع ذلك، إن كباركم هؤلاء قد تسلطوا على نفوسكم وأرواحكم يبيعونها إلى الحروب والمقاتلات تقاسي من الأتعاب والمشقات ما لا يوصف حتى تموت في حضيض شقائها. كل ذلك في تحصيل شهوة سلطان أو فخر كبير. وتسلطوا على أموالكم التي تتحملون فيها المصاعب حتى تحصلوها، فيأخذونها منكم قهرًا عنكم ليصرفوها في قضاء شهوتهم وتحصيل أغراضهم، فإن أبى أحدكم أو عجز لا يجد رقة ولا رحمة. ولكن يعامل

بأشد العذاب والعقاب حتى إنهم يجردونكم من جميع ثمرات أتعابكم، فإن أبقوا لكم نعمة فما ذاك إلا لتأكلوا وتسمنوا لتصيروا أقوياء، حتى يستعملوكم في خدمتهم ويتسلطوا على أعراضكم. . . فيهتكون حرمتها إن شاءوا. أفبهذا تفتخر؟ بئس الافتخار!

الإنسان: أيتها الهرة، أفما سمعت أن مدبر الكون قد شرف الإنسان بالأنبياء والرسل الكرام العظماء الذين هم فخر الوجود بأسره؟ أيليق الجدال بعد ذلك في شرفه على جميع الأنواع؟

الهرة: آمنت وصدقت بشرفه وعلو مقامه. ولكن يا أيها الأشقياء، أين إيمانكم بهؤلاء العظماء؟ وأين اتباعكم لشرائعهم واقتداؤكم بهم في مزاياهم وفضائلهم؟ إنهم بعدما جاءوكم لم تزدادوا إلا طغيانا وفسقا وعدوانا. وقد نبذتم ما أتوا به من الحق وراء ظهوركم، ولم تشكروا نعمة الله عليكم ببعثة هؤلاء العظماء المقدسين فيكم لكي يرشدوكم إلى طرق خيركم. مع هذا إنك تعلم أن صحيح المزاج لا يحتاج إلى الطبيب، فاحتياجكم إلى المرشد هو دليل على تمكن المرض من نفوسكم، فإنكم فطرتم على المرض، إلا أنكم لا تحسون بألمه، فكيف العلاج؟ فمالك لا تقيم دليلا إلا ويكون مفضحا لك؟

الإنسان: أيتها المتمشدقة الخسيسة، إنك بهذه الشقشقة قد أخرجتني عن الموضوع، أنت لم خطفت حمامتي؟ وبأي وجه خنتيني في مالي؟

الهرة: أيها الإنسان المعجب المتكبر الجهول. أقول لك أولا إنه لا يليق بك، ولا بنوعك، أن تنسبني إلى الخيانة، مع أن مدبر الكون قد أباح لي أن آخذ من العالم ما يسد رمقي، ويدفع حاجتي بأي طريق كان. أما أنتم فكل واحد منكم ينتهز الفرصة لأخذ ما بيد الآخر، وكل قوي منكم يسلب أموال الضعيف، وينفقها في القصور المشيدة والألبسة الفاخرة والأطعمة الشهية، وما يشبه ذلك من اللذات التي لا حاجة به إليها، وإنما يحصلها بطراً وازدراء، وأن أحدكم لا يكتفي بقرينته التي اختص بها، بل يطلب امرأة جاره وصديقه، ويخونه فيها. وقد اتخذتم الكذب والنفاق آلة لتحصيل مآربكم، حتى إن الوالد يخون ولده والولد يخون أباه، والأخ يخون

أخاه، وتظهرون المحبة والصفاء، وتعلنون الوفاء والأمانة، وتضمرون الغدر والخيانة، تحلفون وتحنثون، وتعاهدون وتنقضون، وتعدون وتخلفون، لا يرى أحدكم راحة من أخيه لمحة، بل على توالي اللحظات يحذر سوء إخوانه، ويتوقع منهم الشر. وثانيا قد نسبت إلى الخسة والدناءة، مع أنني ومن يشاركني في نوعي جبلنا على عزة النفس والشرف وارتفاع الهمة، لا يرضى أحدنا أن يدخل تحت الرق، وأن يحني الظهر إلى العبودية. ألا ترى أن أضعفنا لو هجمت عليه الألوف بالسيوف، ورامو إذلاله وخذله، وحصروه، وسدوا عليه طرق الفرار، وتقطعت أسباب خلاصه، ولم يبق له إلا سبيل الموت فإنه يجمع قوته، ويصول صولة الأسود والنمور، ومع صغر جسمه وضعف قوته يهجم على عدوه فيضرب هذا ويعض ذاك، إلى أن يموت بعزة وشرف، ويختار الموت الشريف على الحياة الدنية. وأما أنت أيها الإنسان، ومن يشاركك في نوعك، فقد طبعتم على الذل وعلى الانكسار، وجبلتم على الحقارة والهوان، فإني أرى أن رجلاً واحداً منكم يظلم صالحكم، وعالمكم، وجاهلكم، وغنيكم، وفقيركم، وضعيفكم، وجبانكم، وشريفكم، ووضيعكم، وذليلكم، وغبيكم، وزارعكم، وصانعكم، وتجاركم، وعمالكم، وأرباب سيفكم، وأصحاب قلمكم، ويستصغرهم، ويستحقرهم، ويضيع حقوقهم، ويهتك أعراضهم، ويسلب أموالهم، ويتصرف في أرواحهم وأبدانهم، ويستخدمهم شهورا وأعواما، ولا يعطيهم مالاً يحفظون به حياتهم من القوت الضروري واللباس الكافي، وما يتعلق بذلك. بل تراهم في أدنى الضروريات، مع أن الإنسان إذا كان عنده ثور أو «حمار» يقضي عليه عمله، لا يجد مفرا من أن يطعمه ويسقيه ويأتي إليه بجميع لوازمه. وأنتم عند ذاك الرجل أدنى وأحقر من الحيوانات، لا ينظر إليكم نظرة راض، ولا يكافئ أعمالكم الشاقة وأتعابكم الدائمة بشيء، حتى إنه لا يراضيكم بكلمة معروف ولا حمد ولا شكر. ولا يلاقيكم بالترحاب والبشاشة، ولا يقطب جروح آمالكم بإظهار الممنونية.

ومع ذلك لا تزدادون إلا خضوعًا له وطاعة لأمره، ووقوفًا بين يدي إرادته. أفلا تنظر يا أيها الإنسان الغشوم إلى الأماكن التي خصصت لمنفاكم، سيبيريا أرض الزمهرير كيف جعلها محلا لنفي أبريائكم الذين لا جناية لهم؟ أولا تنظر إلى

الألوف منكم وقد سيقت لمجزرة الرجال بآسيا وأوروبا وماتت بالظمأ. أولا تنظر ما فعله الصينيون بصلحائكم وأتقيائكم بأرض كاشغره؟ فيم إذًا نفعتكم علومكم أيها العلماء، وأفادتكم آدابكم أيها الأدباء؟ وماذا صنعتم بتدبيركم وتفكيركم أيها الحكماء؟ وما الذي عاد عليكم من قوتكم وشجاعتكم أيها الأقوياء؟ وأي شيء دفعته عنكم سيوفكم وخيولكم أيها الفرسان والمدربون على الحروب والمتعودون على غوائلها، الذين قد أعددتم أنفسكم لمصارعة الموت وتهيأتهم لمعاناته، فتعسا لكم من نوع خسيس دنيء ذليل رذيل!

إن حياته عناء، وسعادته شقاء، وحريته عبودية، وعزته ذلة، ورفعته حطة، وعلوه خسة ودناءة، وشجاعته جبن، وجرأته خوف، وفخاره مسكنة (فخرس الإنسان الكاتب).

ولما رأيت **حجة الهرة** رميت القلم وكسرته، وطرحت المحبرة، وقطعت العهد منها، وقلت ما دام الإنسان بهذه الحالة الردية، فهو أردأ وأسوأ حالا من جميع الحيوانات.

* * *

١٤

منافع الوفاق

و

مضار الشقاق

منافع الوفاق ومضار الشقاق

إن للأمم صعوداً ونزولاً، وإنها في ارتفاعها وانخفاضها تتناوبها السعادة والشقاوة، وتعتورها العزة والمسكنة. ما يطمح بصرها إلى ذرى المجد إلا وترى نفسها في حضيض المذلة، وما تشيم سيوف القهر إلا وتجندل بها، وما تمد يدها لفتح الممالك إلا وتنهب دورها، وتغصب بلادها، وتستعبد رجالها. إن الفارس (فارس) الأولى تقلص ظلها بعد بسطة الملك بفتوحات إسكندر اليوناني، وانقرضت السلطنة اليونانية الفسيحة بأيدي الرومانيين، وأباد العرب المملكة الساسانية الراسخة، وجدعوا أنف الروم، واستولى محمود الغزنوي على البلاد الهندية الواسعة بهجماته المتتالية، وجعل كلمة الإسلام عالية بقهر الوثنيين، وإزالة دولة برهما، وجث هلاكوخان شجرة الخلافة العربية التي وشجت عروقها، وامتدت فروعها شرقًا وغربًا. وفتح العثمانيون مدينة قسطنطينية، وأخنوا على الروم واليونان، ودوخوا بلادهم. وقام بعد هؤلاء أقوام تفتح البلاد، وتقهر العباد. ولقد كانت أسماؤها مطوية في طومار الدهر من قبل. أليس لهذه التبديلات من علل؟ أفلا توجد لهذه الحوادث مقتضيات؟ أفلا تكون لمقتضياتها معدات؟ بلى. إن الحوادث في عدمها تفتقر إلى علل افتقارها إليها في وجودها، وإن عللها مسببة عن مقتضيات تعدها للوجود، وتجعلها تستتبع معلولاتها.

وليست أسباب هبوط الأمم، وعروجها، طلوع نجم، وأفول كوكب كما ذهب إليه البعض، وليس جزر قوتها، ومد سلطتها مسببين عن الأسباب الطبيعية، لأننا نرى أمما كثيرة شبت بعدما شابت، وبعثت بعدما ماتت وصارت عظامًا نخرة. والأسباب الطبيعية لا تحيد عن سننها ولا تقف عن سيرها، ولا تعتريها التبديلات، ولا يصدها عن مسالكها اختلاف الحركات. ها هي الأمة الإيطالية، أمامك فانظر

إليها يظهر لك صدق مقالي. ولا تغض النظر عن إسبانيا متدبراً فيما كانت عليه، معتبرا فيما آلت إليه. وإن الأمم، ما صعدت إلا بنفسها، وما هبطت إلا من نفسها، وفيها سعادتها ومنها شقاوتها، وإنها هي السبب الموجب لضعف قوتها، ورفع سلطتها وخراب بلادها، وإنها هي التي تجعل نفسها بنفسها عبيداً أذلاء للأجانب، يحكمون فيها كيفما شاءوا، ويستعملونها في منافعهم بما أرادوا. إن الإنسان بجبلته لا يسعى إلا إلى سعادته، ولا يدأب إلا لجلب الخير إلى نفسه، ودفع الشر عنها، حيث إنه المتصرف في عالمه، وبيده سعادته وشقاوته. فما الذي يهوي به إلى مهواة الشقاء ويقوده إلى الهلاك؟ وما الذي يعوقه عن النجاة، ويمنعه من الخروج من الورطات، ولو نسبنا شقاوة إنسان إلى القوة القاسرة، وعزونا حرمانه إلى المزاحمات التي قلما يخلو عنها الإنسان في سيره في مسالك سعادته، فما الذي يمكننا أن نقيمه دليلا على انحطاط أمة قاومت الدول القديمة وغالبت الأمم العظيمة، وفتحت البلاد، وقهرت العباد؟ وما السبب الذي يوجب ترعرع أمة، وهي لقلة العَدد فاقدة العدد، ويجعل لها يدا عالية وقوة قاهرة؟ هنا يلزم السبر والدوران.

إن الأمة العربية (في) صدر الإسلام ما كان عددها يزيد عن المليونين. وإنها مع الفقر المدقع وقتئذ، وخلوها عن العلوم والصنائع قد أرغمت الأكاسرة ودمغت القياصرة. والآن بلغ عددها ٣٠ مليونا وهي قاصرة عن إدارة نفسها عاجزة عن صيانة بلادها.

إن العثمانيين، مع قلة العدد، قد أرعدوا الدول الغربية، وأذلوا الجبابرة. وتراهم من نصف قرن، مع سعة بلادهم، وكثرة رجالهم، يسترحمون ملوك الإفرنج، ويحتمون بهم، ويزعمون أن لا حياة لهم على البسيطة إلا بهم.

وإذا رجع البصير إلى نور بصيرته، فقد يحكم بأن هاتين الأمتين قد فقدتا الآن أمراً كان هو السبب لعلو شأنهما وبسطة سلطتهما ورفيع منزلتهما، فيجب علينا أن نسبر حركاتهما الفكرية وأخلاقهما النفسانية، حتى نقدر أن نجد الأسباب الحقيقية التي أوجب وجودها جلب علو كلمتهما وانعدامها أوجب انحطاطهما، فنقول:

لا يمكن أن تنال أمة من الأمم سعادة ما إلا بالتئام آحادها التئام أعضاء الجسد

بعضها ببعض. ولا يحصل لها علو الكلمة، وبسطة الملك إلا أن تصير مسالك حركات أفرادها كأنصاف الدائرة منتهية إلى نقطة سعادة الكل، غير خارجة عن محيط الجنسية، وأن يلاحظ كل منها منفعة الكل أولا وبالذات، وينظر إلى منفعة نفسه ثانيًا وبالعرض، حتى يكون خير الكل كينبوع تتشعب منه جداول خيرات الآحاد. وحينئذ يجذب كل الآخر عند دفعه إياه، ويقبل عليه عند إعراضه عنه، فيرتفع الشقاق ويزول النفاق وتعتدل الأخلاق، لأن كلا يعلم إذ ذاك أن الآخر لا يسعى إلا له ولا يدأب إلا في إيصال المنفعة إليه. وليس له أن ينال الخير إلا به، فهو بمنزلة نفسه، ومنه سعادته، وبه يذود الشر، فيحبه محبة ذاته ويعامله معاملة نفسه. وإذا بلغ كل مع الآخر إلى هذه المنزلة من الالتئام، فلا يمكن أن يتحقق في الأمة فساد الأخلاق، لأن منشأ الأخلاق الرذيلة المزاحمة في المنافع، والمنازعة فيها. فمن ذا الذي يوالس الساعي في خيراته، ومن يغش الباعث على سعادته، ومن يخون قوام حياته؟ ولهذا تلتئم الأفكار، وتتحد الآراء، وتأتلف الأهواء، وتترادف الأيدي، وتتناصر السيوف، وتجتمع القوى، فتصير الأمة التي حازت هذه الدرجة من الوحدة مقومة في نفسها، متمكنة من صيانة حوزتها، قديرة على قهر الأمم التي تغالبها، كما وقع للعثمانيين وللأمة العربية من قبل.

وكون كل من آحاد هذه الأمة المتلبسة بالوحدة ناظرًا إلي ما يجلب الخير والسعادة إلى الكل، يبعث كلا على الأفعال الشريفة التي يستفيد من نتائجها مجموع الأمة فتكثر بينها الصنائع النافعة، وتنتشر العلوم الحقيقية والمعارف الصادقة، وترتقي بها إلى ذروة المدنية، وأوج المجد، متمتعة بثروتها، متنعمة بثمار مساعيها، يحف بها الأمن وتكتنفها الرفاهية، وهي تسود ولا تساد، ولا تضرب دون نفاذ مقاصدها الأسداد، كالأمة العربية في الأزمان السابقة.

ولما ظهر أن علة صعود الأمم هي اتفاق الكلمة والاتحاد التام بين أفرادها، علم أن سبب النزول (هو) التفرق وعدم الاتحاد، وعن تفرق الكلمة ينظر كل إلى نفسه، ويسعى لمنفعة شخصه، فتختلف جهات حركات الآحاد، وتتغاير مسالك المنافع فيكثر النفاق، ويزيد الشقاق، ويروج سوق الخيانة والكذب والافتراء، وتتمكن العداوة والبغضاء، وتتشتت الآراء، وتتنافر القلوب، وتتفلق الآحاد، ويستولي

الكسل، وتغلب الجبانة وتحصل الوحشة فتضعف الهمم وتقنط النفوس. وحينئذ تندثر العلوم، وتندرس المعارف، وتنطمس مسالك النجاة، وتخفى محجة الحق، فتهبط الأمة عن ذروتها، وتتناثر طبقاتها، وتتلاشى أعضاؤها، وتنحل عقدتها، فلا يمكنها أن تسوس نفسها، ولا تقدر أن تذود عن حوزتها، فتصبح مملوكة، بعدما كانت مالكة، تخضع لكل قاهر، وتنقاد لكل آمر.

ولقد أوجب هذا التفرق انقسام السلطنة العربية أولا وإضمحلالها ثانيا. وقد كانت ممتدة إلى جبال بريني[1] وشعاب هيمالايا، والسلطنة التيمورية العظيمة في الهند ما زالت إلا بهذا السبب بعينه، وإن ضعف العثمانيين في هذه الأيام ما نشأ إلا عن تزعزع أركان الاتفاق الحقيقي بينهم. نعم، إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.

ونحن نكتب فيما بعد مقالة نبين فيها الأسباب التي يمكن بها إيجاد الاتفاق وإعادته بعد زواله ونشرح الباعث على حصول الخلل منه والموجب لاضمحلاله. لعل الله يهدي بها من يشاء من عباده.

* * *

(١) جبال بريني: جبال البرانس في شمال إسپانيا وجنوب فرنسا.

١٥

الإنجليز في الهند ومصر

الإنجليز في الهند ومصر

إن من تتبع حركات الإنجليز في السنين الأخيرة رأى أنهم يهتمون مزيد الاهتمام بالاستيلاء على جميع الطرق المؤدية إلى البلاد الهندية. فقد حاولوا منذ مدة أن يضبطوا مضايق أفغانستان وبلوجستان. وهم الآن يريدون البقاء في مصر والتسلط عليها.

وسبب اتباعهم هذه السياسة حرصهم على ممالكهم الهندية، وخوفهم أن تنتزع من أيديهم في زمن ربما كان قريبا. وما وقع في روعهم من هذا الخوف بعثهم على نهج مسلك يصادمون فيه أمما أخر، والتمسك بمقاصد ومطامع تذهل رجال السياسة وتهيج الغيرة في صدور الدول.

وإن الإنجليز يعلمون لا محالة أن سكان الهند على اختلاف أجناسهم، وتباين مذاهبهم، وتفاوت مراتبهم، يكرهون ظلمهم كرها شديداً، وإن صوت مدفع قريب في إحدى جهات سواحلهم، أو في بعض أنحاء تخومهم يكفي لإثارة حرب عمومية تمتد نارها من سيلان إلى أحصنة هملايا.

وإنهم لا يجهلون ضعف سلطتهم ووهن قوتهم، وقد تحققوا عدوان رعيتهم الهندية، وتأكدوا من عدم كفاءة عساكرهم في أوقات الحاجة، ولذلك صاروا يريدون إفراد الهند، وعزلها عن سائر العالم، بأن يضربوا حولها شبه سور من الموانع التي يلقونها في سبيل السياح من أي أمة كانوا، مخافة أن يكشف الأجانب سر ضعفهم المحجوب بستار قوة ظاهرية. ومع أن جهدهم مبذول في حفظ ملكهم المترجرج، لم يتخذوا من الوسائل السديدة ما يقوي شوكتهم، ويوطد دولتهم، إذ ليس من عادتهم أن يوالوا الأمم ويستميلوا الشعوب، بل دأبهم غيظها والإساءة

إليها، والاعتداء على حقوقها والاستخفاف بمصالحها. ألا ترى أنهم ملكوا الهند منذ مائة سنة ونيف، وأن الهنود صاروا من ثم عبيدا محرومين من حقوق الإنسانية، لا ينالون مرتبة حربية ولا منصبا سياسيا. وقد فقدوا حرية الضمير، وهي أشرف الحريات وأقدسها. وكان الواجب على الإنجليز أن يخففوا الضرائب، ويقللوا المكوس، كي يبقى للأهالي بعد أداء الرسوم شيء من ثمرة أتعابهم ينفقونه في حاجاتهم وتحسين أقواتهم اليومية، فما التفتوا إلى ذلك، بل عطلوا تجارة الهند وشلوا صناعتها، بما يقذفون إليها من مصنوعاتهم الأوروبية، وقطعوا الاتصالات بينها وبين جيرانها الأفغان، بحرب جائرة شهروها عليهم بغيا وعدوانا، فكسبوا منها وبالاً وخسرانا.

وقد نشأ عن هذه الحرب التي ركب فيها المعتدون متن الشطط والغواية أن الأفغان صاروا أعداء ألداء للإنجليز، وحالفوا الدولة الروسية على التناصر والتآزر حين تجيء الساعة.

وإذ حبط سعيهم في أفغانستان، وأخذهم الحسد الشديد من حلول الفرنسيين في تونس، وشعروا بتفاقم كره الهنديين لهم وميلهم إلى إعانة أي دولة تريد مغالبتهم على أجمل أملاكهم الآسيوية، وقع في قلوبهم خوف شديد أعمى بصائرهم عن الهدى فارتكبوا غلطا جديدا ترتبت عليه نتيجتان لا بد أن تضراهم في الاستقبال.

وأما الغلط فهو تداخلهم في مصر بالمكر والاحتيال وهما سلاحهم القوي في جميع الأحوال، وإضمارهم مد سلطتهم إلى عبر البحر الأحمر وإنشاب أظافرهم في ولايتي اليمن والحجاز.

والنتيجة الأولى التي جرها تدخلهم في مصر أنهم غاظوا كثيرا من الأمم الأوروبية، ولا سيما فرنسا. فإن لها في وادي النيل مصالح لا ريب في أهميتها، ولا خلاف في سابقيتها. ولو تبصروا لعلموا، مع ما هم عليه من الاغترار بقوتهم، أن صداقة الأمة الفرنسية ضرورية لهم فيما عسى أن يطرأ على الشرق من الحوادث الجسيمة، والانقلابات الفعلية، حال كون فرنسا تستغني عن ودادهم ولا تفتقر إلى

ولائهم، فلا جرم أن الإساءة إليها غلطة من أعظم الغلطات التي وقع بها كبير وزرائهم.

والنتيجة الثانية التي تضر بإنجلترا أيضًا هي أن تداخلها الشنيع في مصر أوجب مزيد الغضب للمسلمين عموما، ولمسلمي الهند خصوصا. ولا يخفى أن مسلمي الهند يحترمون سلطان العثمانيين، ويغارون على ممالكه، ويدعون له في جوامعهم. فلما دخل الإنجليز البلاد المصرية حدثت ثورة خفيفة في ميريت فأخمدوها بما أشاعوا من أنهم لم يتصدوا لقتال عرابي إلا لعصيانه، ولا دخلوا مصر إلا طاعة لأوامر السلطان.

ولولا هذا الخداع لانتشرت الثورة في جميع الهند الإسلامية غير أن الرجوع إلى مثله في الاستقبال يكون خاليًا من الفائدة، عاريًا عن النفع، خصوصًا إذا تأكد الترك أن إنجلترا تريد استملاك مصر، وهي أهم أملاكهم الإفريقية، بقصد أن تستولى فيما بعد على الحجاز واليمن. وذلك لأن حصول مثل هذا اليقين في أذهان العثمانيين، مع اعتقادهم ميل مسلمي الهند إليهم يبعثهم على تأييد سياسة الدولة العظيمة، الطامحة إلى الأقطار الهندية، وإن لم يكن لهم فيه منفعة حقيقية، لأن قلوبهم تتشفى من غيظها بكبح أمة تحاول تقسيم بلادهم. ومحافل السياسة في إنجلترا تعلم أن التمادي في الاعتداء على حقوق السلطان يسوقه إلى مظاهرة خصومهم في الهند. وحسبه في ذلك أن يغري علماء مكة المكرمة بالحث على مناوأتهم والخروج عن طاعتهم، أو أن يبث إلى الهنديين رسلا يدعونهم إلى نبذ نيرهم والتخلص من ربقهم.

ولو صرفنا النظر عما عسى أن ينهج الترك في الاستقبال من المسالك السياسية، لوجدنا مجرد حلول الإنجليز في مصر، مع ما أضمروا من بسط سلطتهم على الحجاز واليمن، مهد الإسلام وحصنه الحصين سببًا كافيًا لحمل المسلمين في الهند على إعانة كل دولة قصدت بلادهم محاربة الإنجليز.

ومن الخطأ المبين أن يتكل الإنجليز على مساعدة الطوائف غير الإسلامية، لأن مظالمهم شملت سكان الهند جميعا. فإذا جاء يوم المحاسبة، وحان وقت المطالبة،

يشترك الكل في العمل اشتراكهم في الذل المضروب عليهم، ويتفقون على فك سلاسل أسرهم اتفاقهم على بغض ظلمهم. وشواهد ذلك كثيرة أجتزئ منها بأن نانا صاحب[١]، وهو من غير المسلمين، جاهر الإنجليز سنة ١٨٥٧، بعداوة شديدة أشد من العداوة التي لقوها من فيروز شاه وبكم صاحب[٢].

وربما شك قوم في ائتلاف الطوائف الهندية، وميلها إلى التعاون والتضافر لجهلهم سير الإنجليز في حكم الهند ومعاملة أهلها وسلب ثروتها؛ ولذلك سأكتب مقالات يزول بها الريب، ويحصل اليقين.

* * *

(١) أحد أمراء الهند وقواد ثورتها على الإنجليز سنة ١٨٥٧.

(٢) من زعماء حركة العصيان الهندي ضد الإنجليز.

١٦

المسألة الهندية

المسألة الهندية

أكسبني الاطلاع على جريدتكم، علمًا برغبتكم في البحث عن دقائق السياسة في البلاد الشرقية وإقدامكم على نشر ما تقفون عليه منها، خدمة لأوطانكم وتأييدًا لاعتدال سيركم وهذا ما بعثني أن أكتب إليكم بعض ما وصل إلي في مسألة من أهم المسائل المنظور فيها لهذا الوقت وهي المسألة الهندية، وربما ترون من المفيد نشر ما أقدم لكم من ذلك.

كأني بالحال في بلاد الهند وقد أشبهت الحال في كثير من البلاد الشرقية عندما تضطرب راسياتها، وتهتز ثوابتها، وتتنفس صوامتها، إعدادًا لزلزال يوجب الانقلاب فيها، غير أن المألوف في تلك الأحوال أن تكون متالف الانقلاب ومضاره مهلكة للشرقي لتساهله وسوء تصرفه، وفوائده وثمراته غنيمة للأوروبي لحزمه وتجويد الرأي فيما يفعله. والمنتظر في الهند على خلاف المألوف فقد تسقط بتبدل الأحوال فيه دولة من أعظم الدول الأوروبية. وأحذقها في السياسة الخارجية، وتنهض دولة أو دول شرقية تعضدها دولة أوروبية، هذا ما تفترق به هذه المسألة عن سائر المسائل.

لا يفوتكم العلم بأن البلاد الهندية على سعتها تسكنها طوائف مختلفة تتباين في العقائد والأخلاق حتى يخيل للناظر في أطوارها أنها أجناس متباينة، غير أن هذا الاختلاف قلما كان يظهر أثره في الروابط السياسية إذا تولت طائفة منهم أمر الحكومة في باقيها ما دامت خصائص الطوائف محفوظة. ولما دالت الدولة للإنجليز فيهم سكنوا إليها زمنًا ثم نبذتها طباعهم فهموا بالتملص منها فلم يمنعهم الاختلاف الفكري والديني من الاجتماع تحت لواء الجنسية العامة وحملوا بغارة واحدة على

الإنجليز في سنة ١٨٥٧ غير أنهم لم يوفقوا للنجاح فيما هموا به، بل ظفرت بهم الدولة الحاكمة.

ومن ذلك الوقت أخذت الدولة الإنجليزية حذرها فرفعت بناء سياستها على أساسين الأول توليد الشقاق بين الطوائف وإيغار صدور كل طائفة من الأخرى وآلتها في ذلك أصل الخلاف الموجود بينهم وأدركت بعض النجاح في سعيها هذا وظهر بعض أثره في بلاد البنجالة بين الوثنيين وبين المسلمين، وفي أواسط الهند بين الطوائف الوثنية بعضها مع بعض. والأساس الثاني سد نوافذ الأخبار عن الهنديين قاطبة حتى لا يقفوا على المشاكل السياسية والورطات الحربية التي تقع فيها إنجلترا، ولا تكون بينهم وبين الأوروبيين صلة سياسية يلجأون إليها إذا هموا بمثل عملهم السابق، ولا يطرق آذانهم صيحة من صيحات الحوادث التي تنبههم لطلب حال خير مما هم فيه. قطعتهم عن العالم فهم بمعزل عن معرفة شيء من أحواله ليستمر بهم الإذعان بأن لا قوة إلا بإنجلترا، ولا ملجأ منها إلا إليها، ولا حيلة في الإدبار عنها إلا الإقبال عليها، ولا شفيع من جورها إلا جبروتها الأعلى. وهذه أحكم سياسة يقوم بها سلطان الغالب على المغلوب، وليس في نظر العقلاء أجود منها لولا تصاريف القدرة الإلهية مما لا يطاوله بناء، ولا يعاجله دهاء.

وانتقض الأساس الثاني فانصدع له ركن عظيم من قوة الدولة. لم يكن في حسبان أحد من حكام الهند أن يزحف جيش الروس على حدود الأفغان، بل كانوا في غرة الأمن من وقوع مثله، فإذا الحادث فاجأهم فطار طائر الأخبار بغتة حتى جثم على قمم جبال الهند، وصاح بالخبر المفزع فلم يبق هندي إلا وبلغ منه الخبر حد اليقين، فذلك قد أعجل الدولة عن التدبير في كتمانه، فتراجعت العقول من غيبتها، وانطلقت الآمال من محابسها، وخيل للنفوس أن المعارك أصبحت على حدود بلاد الهند.

علم ذوو الرأي من أهل الهند أن دولة أوروبية شديدة البأس سامية القوة ستصبح جارة لهم ولها من المصلحة في بلادهم ما يضارع مصلحة الدولة الحاكمة، فلو تقربوا منها شبراً لتقربت منهم ذراعاً. ومذاهب المتغلبين في السيادة على المغلوبين وإن كانت مشابهة إلا أن من أحكام العادة أن يكون في سيرة الجديد لين إلى أمد

حتى يتمكن من السلطة، ويكون من أحوال البلاد على خبرة، فلهم في تقليب الحال متنفس. بل تعالت أفكارهم إلى أسمى من ذلك فظنوا أن لا طاقة للروسية لو تقدمت إلى الهند أن تضبطها بقوة السلاح دفعة واحدة، فمن المحتوم عليها أول العمل أن تعيد الملك لطلابه من أهالي البلاد وتمدهم بالمعونة على سالبه منهم لتكون البلاد عونًا لها على بلوغ غايتها من فتح أبواب التجارة الهندية لأبناء جلدتها، ثم إن شاءت بعد ذلك غالبتهم، وفي هذا متاع من الاستقلال إلى حين، وفسحة من الزمان ربما تمكنهم من صون ما يصل إليهم. هذا ما يرتفع إليه الخبال في رءوس الهنديين على اختلاف طوائفهم ولا أظنهم يخطئون فيما يظنون، ولا تجد طائفة منهم عونًا على ما تؤمل إلا في الاتحاد مع الأخرى.

وقد ضعف الأساس الأول فيوشك أن يتضعضع البناء. همدت نيران الضغائن التي كان يسعرها الحكام في البنجالة بين المسلمين والوثنيين، وبعد أن كانوا متدابرين يذهب كل منهم إلى حيث لا يلتقي مع الآخر أبد الآبدين، انعطف كل في سيره إلى ما يقارب الآخر فلا يمضي كثير من الزمن إلا وقد عادوا متقابلين.

لا يفتر الحكام عن إمداد اللهيب بوقود الفتن كأنهم خلفاء الفرس الأقدمين في عبادة النار إلا أن الآمال المقبلة تصب عليها ماء بارداً فلا تلبث أن تصير برداً وسلامًا. قبائل (المرتة) في أواسط الهند هزت مناكبها نحو مطلوبها القديم، هذه من أقوى قبائل الهند وأشدها تمسكا بعوائدها وأحرصها على الاستقلال. أرغموا من زمن على الدخول تحت السلطة الإنجليزية، ولكنهم لم يؤدوا من رسوم الطاعة شيئًا سوى الخراج، فقد تحالفت هذه القبائل على وفرة عددها أن لا ترتفع من أمرها شيئًا جزئيًا كان أو كليًا إلى حاكم إنجليزي، واتفقت على أن يكون تدبير شئونها مفوضًا لرجال منها ينتخبون بالاقتراع، وما كان عاما من شئونها خصته بمجلس عام يشبه مجالس النواب في البلاد المتمدنة، وما كان خاصا كالفصل في الخصومات جنائية كانت أو قضائية ناطته بقضاة منها لا ينازع في حكمهم، ولا يدافعون في قضائهم، ولو أن مرتبًا رفع أمره في خصومه إلى القاضي الإنجليزي لأعدموه حياته وذهب دمه هدرًا لا يطالب به أحد. كل ذلك ولا يستطيع حاكم من حكام الإنجليز أن يقف

على شيء من أحوالهم الداخلية. بل حرموا على أنفسهم الانتفاع بشيء من مصنوعات أوروبا وثبتوا على صنائعهم ورجوها بينهم، وبذلوا الجهد في ترقيتها حتى صار لهم من الصنائع ما يشبه صنائع الأوربيين في كل نوع، ولا يوجد في بيت واحد منهم أو على بدنه مصنوع إلا من عمل أيديهم.

فهذه القبائل الرفيعة الهمة الأبية النفس أخذت الأهبة في هذه الأيام لما أعده لها استعدادها. ولست بالواهم إن قلت بتواتر رسلها وكتبها إلى الحدود الشمالية لتجاذب حبال الصلة بينها وبين رؤساء المنفذين في زعمها.

حكومة حيدرآباد ملت سيطرة الإنجليز عليها، ونظرت إلى قوتها العسكرية واجتماع رعاياها على بغض المتحكمين في شأنها، الآخذين على يديها، وجاءها خبر الزحف الروسي، فشدد عزيمتها، وزاد في حرصها على الخلاص من عنف السيطرة الإنجليزية، وقبائل (السيك) في بنجاب من شمال الهند شمروا للخوض في لجج الفتنة متى اشتبكت حرب في بلاد الأفغان، ليعيدوا مجدهم الأول، ويأخذوا بالحق لأنفسهم ممن أباح دماءهم، وفتك بأشرافهم. ولم يمض على ذلك الزمن الطويل فينسى، ولم يأتهم عوض عما فقدوا فيتسلوا عنه.

أحست حكومة الهند بمبادئ الاضطراب، فأخذت الطرق على كل سائر إلى جهة الشمال، منعًا للمواصلات بين الهنديين والروس، ومنعت تجار الأفغانيين من الجولان في البلاد الهندية، وصدت كل عربي يدخل إلى الهند من الشخوص إلى حيدرآباد لكثرة أبناء العرب فيها، واشتدت في التضييق على كل طارق غريب يرد إلى أرض الهند، وعلى كل وطني يصل إلى الحدود الشمالية، وأخرست الجرائد عن التكلم في حوادث التقدم الروسي، وأنطقتها قهرًا بما يغشي وجه الحقيقة، ويصرف الأفكار عما شغلت به من إعداد العدد وتحويل مراكز الجند، وحشد الجيوش، وتوفير الذخائر في مواقع المخافة، وأرسلت عيونها على موارد البريد، ورسمت بفتح المغلقات، وأخذت بكل احتياط. ومع هذا كله ضاقت سلطة الحكومة عن سد أبواب الهند المفتوحة، وقطع طرقها الواسعة، وتسوير حدودها الممتدة. فالأخبار بين أمراء الهند وبين الروسية متواصلة، وقد علم رجال الحكومة

أن الحال في هذه الأزمان الأخيرة غيرها في سنة ١٨٥٧[١] حيث أمكن للحكام في تلك الأوقات كتمان سر الفتنة عند اشتباكهم في الحرب مع دولة إيران، وكتمان خبر الحرب عن رؤساء، الفتنة، حتى تم الأمر لحكومة إنجلترا في إهماد الثورة وإنهاء الحرب على شروط توافقها. أما الآن فليس يخفى على الروسية أدنى حركة تكون في الهند، ولا يخفى على الهنديين أقل عمل يكون من الروسية.

وإن الأخبار الخصوصية الواردة من الهند تفيد أن الأمر في تلك الأقطار أشد مما تدل عليه أخبار الجرائد. أما ما زعموا من أن بعض النوابين والرجوات عرضوا أنفسهم وجيوشهم لمساعدة إنجلترا عندما طاش ميزانها مع الروسية، فذلك مما يعجب خبره! ويضحك معجبه. فإن رجالا من الإنجليز سعوا عند بعض الضعفاء من الأمراء وأغروهم أن يتقدموا بعرض أنفسهم لمساعدة الحكومة لتوهم بذلك أنها معضدة من رعاياها، ففعلوا على أن ينالوا أجرًا على فعلهم ثم خابت آمالهم فانقلبوا على أعقابهم. ولو فرض صحة ما زعموا فهو كثير الوقوع في كثير من البلاد عند بداية الحوادث يظهر الضعيف أنه نصير القوي، فإذا حم الصداع كان أول خاذل له، خصوصًا إذا أحس بل توهم الانقلاب بالهزيمة.

بقي شيء في مجمل خبرنا نذكره تتميما للبحث وهو أن للدولة العثمانية شأنًا في المسألة الهندية لايسوغ إنكاره، فإن لها عدة كافية، وقوة وافية، يمكنها أن تستخدمها لآرائها السياسية متى شاءت، ويسهل عليها أن تستفيد منها إذا أقبلت عليها بشيء من التدبير. تلك قوة خمسة وأربعين مليونًا من المسلمين أهل السنة يعتقدون أنها دولة الخلافة، وأنها مرمى آمالهم في تخليصهم من أيدي الأجانب، ومكانتها من قلوبهم أعلى من مكانة حاكميهم، وأوصال أعمالهم معقودة بأوامرها. ولو أن لدولة أخرى قوة مثل هذه القوة لرأينا جوادها المجلي في هذه المجاراة. ولكن مما يوجب الأسف أن هذه العدة ربما تتبدد، وتلك القوة تضمحل، ولا يكسب رجال الدولة من إهمالها إلا ما يكسبه باذل ماله لعدوه وفقهم الله للسداد في آرائهم، والصلاح في أعمالهم.

---

(١) يعني سنة ثورة الهند.

يقول رشيد رضا: لم نعثر للأستاذ رحمه الله تعالى على مقالة في جريدة مصرية بعد عودته من باريس إلى سورية وترك جريدة «العروة الوثقى» إلا هذه المقالة، وهي تشبه مقالات العروة الوثقى السياسية التي كانت من نفثات السيد جمال الدين فى قلم الأستاذ. وكان الحكيمان يرجوان من تحرش الروسية بالهند في تلك السنين أن يفضي إلى ترك الإنجليز لمصر والسودان؛ فلذلك كانا يعظمان شأن ذلك التحرش.

* * *

١٧

الشرق والشرقيين

الشـرق والشرقيين [١]

الإنسان إنسان بعقله وبنفسه، ولولا العقل والنفس لكان الإنسان أخس جميع الحيوانات وأشقاها؛ لأنه في مبوته (غير مفهومة والمرجح أنها حيوته أي حياته) أضيق مسلكًا وأصعب مجازًا وأوعر طريقًا، منها قد حفت به المكاره وأحاطت به المشاق واكتنفت به الآلام. لا يمكنه بمعاشه، وهو منعزل عن أبناء نوعه، ولا يطيق الحر، ولا يتحمل ألم البرد، ولا يقدر على الذود عن نفسه، وليس له من الآلات الطبيعية ما يثقف به معيشته، وهو محتاج في ضروريات حيوته (حياته)، ومفتقر في الكمال فيها إلى الصناعة، ولا يمكن الحصول عليها، إلا بإجالة الفكرة والتعاون بمن يشاركه في العقل من النوع البشري.

والعقل ما به تستنبط المسببات من أسبابها، ويستدل بالعلل على معلولاتها، وينتقل من الملزومات إلى لوازمها، وتستكشف الآثار حين ملاحظة مؤثراتها، وتعرف العواقب ضارها ونافعها، وتقدر الأفعال بمقاديرها، على حسب ما يمكن أن يطرأ عليها من الفوائد والخسائر في عاجلها وآجلها، ويتميز الحق من الباطل في الأعمال الإنسانية نظرًا إلى مهيع السعادة ومنهج الأمن والراحة، لا يضل من استرشد ولا يغوى من استهداه، ولا يحوم الشقي حول من ركن إليه، ولا يعثر في المداحض من اعتمد عليه.

ولا يلتبس الحق بالباطل على من استنار بنوره، وأن الخير كله به، وليس الشر إلا

---

(١) هكذا وردت كلمة «الشرقيين» في عنوان المقال المنشور في جريدة «أبو نظارة زرقا» وكان يجب أن تكون الشرقيون. ولكن ربما يعود ذلك إلى أن ناقل المقال بخط يده، الذي هو صاحب الجريدة المصري يعقوب صنوع، كان يحرر معظم مقالاته بالعامية المصرية.

بالحيدان عن صراطه القويم. من فقده فاتته السعادة لا محالة، ولو أخرجت له الأرض أفلاذها، وأسبغت عليه الدنيا نعيمها، وأن الأمم ما سادت إلا بهدايته. وما ذلت بعد رفيع مقامها وعظم منزلتها إلا بعد أن أعرضت عن خالص نصحه، وتوغلت في بيداء غوايتها، واستعملته في مسالك ضلالتها.

واستخدمته لقضاء أوطار طبائعها الخسيسة التي تجلب عليها الشنار، وتوجب المعرة والصغار- والنفس هي منشأ أخلاق كريمة، وأوصاف عقيلة (أي عاقلة) هي قوام الاجتماعات المدنية والمنزلية، وأساس التعادل في المعاملات، وميزان التكافؤ في المؤازرات، ومقياس التوافق في المعاونات، ولا يمكن التألف بين القوى المتفرقة، لاقتناء ما يقوم به حيوة (أي حياة) الإنسان، إلا بها. ولا تلتئم أهوية النفوس المختلفة، لاكتساب ضروريات معاشها، إلا بسببها. وهي التي تجعل الأفراد الإنسانية، مع تضاد طبائعها، بمنزلة شخص واحد يسعى بأعضائه، المتخالقة في أشكاله وجوارحه، المتباينة في هيئاتها، إلى مقصد واحد لا يمكن الوصول إليه إلا باستعمالها، بحركات قد اختلفت مع وحدة جهتها أو ضلعها، وسيادة الأمم الغابرة والحاضرة، هي من أخص نتائجها، لأنها لا يمكن حصولها إلا باتفاق كلمة آحادها، واجتماع آراء أفرادها. ولا تتفق الكلمة عن بعد (أي عندما، كما يرجح) تجتمع الآراء، إلا بالتكافؤ في المساعي، والتوازن في تحمل المشاق، والاشتراك في المنافع، والمساواة في الحقوق، والتعادل في التمتع بثمرات الأعمال بلا تفاضل ولا استيثار (استئثار). وكل هذه، في وجودها وبقائها، تحتاج إلى الأخلاق الكريمة والأوصاف العقيلة، التي بها يعرف الإنسان حقه ويقف عنده- ولا تشتت أمة. ولا ذل قوم. ولا اضمحلت سلطنة. ولا تفرقت جمعية. إلا بفساد أخلاقها، وتطرق الخلل في سجاياها. لأنها بفسادها، وتطرق الخلل فيها، توجب تخالف الأيدي، وتباعد الأهواء، وتضارب الآراء، وتباين (أي تباين) الأفكار، فيستحيل حينئذ الاجتماع، ويمتنع الاتفاق، وإذا أمعن البصير في حقيقة الأخلاق الرذيلة، يعلم، أنها بذاتها تبعث على التفرق والاختلاف، وتمنع عن الاجتماع والايتلاف (الائتلاف). وما ينشأ عن ذات الشيء، لا يمكن زواله، وما دامت ذاته باقية. فإذا تمكنت الأخلاق الرذيلة من أمة، فلا يرجى لها نجاح، ولا يحصل لها فلاح، ما لم

تسع في مديلها (غير مفهومة، يرجح أنها تعديلها)، ولم تدأب في تقويمها. ويمكن أن يقال إن بين كمال العقل، وطهارة النفس، وتخلقها بالأخلاق الفاضلة، تلازمًا. لأن العقل إذا بلغ كماله يقهر الطبيعة. فحينئذ تسلم النفس عن سوراتها، وتخلص من عكر مذماتها، فتنقاد للعقل مستسلمة له، خاضعة لحكمه. ويستعملها العقل على نهج الحق والعدل. وليست الأخلاق الفاضلة، إلا أن تزن النفس أعمالها بميزان العدل، ولا تحيد في هواها عن صراط الحق.

وبعد هذه المقدمة، يمكن لنا أن نقول إن الشرق، بعدما كان له من الجل الرفيع، والمقام المنيع، والسلطنة العظيمة، وبسطة الملك، وعظيم الشوكة، وكثرة الصنائع والبدائع، ووفور الأمتعة والبضائع، ورواج سوق التجارة، وذياع العلوم والمعارف، وشيوع الأدب والفنون.. ما هبط عن جليل مرتبته، وما سقط عن رفيع منزلته، ولا استولى الفقر والفاقة على ساكنيه، ولا غلب الذل والاستكانة على عامرية، ولا تسلطت عليه الأجانب، ولا استعبدت أهله لأباعد، لإعراض الشرقيين عن الاستنارة بنور عقولهم، وتطرق الفساد في أخلاقهم، فإنك تراهم في سيرهم كالبهائم لا يتدبرون أمرًا، ولا يتقون في أفعالهم شرا، ولا يكدون لجلب النافع، ولا يجتنبون عن الضار.. طرأ على عقولهم السبات، ووقفت أفكارهم عن الإجالة في إصلاح شئونهم، وعميت بصائرهم عن إدراك النوازل التي أحاطت بهم.. يقتحمون المهالك، ويمشون المداحض ويسرعون في ظلمات أهوية نفوسهم التي نشأت عن أوهامهم المضلة، ويتبعون في مسالكهم ظنونًا قادهم إليها فساد طبائعهم.. لا يحسون المصائب قبل أن تمس أجسادهم. وينسونها كالبهيمة بعد زوال آلامها واندمال جراحها. ولا يشعرون لاستيلاء الغباوة على عقولهم، واكفهرار ظلمات غشاوة الجهل على بصائرهم اللذائذ التي خص الإنسان بها من حب الفخار وطلب المجد والعز وحسن الصيت وبقاء الذكر، بل لاستيلاء الغفلة على عقولهم. يحسبون أن يومهم دهرهم. والتقمقم كالسارحة شأنهم لا يدرون عواقبهم، ولا يدركون مآل أمرهم، ولا يتداركون ما فاتهم، ولا يحذرون ما يتربصهم من أمامهم ومن خلفهم. ولا يفقهون ما أكمن لهم الدهر من الشدائد والمصاعب؛ ولذا تراهم قد رئموا (أي راموا) الذل وألفوا الصغار وأنسوا الهوان،

وانقادوا للعبودية، ونسوا ما كان لهم من المجد المؤثل والمقام الأمثل. وبعد انحدارهم عن ذروة العقل، الذي لا كرامة للإنسان إلا به، غلبت عليهم الخسة والنذالة. ورانت على قلوبهم الجفاء والقسوة، وتمكن من نفوسهم الظلم والجور. واستولى عليهم العجب، لا عن جاه يدعو إليه، ولا عن فضيلة تبعث عليه. وتظاهروا مع الذل المتمكن من قلوبهم بالكبر والعظمة، وفشا بينهم الشقاق والنفاق. وتلبسوا بالغدر والخيانة. واستشعروا الحسد والنميمة وتسربلوا بالحرص والشره. وتجاهروا بالوقاحة والشراسة، واتسموا بالخشية والجبانة. وانهمكوا في الشهوات الدنية، وخاضوا في اللذات البدنية، وتخلقوا بالأخلاق البهيمية، متوسدين الكسالة والفشل، وأتصفوا بصفات الحيوانات الضارية يفترس قويهم ضئيلهم. ويستعبد عزيزهم ذليلهم، يخونون أوطانهم، ويظلمون جارهم، ويستلبون أموال ضعفائهم، ويخوسون (ربما المقصود يحتثون) بعهودهم، ويسعون في خراب بلادهم، ويمكنون الأجانب من ديارهم لا يدفعون ذمارا، ولا يخشون عارا، عالمهم جاهل، وأميرهم ظالم، وقاضيهم خائن، ليس لهم هاد، فيرشدهم إلى سبيل نجاتهم، ولا زاجر، فيكفهم عن التمادي في غيهم. ولا وازع، يقدع (أي يمنع) الجائرين عن نهش عظام فقرائهم، وصاروا جميعًا، بسخافة عقولهم، وفساد أخلاقهم، عرضة للهلاك، وأشرفوا على الزوال. تأمل فيما أقص عليك من أعمال الشرقيين من قبل، حتى تعلم أنهم هم الذين، بحيدانهم عن سنة العقل، قد أوقعوا أنفسهم في الذل الدائم، وجلبوا، بعدم تدبرهم في عواقب أمورهم، الخراب والدمار إلى بلادهم، وأضعفوا، بسوء سياستهم، سلطنتهم القوية. ومكنوا أعداءهم من بلادهم، جهلا منهم بنتائج أعمالهم - وها هو ذا -.

إن العثمانيين قد اتفقوا مع الروس على مقاسمة البلاد الإيرانية حينما تغلب الأفغانيون على أصفهان أيام شاه سلطان حسين. ولو نظروا بنظارة التدبر إلى الأمة الروسية، وما لها من العلاقات مع اليونانيين والرومانيين والسربيين والبلغاريين وغيرهم من رعايا السلطنة العثمانية، وما يمكنها أن تحوزه في مستقبل أمرها من القوة والبسطة، لما اختلجت ببالهم محالفتها. ولا خطرت في أذهانهم مؤامرتها، بل كانوا يسعون في قلع أسها قبل استحكامه، وقطع شجرتها قبل أن تشج عروقها.

وأنهم جاهروا الإيرانيين بالحرب من طريق بايزيد. وقد كان عباس مرزا بجيوشه يقاومون الروسية ويدفعونها عن بلادهم، فوهنت قوتهم، وضعفت مريرتهم (عزيمتهم) واستملك الروس، بسبب هذا الاقتحام، أكثر بلاد أذربيجان. ولو استشار العثمانيون عقولهم وقتئذ لأشارت عليهم بأن ضعف الإيرانيين وقوة الروس هما معا علة لتزعزع أركان السلطنة التركية. ولكنهم اتبعوا خطرات أنفسهم. وتزينت لهم أوهامهم، وظنوا أنهم يحسنون صنعًا، فأسرعوا في هلاك أنفسهم، وهم لا يشعرون. وكان عليهم، اهتداء بنور العقل وسلوكًا في مسلك السياسة الحقة، أن يلاحظوا الجامعة القوية التي بينهم وبين السلطنة الإيرانية.. فيتفقوا معها على كبح شره الروسية، وإضعاف قوتها، أمنًا من غوائلها، وحذرًا من آفات مطامعها، وأنهم، أي العثمانيين، جبهوا سفير (تبو سلطان) سلطان (ميسور) بالرد، حين عرض عليهم من طرف سيده، استبدال (البصرة) ببعض البلاد الهندية التي كانت في حوزته. فامتعضوا من هذا الطلب، وردوا السفير خائبًا. وكان غرض (تبو سلطان) من طلبه هذا، أن يكسر سورة الإنجليز، ببسط السلطة العثمانية في الهند وتمكنها منها.. وذهل العثمانيون تهاون (الحرف الأخير محذوف والمرجح أنها تهاونًا) منهم عن العلاقات التامة بينهم وبين الهنديين. وأن سلطنتهم لو امتدت إلى تلك الممالك لذهل جميع حكامها بلا معارضة تحت لوائهم. وقدروا حينئذ على قدع الحكومة الإنجليزية عن تطاولاتها في الهند وسدوا عليها طرق فتوحاتها في ا لمشرق. وما شعروا تساهلا في السياسة، وتغافلا عن منهج العقل، أن بسطة الحكومة الإنجليزية في الآسيا، توجب تحكمها في بلادهم، وطمعها في الاستيلاء عليها، كما وقع الآن.. حتى مكنوا عساكرها مدة طويلة من شق الأراضي المصرية، ذاهبة إلى أقاصي الشرق للتغلب عليها، وإن شاه إيران (فتحعلى شاه)، إرضاء للإنجليز، هدد الأفغانيين بالحرب، وقتما أرادوا أن يزحفوا إلى الهند لانتزاعها من أيدي الإنجليز. ولو استنار الإيرانيون وقتئذ بنور عقولهم، لانكشف لهم، أن قوة الإنجليز في الهند، إذلال لهم، وخطر على بلادهم. ولعلموا أنهم والأفغانيين، أغصان شجرة الإيران قد تشعبوا من أصل واحد. ونشأوا في أرض واحدة تجمعهم وحدة الجنسية. وتؤلفهم الأخوة الحقيقية؛ لأنهم متساهمون في العز والشرف. ومتشاركون في الذل والهوان، وما فرقت كلمتهم إلا أوهام واهية

نشئت (أي نشأت) عن الظنون الدينية - وليس منها في شيء - ولو راجع كل عقله لرأى وجوب اتفاقهم تحت راية الوحدة استرجاعًا لمجدهم السابق، وتداركًا لما فاتهم بسبب الشقاق من الشرف والفخار وعلو الكلمة بين الأمم، وأن الأمير (دوست محمد خان) أمير الأفغان قد جعل بلاده تعام منه (أي تكرهه) عرضة لهجمات الإنجليز. فإنه بعد المحالفة مع (رنجيت سنك) ومعاهدته على مقاومة الإنجليز، قد تركه، اغترارًا بالمواعيد الإنجليزية، في ميدان الحرب وحيدًا. وتقهقر بعساكره فانهزمت جيوش (رنجيت سنك). وتغلب الإنجليز على جميع أراضي البنجاب المتاخمة للأفغانستان. ولو استهدى الأمير (دوست محمد خان) إذ ذاك عقله، وسلك في سياسته سلوك بصير (الأصح سلوكًا بصيرًا) يتدبر نتائج أفعاله، قبل أن يشرع فيها . . لتحقق لديه، أن صيانة بلاده عن هجمات الإنجليز، إنما تكون ببقاء الحكومة البنجابية حريزة، حتى تكون سدا مانعًا بين أفغانستان وبين الحكومة الإنجليزية. فكان يدافع عنها كما يدافع عن حكومته، وأن نواب البنجالة، ونواب الكرناتك، قد مهدا للإنجليز سبل دخولهم في الأراضي الهندية، وأن نواب لكهنو (اسم مقاطعة) مقاصدهم في إذلال السلطنة التيمورية، وأن نواب دكن قد أعانهم على إبادة حكومة (تيبو سلطان) وإذلال كراجة (برودة) وقهر الذين قاموا سنة ١٨٥٧ لإنقاذ بلادهم ودفع شر المتغلبين عليها من الإنجليز. وكل هئلاء (هؤلاء) جهلا منهم بمنافعهم، وعميًا عن نتائج أفعالهم المضرة، مكنوا الحكومة الإنجليزية ثقة بمواعيدها من الأراضي الهندية، وجعلوا على أعناقهم نير العبودية، وما عقلوا أن قوام كل بالآخر، وأن بقائه (بقاءه) قد نيط ببقائه. وأن كلا للآخر بمنزلة العضو من الجسد. فإذا تمكن الداء من عضو، سرى في الجميع ولزم منه انحلال البدن كلية. والآن ترى الإنجليز، بعد استعبادهم، وسلب أموالهم، ونزع أيديهم عن الملك، تعارضهم في ديانتهم. وتزاحمهم في تجارتهم، وتعاقبهم على نياتهم، وتعاتبهم على أعمال آبائهم. وإن أهل بخارى فرحوا بتسلط الروسية على قوقند والتركمان تبجحوا من غلبتها على بخارى والأفغان والفارس قد سرا (المقصود سروا) من استيلائها على التركمان. وكل هذا غفلة منهم عن المضار التي تنشأ عن قوة الروسية وبسطة سلطتها في تلك الأراضي وقد ألقاه (هي ألقاهم) جهلهم بمصالح أنفسهم، وإغضائهم عن الاستنارة بأنوار عقولهم في التهلكة وأشرفوا

كلهم، بغرورهم، على الزوال والاضمحلال، وأن مدحت باشا[١] وأعوانه، لو نظروا ببصيرتهم إلى أركان سلطنتهم المتداعية إلى السقوط. . وشعروا بهداية عقولهم، أن دعائم حكومتهم كادت أن تنهد، بما ألم بها من المصائب. . وعلموا بتدبرهم أن البلايا تترصدهم من جوانبهم. . لما تقحموا غروراً وضلالة في خلع عبد العزيز وقتله، وقتما تترقب الأعداء سقطاتهم، وتغتنم هفواتهم. ولكنهم، اعتماداً على واهي آرائهم، واغتراراً بدسائس الحكومة الإنجليزية، قد جلبوا الهلاك والاضمحلال على أمتهم. . ويظنون أنهم هم المصلحون، وأن إسماعيل باشا[٢] حبا بالاستقلال، وعمي عن نتائج أفعاله السيئة التي نشئت (نشأت) عن حرصه باسم الملك، قد ألقم الإفرنج جميع أموال مصر، وما استدانه من صرافي الأوروبا بالأرباح الباهظة. ثم سعى الإفرنج في خلعه عن الملك، ونفيه عن الديار المصرية إرادة استملاكها، ووضع اليد عليها. ولو تروى في حالة الشرقيين، وتأمل فيما أصابهم من الذل والصغار لأجل تفرق كلمتهم، لازداد خضوعاً لسلطانه. وسعى، صيانة لنفسه، في تشييد مباني سلطنته، ونزع عن قلبه حب الاستقلال. وعلم، أن الذين لا يفترون عن السعي في فتح الممالك، لا يمكن أن يساعدوه في مقاصده، وأن وزراء توفيق باشا، جهلا بمقدار أنفسهم، وعجباً بآرائهم الفاسدة، وإثباتا لأوهامهم الباطلة، قد جلبوا الإنجليز بغاية جهدهم إلى القطر المصري، وملكوهم إياه، وهم يظنون أنهم يستظهرون بهم على أعداء الخديو. فلو تدبروا في سياسة الحكومة الإنجليزية ورأوا أطماعها في أرض مصر، لما جلبوا هذا المصيبة على أنفسهم، وعلى خديوهم، وعلى سلطانهم، ولما ألقوا أنفسهم في فم الأسد، خوفاً من وعوعة الكلب.

فقد ظهر، من كل ما ذكرته من سير الشرقيين قدماً في حالاتهم، أنهم ما سلكوا

---

(١) كان مدحت في منصب الصدر الأعظم، ثم عين والياً على بغداد ثم على سورية، في أواخر السبعينات من القرن الماضي، بعد ذلك أعفي من منصبه واستدعي إلى الأستانة. وإثر الإعفاء، اتهم مدحت بمحاولة قتل السلطان عبد العزيز، فحوكم وحكم عليه بالإعدام.

(٢) إسماعيل باشا كان خديو مصر، في أوائل الربع الأخير من القرن الماضي. وقد اشتهر أثناء بناء الأوبرا المصرية، حيث دعا ملوك أوروبا وأمراءها إلى حفل الافتتاح، وأنفق في سبيل ذلك مبالغ باهظة.

في سياستهم الرشد والهدى، وما استفادوا من عقولهم شيئًا، ولا تدبروا في عواقب أفعالهم ونتائج أعمالهم، ولا نظروا بنور البصيرة في حالهم ومآلهم. بل تاهوا جهلاً منهم بمنافعهم في بيداء الغواية. وصاروا عميا عن غاية مسيرهم في تيه الضلالة. حتى خربوا بأيديهم ديارهم، وأبادوا بسوء تصرفهم بلادهم.. ومكنوا الأجانب بمساعيهم الفاسدة من رقابهم.. وكان الواجب على أحفادهم الذين احترقوا بنارهم، وتدنسوا بعارهم، أن يعتبروا بالمصائب التي جلبتها إليهم غفلات أسلافهم.. وأن يتقوا البليات التي قادتها الغباوة إلى آبائهم.. وأن يسعوا في جمع الكلمة.. وأن يتحذروا من الشتات والتفرقة.. ويجتنبوا الأغراض الشخصية.. ويعرضوا عن دواعي الخطرات الوهمية.. ويتنحوا عن مضال الاستبداد والاستئثار. ولكن تراهم، لسبات عقولهم، يقتفون آثارهم، ويتبعون أغلاطهم، معرضين عن العقل وإرشاده، جاحدين للحق وآياته، ارتفعت عنهم الأمانة.. وفشت بينهم الخيانة.. وانقطعت بينهم عرى الوداد.. وانحلت عقدة الجنسية. كل ينظر إلى نفسه ويسعى لنفعة شخصه، جهلا منه أن سعادته منبثة في جميع آحاد الأمة.. ولا يمكنه أن يفوز بها إلا بسعادة الكل. ولذلك قد صاروا، بعد العبودية، فقراء لا يملكون شيئًا.. حائرين في معاشهم.. ضالين عن رشدهم في مبدئهم ومعادهم. وكاد أن يقضي عليهم بذل أبدي، وموت دائمي، بتلاشي جنسيتهم وتناثر جمعيتهم. ومع كل هذا، ما فاتهم أوان التدارك، ولا ضاق عليهم زمان، ولا سدت عليهم الأبواب، ولا انقطعت دونهم الأسباب، ولكن قد تمكن منهم القنوط، وغلب عليهم اليأس، وفترت هممهم، وضعفت عزائمهم، واستكت (بمعنى أغلقت) آذانهم عن استماع النصائح، وعميت أبصارهم من رؤية الحق، وقست قلوبهم عن الإذعان له. فتراهم، امتدادًا في غيهم، يريقون دماء هداتهم.. ويتبعون المرء غواتهم. فلا حول ولا قوة إلا بالله.

عن جريدة «أبو نظارة زرقا»

العدد الثاني ـ ٩ شباط ـ فبراير ١٨٨٣ باريس

السيد جمال الدين الحسيني الافغاني

١٨

العُجب

العُجب

إن العجب يدعو الناس إلى الكبر، والكبر يصير سببًا للنظر إلى سائر الناس بالحقارة ويعمل أفعالاً غير مطبوعة. والعجب من خواص (ال) نفوس الصغيرة. ومن لوازم عقول ضاق دائرة إدراكها. لأن من يكون إدراكه واسعًا وأفكاره عالية يعلم أن مراتب الإنسان في كل مزية من المزايا معنوية كانت أو صورية، غير متناهية. ولما انكشف هذا الأمر على أحد في كل مرتبة كان لما ينظر إلى ما فوقه لم يحصل له إلا القصور والاعتراف على انفعاله. إن الإنسان لم يكن لعلمه اعتمادا ولا لقوته نهاية ولا لغنائه وثروته غاية، ثم إن يكن أحد بقي معجلاً بنفسه لتسيل (لتصل) إلى بعض من المراتب لم يكن سببه إلا عما به شيئًا وعمشه لأنه يزعم أن عقله فوق جميع العقول فلهذا يفوق نفسه على غيره. وضعف مزاجه وانحطاط نفسه يصير سببًا إلى نيله ببعض من المزايا الإنسانية ويحصل له النشوان (النشوة) والسكر بحيث يفعل أعمالاً غير مستحسنة ويحقر ويوهن سائر الناس ما دام بمقام هذا العجب والكبر. وما يحصل للإنسان بسببه المضرة أن أول مضرته أنه يمنع الإنسان من وصوله إلى مدارج كمالات غير متناهية ويزر النفوس والعقول من طلب المعالي. ومتى يوجد في الإنسان هذين (هاتان) الخصلتان يجبره على الوقوف. ومضرة أخرى أنه يدعو جميع الناس لى على العداوة و(غير مفهوم) يقطع سلسلة (غير مفهوم) هي أسالى حياته. وهو بواسطة هذه السجية الدنيا في زاوية الوحشة والوهشة مغلول اليدين يحبس. والعجب أننا نرى في بلدنا كثيراً من الناس من التكبر لا يمكنهم القيام في عالم ويمن (يمنون) من الفجر والعظمة على السماء والأرض. ومع هذا لا يوجد فيهم مزية داعي (تدعو) إلى هذه الخلة.

ألا تنظر إلى هؤلاء الجالسين في الكروان واضعين رجلهم على رجلهم

يتجاوزون من الأزقة والسوق. وألا تنظر إلى الذين يركبون على الفرس ووضعوا قلنسوتهم على رأسهم عوجًا وينظرون متبكرًا (متكبرين) في حين العبور على اليمين واليسار. لأي سبب يفعلون هذا هل فتحوا مملكة وهل اخترعوا أمرًا بديعًا وهل أوجدوا علمًا جديدًا؟!

وهل كشف سرا من الأسرار سبحان الله؟! هل هو مارشال ملك وهل هو (كروكرام) أم هل هو كريبالدى أم بسمارك أم هل هو (بال ملستان) أم هو عرز كف أونيطى أم هو كفلرا والجليلو (غاليله) أم لايل اخترع سلك البرق أو أنشأ السكة الحديد يده؟ هذا العجب وهذا التكبر الذى لا أصل له، وإن كان للإنسان شعورًا أو كان له غيرة بثوب (يذوب) في الخجلة وأما يخفي نفسه في زاوية حتى لا يعرفه غيره وهذه السجية السيئة توجد قليلاً إلا في الشرق.

* * *

١٩

نبذة من مناظرة خيالية

نبذة من مناظرة خيالية

إنكم قد ضللتم عن رشدكم، وتهتم في بيداء غوايتكم، وما يقوم لكم دليل في تقاعسكم عن الذود عن أوطانكم، ولقد غلب عليكم الجبن، واستولى عليكم الضعف، وأضعف جنانكم الخوف والخشية، ألا ترون أن كل أمر صعب عند الشروع فيه؟ أفلا تشعرون أن صعوبة المسالك بمقدار عظم المقاصد؟ وأن الراحة محفوفة بالمشاق، وأن أفضل الأعمال أحمزها؟ أفترضون بالعبودية للأجانب، والاستكانة للأباعد، وإن موت المرء خير من بقائه في هذه الدنيا مع قلة مدتها وسرعة زوالها، رقا لا يملك من الأمر شيئًا؟ أتظنون أن هذا التعلل يدفع عنكم غضب رب الجنود؟ لا وحقه. إنكم إن لم تدافعوا عن أوطانكم بنفوسكم وأموالكم لا تنالون منزلة لديه، ولا تجدون مخلصا من سخطه، وتبقون في ذل العبودية ما دامت الأرض باقية، وكل عذاب دونه لحقير، فتشجعوا وثبتوا أقدامكم، وسكنوا روعكم، واعلموا أن الظفر مقرون بالصبر، وأيقنوا أن الراحة والسعادة في أثر المشقة، وأن سنة الله قد جرت من الأزل، أن لا ينال الإنسان مرغوبه إلا بعد التعب، فلا تقدموا هذه الحجج الداحضة، ولا تظهروا الفشل في طلب حقوقكم، ولا تتسربلوا بالجبن فإن كل جبان محروم، فاسعوا في اتفاق كلمتكم، واجعلوا صدوركم مجنا لسهام أعدائكم، مجدين في خلاص بلادكم، واعلموا أن الأمم الغابرة والحاضرة ما نكست رقابها، ولا كسرت أطواق العبودية، إلا بتحمل المشاق والخوض في غمرات الموت.

٢٠

الرد على رينان

الرد على رينان [١]

يندر أن نجد مقالة لا تتعدى كلماتها الألفين وخمسمائة كلمة حققت الشهرة الواسعة واللغط الشديد مثل مقالة جمال الدين الأفغاني التي حملت عنوان: «الرد على رينان» والمنشورة بالفرنسية على أعمدة جريدة «جورنال دي ديبا» في الثامن عشر من أيار عام ١٨٨٣ م.

إن هذه المقالة ـ الرد ـ أثارت، ولا تزال تثير بعد مرور ما يناهز القرن على نشرها، جدلاً ولغطًا كبيرين في أوساط المثقفين العرب والمسلمين، ولعل ما ضاعف من الجدل واللغط أن الأصل العربي للنص اختفى منذ أن دخل إلى مكاتب الـ «جورنال دي ديبا»، ولا تزال ترجمته الفرنسية (التي جاءت مشوهة ومحرفة في كثير من المواقع حسب بعض الباحثين المعاصرين) هي النص المعتمد من قبل الكثيرين، وبل من قبل الجميع، حيث إن الحكم على آراء الأفغاني وأفكاره يتم من خلالها.

إن «الرد على رينان» الذي كتبه الأفغاني بالعربية حيث إنه لم يتقن الفرنسية (وقد نشر في الصحيفة الفرنسية بنفس العنوان Répose á Renan) جاء في ترجمته الفرنسية، وكأن كاتبه يؤيد أرنست رينان في تلك الآراء والمواقف التي ضمنها محاضرته في السوربون وتمحورت حول علاقة الدين الإسلامي والمسلمين بالعلوم والفلسفة. وإذا كنا ندرك جميعًا أن معنى الرد، أي رد، إنما ينطوي على موقف سلبي ومضاد تجاه رأي أو قضية مطروحة.. فكيف صار رد الأفغاني، في نصه الفرنسي، متوافقًا مع محاضرة أرنست رينان في العديد من وجهات النظر! ثم لماذا ضاع النص العربي للرد وهو القول الفصل في هذه المسألة؟ ولماذا لم يسمح

---

(١) هذه الدراسة والمقدمة، للأستاذ سمير أبو حمدان، وترجمة النص ـ للرد ـ هي للدكتور على شلش. (خ).

للأفغاني، وربما بإيحاء من الحكومة الفرنسية، بكتابة مقال آخر في الـ «جورنال دي ديبا» بعدما بلغه أن أقواله في الرد على رينان قد شوهت؟ وأخيراً لماذا قطع جمال الدين علاقته بالجريدة المذكورة وراح ينشر مقالاته في صحيفة فرنسية أخرى هي الـ«إنتر أنزيجان»؟

الظروف المحيطة بالرد

هذه الأسئلة تقودنا إلى معرفة الظروف والمعطيات التي تحيط برد الأفغاني وكذلك بمحاضرة رينان؛ إذ إن معرفة هذه الظروف والمعطيات ربما أفضت بنا إلى معرفة حقيقة الرد ومضمونه الصحيح وهما شيئان يتناقضان مع ما كتب عنهما حتى الآن.

سوف ننطلق، هنا، من البداية وتحديداً من المرحلة الهندية الثانية في حياة الأفغاني وهي التي تمتد من عام ١٨٧٩ وإلى عام ١٨٨٢م. ففي هذه المرحلة، وقد كانت منفى اضطراريًا، قضى الرجل أيامه متنقلاً من مدينة هندية إلى أخرى هاديًا ومرشداً المسلمين إلى حقيقة الدين الإسلامي. ويصف بعض الباحثين هذه المرحلة بأنها من أخصب مراحل حياته حيث صرف معظم أوقاته في الكتابة والخطابة والنقاش. وبالرغم من ذلك فإن الأفغاني في هذه المرحلة آلمه شيئان: رقابة الإنجليز له، والشعور العميق بالغربة. ومن أجل ذلك قرر الخروج من الهند بعد أن سمح له الإنجليز بذلك وتوجه إلى باريس. وقد اختار العاصمة الفرنسية مقرا جديداً له لأسباب عدة بينها الخلاف الذي كان ناشبًا وقتذاك بين لندن وباريس حول سياسة كل منهما في الشرق، وبينها ابتعاد باريس من سلطة الأتراك وتدخلاتهم عكس ما هو حاصل في لندن، وبينها أيضًا أن باريس كانت في ذلك الوقت تحتضن عدداً من زملاء الأفغاني المناهضين للسياسة البريطانية مثل يعقوب صنوع (١٨٣٩ ـ ١٩١٢م) وخليل غانم (١٨٤٦ ـ ١٩٠٣م)، وهذا الأخير عرف بعدائه غير المحدود للعثمانيين «وكان الأفغاني قد عرف صنوع في القاهرة، وربما عرف خليل غانم في الأستانة أو القاهرة. وكان صنوع قد غادر مصر غير مرغوب فيه عام ١٨٧٨م. وأعاد في

باريس إصدار صحيفته «أبو نظارة». وكان الآخر عمل مترجمًا في بيروت ودمشق والأستانة ثم اختير نائبًا عن سورية في أول برلمان عثماني عام ١٨٧٦م. فلما ألغى السلطان عبد الحميد البرلمان بعد قليل، هرب غانم، بعد مطاردته إلى مصر، حيث أصدر أول كتاب في العربية عن الاقتصاد السياسي عام ١٨٧٩م. ولكن سرعان ما شد رحاله إلى باريس حيث أقام وتجنس بالجنسية الفرنسية، وأصدر صحيفة «البصير» عام ١٨٨١م بتشجيع الحكومة الفرنسية ودعمها. ولما توقفت هذه الصحيفة المعادية للعثمانيين والإنجليز عام ١٨٨٣م، ساهم غانم في بعض الصحف الفرنسية الأخرى وأهمها «جورنال دي ديبا» (Journal des débats) أي «صحيفة المناظرات» التي نشرت رد الأفغاني على رينان»[١].

وثمة من يرجح من الذين ترجموا لحياة الأفغاني أنه كان على اتصال مستمر مع هذين الرجلين، خلال وجوده في الهند، وقد أقنعهما بتسهيل وصوله إلى باريس والاستحصال له على تأشيرة دخول وذلك لأجل متابعة حملته، وبالتعاون معهما، على الإنجليز والعثمانيين. هذا شيء، أما الشيء الآخر الذي كان وراء طموحه للاستقرار في باريس فهو أن العاصمة الفرنسية كانت على صلة بأهل الشرق عمومًا والشرق العربي الإسلامي على وجه الخصوص. وقد وجه الأفغاني، وهو في طريقه إلى باريس، رسالة إلى رئيس وزراء مصر مصطفى باشا يتضح لنا فيها مقدار المعاناة التي كان ينوء تحتها الأفغاني. ومما جاء في الرسالة: «.. فلما رأيت أن المصائب كل يوم تكشر عليَّ عن أنيابها، وأن البلايا تفتح كل ساعة بابها، تفكرت بالرزايا التي جلبتها علي الغباوة والقسوة وترويت في أمري، وعلمت أني لو أذهب إلى بلدي وفي العين قذى، وفي الحلق شجى، وفي الكبد أوار، وفي القلب نار، مما أصابني، لا أجد بين أهله (..) من إذا قصصت قصتي وكشفت عن عمتي يئن علي ويتوجع لي ويأسف على مصابي (..) فعزمت أن أذهب، وإن كنت صفر اليدين خالي الراحتين، إلى بلاد فيها عقول صافية وآذان واعية وقلوب شفيقة وأفئدة رفيقة، حتى أقص عليهم ما يجري على ابن آدم في الشرق، وأخمد النار

---

(١) الأزمنة، المجلد الأول، العدد ٦، دراسة بعنوان «جمال الدين الأفغاني في رده على أرنست رينان»، علي شلش، أيلول (سبتمبر) / تشرين الأول (أكتوبر)، ١٩٨٧م، ص ٥٠.

الملتهبة في قلبي من هذه البلايا، وأضع حمل هذه الهموم التي أنقضت ظهري. وهذا هو سبب ذهابي إلى بلاد الإفرنج»[١].

تاريخ هذه الرسالة هو كانون الأول ١٨٨٢م. وقد كتبها على متن السفينة التي أقلته إلى باريس لدى رسوها في ميناء القاهرة، وقد سلمها باليد إلي أحد تلاميذه المصريين الذي عرف بقدوم الأفغاني على متن سفينة قادمة من الهند وجاء لتحيته. وطلب الأفغاني من تلميذه أن يبلغها سرا إلى مصطفى باشا. وأبحرت السفينة إلى لندن حيث مكث الأفغاني فترة تمكن في خلالها أن يستحصل على تأشيرة دخول إلى باريس التي بلغها في حدود العاشر من كانون الثاني ١٨٨٣م. وكان أول المرحبين به يعقوب صنوع الذي استضافه في منزله لأيام عدة وقال في جريدته «أبو نظارة» وهو يزف خبر قدوم الأفغاني، (وذلك في التاسع عشر من كانون الثاني ١٨٨٣م): «أيها الإخوة، وصل إلى باريس جمال الدين والعلم، معلمنا وأستاذنا الأفغاني». أما ثاني المرحبين فكان خليل غانم الذي نشر في جريدته «البصير» (٢٥ كانون الثاني ١٨٨٣م) خبر قدوم الأفغاني على النحو التالي: «قدم باريس في الأسبوع الماضي حضرة العلامة العامل والفيلسوف الكامل السيد جمال الدين الأفغاني الذي طار صيته في الآفاق، فعرفه القاصي والداني وشهرة اسمه تغنيان عن وصف علمه. ولكنا نقول إن بمثله يحق للشرق أن يتيه افتخاراً وينافس الغرب علمًا وجهارًا. كان حرس الله كماله في الهند يجوب بلدانها ويستطلع أحوال أهلها ويلاحظ عاداتهم ويدرس تاريخهم ويجتلي معارفهم». ويضيف الخبر: «ثم خرج منها قاصدًا لوندرة (لندن) لزيارة بعض أصدقائه فيها. وبعد أن أقام بها أيامًا قليلة، أتى إلى باريس على جناح اليمن والإقبال، والمظنون أنه يبقى فيها مدة غير قصيرة».

ولم يقتصر الترحيب بالأفغاني على هاتين الصحيفتين العربيتين وإنما شمل أيضًا الصحف الفرنسية، فقد رحبت به صحيفة اليسار الفرنسي في ذلك الوقت الـ«الإنترأنزيجان» (L'intrnsigeant) واصفة إياه بأنه أحد «أشهر شخصيات

(١) راجع في هذا المجال، بالفارسية: «إسناد ومدارك چاپ نشده درباره سيد جمال الدين» مطبوعات جامعة طهران، ١٩٦٣م، ص ٣٧. وقد حقق هذه الرسالة إلى مصطفى باشا، علي شلش ونشرها في كتابه «الأفغاني وتلاميذه»، المركز العربي للإعلام والنشر، القاهرة، ١٩٨٧م، ص ٢٩ـ٥١. ونشرناه في هذه المجموعة «الآثار الكاملة» قسم الوثائق الخاصة بالسيد.

الشرق». كما لصحيفة يسارية أخرى كلمة في قدومه. فقد تحدثت عنه «لاجستيس» (La Justice) واصفة إياه بالشيخ الورع المتزهد الذي يقطن شقة متواضعة في شارع دوسيز ويشغل نفسه بتعلم الفرنسية[١].

إن الأشهر الأولى من وجوده في باريس صرفها جمال الدين في الكتابة والاطلاع على تاريخ فرنسا والغرب وصب اهتمامًا خاصا على إتقان الفرنسية من أجل تأهيل نفسه، مثلما فعل في مصر والهند والأستانة من قبل، على الانخراط في الوسط الثقافي الفرنسي. وفي كل ذلك كان صديقاه يعقوب صنوع وخليل غانم خير معينين له، بالإضافة إلى صديق آخر هو أرنست فوكيلان الذي تعرف إليه الأفغاني في مصر وقد عاد فوكيلان إلى موطنه باريس بعد فشل الثورة العرابية وسيطرة الإنجليز على مصر.

ومما يذكر أن خليل غانم صاحب جريدة «البصير» أسهم بشكل فعال في تعريف الأفغاني إلى عدد من الشخصيات الثقافية والإعلامية الفرنسية. فقد عرفه إلى المستشرق ديولافوا وإلى المؤرخ أرنست رينان الذي كانت بينه وبين الأفغاني، فيما بعد، مناظرة غاية في الأهمية على صفحات الـ «جورنال دي ديبا».

وقد تعرف الأفغاني في باريس أيضًا إلى الشاعر الفرنسي الشهير ڤيكتور هوغو. وتم هذا التعارف من طريق صديق مشترك هو الصحافي جان مير. كما عرفه صديقه الفرنسي فوكيلان إلى روشفور مسئول التحرير في جريدة الـ «الإنترأنزيجان». أما جورج كليمنصو الذي أصبح فيما بعد رئيسًا لوزراء فرنسا، وقد نشأت بينه وبين الأفغاني علاقة من الود والاحترام، فلا نعرف حتى الآن من قدم الأفغاني إليه، والجدير بالذكر أن كليمنصو كان مديرًا لتحرير «لاجستيس». وقد «كانت لقاءات الأفغاني بهؤلاء مؤثرة إلى حد بعيد وتركت انطباعات قوية لدى بعضهم، مثل روشفور ورينان، وجعلت روشفور وكليمنصو يستكتبانه في صحيفتيهما»[٢].

---

(١) على شلش، استنادًا إلى:
Homa Pakdaman, Djamal ed-Din Assad Abadi, Paris, Maisonneuve et Larose, 1969, pp. 77 - 78.

(٢) المصدر السابق، ص ٧٩-٨٠.

وعلى الرغم من أن جمال الدين كتب العديد من المقالات الهامة في الصحف العربية «أبو نظارة» و«البصير» والفرنسية (لاجستيس وإنترأنزيجان)، غير أن مقالته الأهم والتي تحققت شهرته الباريسية على أساسها فهي التي تمثلت في رده على محاضرة رينان.. فما هي هذه المحاضرة؟ وما هو هذا الرد؟

محاضرة رينـــان

يذهب بعض المؤرخين للفكر الفرنسي في القرن التاسع عشر إلى أن أرنست رينان (١٨٢٣ ـ ١٨٩٢م) واحد من أهم كتاب عصره. فهو أكثرهم إثارة وقد كان ميالاً لخوض المعارك الفلسفية والفكرية مع عدد من المثقفين والكتاب الفرنسيين. وإذ بدأ حياته الفكرية بدراسة اللاهوت، تحول فيما بعد من اللاهوت إلى الفلسفة، وتحديداً عندما أدرك أن المسيحية لا تستطيع أن تلبي طموحاته، كما أن اللاهوت ليس بإمكانه استيعاب طاقته المتفجرة. وقد خرجت من بين يدي رينان ثلاثة من الكتب الهامة التي عرفتها الحياة الثقافية الفرنسية في القرن التاسع عشر، وهي: «تاريخ أصول المسيحية» وهو يقع في سبعة أجزاء و«تاريخ بني إسرائيل» و«ابن رشد ومذهبه».

وقد صرف رينان حيزاً مهما من دراساته للبحث في طبيعة العلاقة بين الدين والعلم. فكان لقاؤه بالأفغاني الذي يصفه رينان بـ «الملحوظ الذكاء» و«الآسيوي المستنير»، فرصة لمناقشته في أمر محدد وهو علاقة الإسلام بالعلم. وكانت هذه العلاقة محور المحاضرة التي ألقاها رينان في السوربون في التاسع والعشرين من آذار ١٨٨٣م.

وحتى الآن لا أحد يعرف متى تم اللقاء بين الأفغاني ورينان على وجه التحديد. فلا الأفغاني تحدث عنه ولا رينان حسم لنا زمان ومكان اللقاء، بل إن الأخير يخبرنا بأنه تم على يد صديقهما المشترك خليل غانم، وأن جمال الدين، مثلما يدعي رينان، هو من أوعز إليه بإلقاء محاضرة في السوربون يكون محورها الإسلام والعلم.

وأقصى ما نستطيع قوله عن تاريخ هذا اللقاء إنه تم في بداية أو منتصف شهر آذار من عام ١٨٨٣ م وهو الشهر الذي ألقى فيه رينان محاضرته الشهيرة.

ويبدو أن شخصية الأفغاني أحدثت تأثيراً كبيراً في نفس رينان حيث تخيله واحداً من (الملاحدة الكبار)! وأنه ابن سينا أو ابن رشد وقد بعث حيا من جديد! يقول رينان: «قليلون هم الذين تركوا في نفسي انطباعًا أقوى مما تركه هو. وقد ساقني حديثي معه إلى اتخاذ قرار باختيار الصلة بين الروح العلمية والإسلام موضوعًا لمحاضرتي في السوربون. فالشيخ جمال الدين الأفغاني متحرر، إلى أبعد درجة، من «الأهواء» الإسلامية (!!) وينتمي إلى تلك الأجناس الإيرانية (!) النشطة التي تعيش قرب الهند حيث ما تزال الروح الآرية[1] متقدة تحت القشرة المصطنعة للإسلام الرسمي، وهو يشكل أفضل برهان على صحة البدهية العظيمة التي طالما نادينا بها وهي أن الأديان تقيم بالأجناس التي تعتنقها. وقد جعلني تحرر تفكيره وشخصيته النبيلة الوفية أتمثله، وأنا أتحدث إليه، واحداً من معارفي القدامى وقد عادت إليه الحياة مثل ابن سينا أو ابن رشد أو سواهما من أولئك الملاحدة[2] الكبار الذين قاموا بتمثيل تقاليد العقل البشري على مدى خمسة قرون. ويالها من مفارقة شديدة حين رحت أقارن بين ظهوره المثير هذا وما يدور في البلاد الإسلامية الواقعة على ذلك الجانب من بلاد فارس، حيث يندر وجود الفضول العلمي والفلسفي (!). فالشيخ جمال الدين إنما يشكل أبلغ حالات الاحتجاج العرقي - التي يمكن التنويه بها - على الفتوحات القائمة على الدين».

* * *

(١) هذه العبارة تشير، وبما لا يرقى إليه الشك، إلى اتجاه عرقي عند رينان للتمييز بين الأجناس، وتفضيل جنس على آخر حيث يحط هنا من شأن الجنس السامي مقابل إعلاء الجنس الآري.

(٢) لا نعرف بالتحديد ماذا عنى رينان بكلمة ملاحدة، فلا ابن سينا ولا ابن رشد في القرون البعيدة ولا الأفغاني في العصر الحديث أدلوا برأي أو بموقف فكري قد نستشف منه دليلاً على الإلحاد. والأرجح أن رينان يقصد بالملحدين الفلاسفة. والكلمة هنا تحمل معنى مجازيا. وقد انطلق رينان من مقولة إن الفلسفة تتعارض في كثير من المواقف مع الدين. وهو في هذا تحديداً ينطلق من تجربة الفلسفة الأوروبية التي لاقت الأمرين على يد الكنيسة.

على أي حال فنحن نعمل هنا على تسليط الضوء مرة أخرى على ما قاله رينان في محاضرته. لقد ألقيت المحاضرة، مثلما نوهنا قبل قليل، على منبر السوربون في التاسع والعشرين من آذار ١٨٨٣م، وفي ذات اليوم نشرت في صحيفة الـ «جورنال دي ديبا».

يدشن رينان محاضرته بالكلام على أحوال الأقطار الإسلامية فيلاحظ أنها تعيش في العصر الحديث خواء فكريا وثقافيا. وهذا عائد إلى الحكم الإسلامي في هذه الأقطار. فالمسلمون مقتنعون، منذ الصغر، بأنهم مكتفون ذاتيا من ناحية العلوم والمعارف «حتى أن الطفل المسلم ينشأ على التعصب معتقداً أنه وصل إلى الحقيقة المطلقة سعيدا بذلك كأن نقصه وتخلفه امتياز يرتجى، وهذا الغرور الجنوني هو العيب الجوهري للمسلم. فالبساطة الظاهرة في دينه توحي إليه باحتقار الأديان الأخرى، وبذلك يحتقر الثقافة والعلم وكل ما يتعلق بأوروبا»[١].

ويطرح رينان تساؤلاً في وجه الذين كانوا يصيخون السمع إليه فيقول: هل هناك ما يمكن أن نطلق عليه علمًا إسلاميا، وإلى أي مدى يمكن أن يسمح الإسلام بهذا العلم ويتسامح معه؟ وإذا عمل على الإجابة عن تساؤله عاد إلى التاريخ الإسلامي ليقر بأن بلاد المسلمين لم تخل يومًا من أبرز العلماء والفلاسفة. وقد حدد تاريخًا يقع بين القرن الثامن والثالث عشر إذ في هذه الفترة الواقعة بين هذين التاريخين شهد العالم الإسلامي نهضة علمية وفكرية متقدمة، كما أن العالم الإسلامي، في تلك الفترة، تفوق حضاريا على العالم المسيحي. بل إن العالم الإسلامي، إبان تلك الفترة، لم يكن في سائر أرجاء المعمورة ما يناظره ويماثله في نهضته الفلسفية والعلمية.

غير أن هذه النهضة العلمية والفلسفية، كما يلاحظ رينان، سرعان ما ذهبت أدراج الرياح، فأصبحت كلمة فلسفة ترادف كلمة زندقة، وأن لقب فيلسوف يعرض صاحبه للملاحقة والاضطهاد. ولم يبق هذا السقوط الحضاري منحصراً في

(١) جمال الدين الأفغاني في رده على أرنست رينان، الأزمنة، مصدر مذكور سابقًا، وذلك نقلاً عن نص المحاضرة التي نشرتها الـ «جورنال دي ديبا» في كراس خاص من ٢٤ صفحة بعنوان:

L'islamisme et la Science, Paris, C. Levy, 1883.

الشرق الإسلامي بل تعداه إلى الأندلس حيث أصيبت نهضتها المماثلة بالسقوط والاندثار.

ولكن رينان ينصف العرب المسلمين قليلاً إذ يعقب على هذا السقوط الحضاري بالقول: «ومع ذلك ما كانت أوروبا لتعرف شيئًا عن العلم والفلسفة عند الإغريق لولا الترجمات العربية. وما كان الغرب ليعرف شيئًا عن اليونان لولا ابن رشد الذي مات حزينًا مهجورًا في الغرب»(١).

ولفت رينان نظر المستمعين إلى محاضرته إلى أن الفلسفة لاقت الاضطهاد في البلدان التي تدين بدين الإسلام إلى درجة أنه تم منعها في العام ١٢٠٠م. وسرعان ما برز الأتراك على المسرح حيث طمسوا كل ما يتعلق بالفلسفة والعلم.

وهنا يصل رينان إلى طرح سؤال آخر، وهو إن دل على شيء فإنما يدل على أن هذا الرجل كان يضمر موقفًا مسبقًا، سلبيا في جوهره ومضمونه، إزاء العرب وحضارتهم. فهو يتساءل: «هل العلم العربي، عربي بالفعل؟».

والجواب الذي قدمه رينان ينطوي على كثير من المغالطات، إذ إنه يقول في الشق الأول من جوابه بأن الفتوحات الإسلامية فرضت (!) اللغة العربية على البلدان المفتوحة. أما الشق الثاني من الجواب فينكر فيه على فلاسفة من مثل ابن رشد وابن سينا أن يكونوا عربًا، وذلك على الرغم من أنهم كتبوا بلغة العرب. وعلى هذا فإن اللغة التي يستخدمها الفيلسوف أو العالم في كتاباته لا تكفي لنسبته إلى جنسية معينة. فأساس هذه النسبة هي الجنس والموطن الأصلي ويذهب رينان إلى اعتبار الكندي هو الوحيد الذي يمكن أن نطلق عليه لقب «الفيلسوف العربي» على حين أن ما تبقى من أولئك الفلاسفة المنسوبين، خطأ، إلى العرب، إما من فارس أو من آسيا الوسطى أو من إسبانيا «وهؤلاء لم يكونوا عربًا في دمهم ولا كانوا عربًا في روحهم، بل إن اللغة العربية لم تصلح للميتافيزيقيا، وكان فلاسفة العرب عمومًا، كتابًا غير لامعي الأسلوب في العربية»(٢).

---

(١) المصدر السابق، ص ٥٣.

(٢) المصدر السابق، ص ٥٣.

وانطلاقًا من موقفه المسبق إزاء العرب والمسلمين يتساءل ما إذا كان هذا العلم إسلاميا بعد أن (أكد) على عدم عروبته (ولكن دون أن يقنع أحداً وحتى من الفرنسيين أنفسهم كما سنرى بعد حين). وجواب رينان، في هذا الإطار، يمكن أن نلخصه على الوجه التالي: فالإسلام، بما هو روحي وزمني، فرض سلطته على العلوم والفلسفة، وكانت الاثنتان مضطهدتين في ظله. لكنه يميز بين فترتين في تاريخ الإسلام: تمتد الأولى منذ ظهور الدعوة الإسلامية وحتى نهاية القرن الثاني عشر الميلادي. وقد شهدت هذه الفترة ازدهاراً على صعيد الفلسفة والعلوم والمعارف الأخرى. لكن هذا الازدهار جاء على يد الفرق والشيع المختلفة، وأيضًا على يد المعتزلة الذين كانوا يمثلون في ذلك الوقت نزعة إصلاحية (بروتستنتية).

أما الفترة الثانية فتمتد من بداية القرن الثالث عشر حتى الوقت الحاضر (أي منتصف القرن التاسع عشر) حيث ساد الحكم المطلق للإسلام فطمس ما عداه انطلاقًا من أنه يمثل في المجتمعات التي دانت به كلاّ من السلطتين الروحية والزمنية. وهذه الفقرة من حديثه يختمها رينان بالقول: «... وحكم العقيدة الجامدة (!) هو أثقل قيد عرفته البشرية»[1].

ولعل هذا التمييز الذي لاحظه رينان في تاريخ الإسلام حيث انتصفه إلى نصفين، نصف مؤيد للعلوم والفلسفة ونصف آخر مضطهد لهما، إن هذا التمييز لجهة التاريخ يتبعه بتمييز آخر يتعلق بالإسلام نَفسه. فالإسلاَم إبان عصوره الأولى كان ضعيفًا وغير متماسك، ومن أجل ذلك فقد أبدى تسامحًا إزاء المعارف المختلفة ومن بينها العلم والفلسفة. هذا ما كان في العصور الوسطى وما قبلها. أما عندما أشتد ساعده وأصبح متماسكًا في بنيته وفي دولته، فقد لجأ إلى اضطهاد هذه المعارف والحد من نشاطها.

* * *

هذا موجز ما قاله رينان في محاضرته، بل أهم ما قاله. ولعل نظرة ممعنة في مضمون هذه المحاضرة تجعلنا وجهًا لوجه مع عدد من الحقائق. أولى هذه الحقائق

(١) المصدر السابق، ص ٥٣.

أن أرنست رينان يعتبر رمزاً لتيار فكري انتشر في فرنسا والغرب إبان القرن الماضي. أما مضمون هذا التيار فهو التمييز بين الأمم والشعوب على أساس عرقي. وهذا ما يبدو واضحًا في تمييزه بين الفرس (الآريين) القادرين على أن ينهضوا بأمور العلم والفلسفة، وبين العرب (الساميين) الذين لم يمن عليهم الله بهذه النعمة!

ثاني هذه الحقائق أن رينان يطلق لقب الملاحدة على أناس لا ينطبق عليهم في أي حال من الأحوال. وعلى الرغم من المعنى المجازي لهذه الكلمة فإن أرنست رينان تسرع كثيراً في استخدامها لأنها تشير إلى أناس يحملون أفكاراً تتناقض مع الدين، الأمر الذي لا ينطبق لا على ابن رشد ولا على ابن سينا أو الأفغاني. وهذا دليل، من بين أدلة أخرى، على أن رينان غير مطلع بما فيه الكفاية على الفكر الفلسفي لكل من هؤلاء، علمًا أن هؤلاء الثلاثة انطلقوا في عملية التفلسف من الخلفية التي أمنها لهم الدين الإسلامي. ولا بد أن نذكر في هذا المجال المجهود الفذ الذي بذله ابن رشد للتوفيق فيما بين الدين والفلسفة والبرهنة على عدم تعارضهما، وذلك في دراسته الشهيرة بعنوان: «فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من اتصال»[1]. ولعلنا لا نغلو في القول إن التيار الذي أسس له ابن رشد، وهو تيار التوفيق بين الدين والفلسفة أو بين الحكمة والشريعة، لا يزال مفعوله سارياً إلى الآن في بعض الأدبيات الفلسفية المعاصرة.

ثالث هذه الحقائق أن اضطهاد الفلسفة والعلم في البقعة العربية الإسلامية لم يأت نتيجة علة في الإسلام نفسه، مثلما صورها لنا أرنست رينان (وهو ينطلق هنا من رأي جاهز ومسبق ومعاد لأي دين بوصفه خصمًا ومنكلاً بالفلسفة، وذلك انطلاقًا مما حل بالفلسفة الأوروبية على يد الكنيسة) وإنما في السلطة السياسية، في فترات تاريخية معينة، وهي التي نكلت بالفلسفة والعلم حفاظًا على مصالحها لا على مصالح الإسلام. وهنا لا بد من روية خلل آخر في محاضرة رينان. فهو لم يرجع إلى النصوص الإسلامية الرسمية (من قرآن وحديث) لمعرفة ما إذا كانت تحض على العلم وحرية التفكير أم لا. بل إن رينان استسهل الأمر وبنى حديثه على

(١) راجع هذا الكتاب والدراسة المرفقة به للدكتور محمد عمارة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٨٦م، ١٠٢ صفحة.

فترات في التاريخ الإسلامي شهدت ضموراً في الخطاب العلمي والفلسفي، وعلى هذا فقد تناسى الأساسي والثابت وركز على المتغير والمتحول.

رابع هذه الحقائق أن أرنست رينان اعتبر في محاضرته أن العلم في تاريخ المسلمين لم يزدهر إلا على يد الفرق والشيع (وعلى يد النزعة البروتستنتية المتمثلة بالمعتزلة). وكأنا به يريد أن يقول بأن مثل هذه الأمور، من فلسفة ومعارف وإصلاح ديني، يعود الفضل فيها إلى تلك الفرق التي ظهرت وعاشت في كنف الإسلام. وهي، مثلما نعرف، فرق ذات جذور وخلفيات غير عربية. وهذا تأكيد مرة أخرى على نظرته العرقية وذلك في تمييزه بين العرق السامي والعرق الآري.

رد الأفغاني على رينان

على أي حال فإن الصدى الذي أحدثته محاضرة أرنست رينان عن «الإسلام والعلم» كان كبيراً جدا سواء وسط المثقفين الفرنسيين أو بين الكتاب والمثقفين العرب والمسلمين المتواجدين، آنذاك، في العاصمة الفرنسية. والحقيقة أن الأفغاني لم يعلم بأمر المحاضرة إلا بعد أيام عديدة. فقد لفت انتباهه مقال في جريدة «البصير» كتبه أحد الفرنسيين الجزائريين وفيه رد عنيف على رينان. وهذا الرد الذي يقول الأفغاني عن كاتبه بأنه «أحد أفاضل الفرنسيس الجزائريين» وقد كتبه حرصًا على المصالح الفرنسية في الجزائر، حمل جمال الدين على الرد عليه في مقال نشرته «البصير». وحمل المقال نفس العنوان الذي اختاره رينان لمحاضرته وهو «الإسلام والعلم»، وقد افتتحه بالآية القرآنية الكريمة: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ﴾ [الحشر: ٢].

قال الأفغاني في مطلع مقاله: «إن رينان الفيلسوف قد ألقى في باريس، كرسي الحرية، خطابًا (محاضرة) جعل موضوعه الإسلام والعلم، وأظهر فيه أفكاره التي ذهبت به إليها الشواهد التاريخية. وما حاد في خطابه عن سنة الأدب، وما تجاوز حدود الكمال الذي يقضي به وجوب احترام الأمم فيما تنتحله دينًا».

بعد هذه الكلمات المجاملة دخل الأفغاني صلب الموضوع مبينًا أن «عظماء الأمة الفرنسوية» ممتعضون جدا من (الخطاب) الذي ألقاه رينان في السوربون. ويبدو أن

مقالة الشخص الفرنسي الجزائري في جريدة «البصير» - وهي التي لفتت انتباهه إلى محاضرة رينان - قد أثلجت صدره إذ استطاع أن يفند هفوات رينان «وأقام الأدلة على سقطاته، وذاد عن الديانة الإسلامية، ودافع عن المسلمين، وأبان ما كانوا عليه من الدرجة الرفيعة في الآداب والفلسفة، ما دعاه إلى مقالته هذه إلا فضيلة مراعاة الأمم في أديانها وحسن السياسة».

وفي هذا المقال إلى جريدة البصير (عدد ٣ أيار ١٨٨٣م) عقد الأفغاني نوعًا من المقارنة بين الفرنسيين أصحاب السياسة الدينية المتسامحة، وبين الإنجليز الذين يتحكمون برقاب خمسين مليونًا من المسلمين وقد أفلتوا عليهم القسس البروتستانت دون أن يمكنوهم من الدفاع عن دينهم.

وإذ لم تكن لغته الفرنسية تسعفه على قراءة محاضرة رينان وفهم مصطلحاتها الفلسفية والدينية طالب جمال الدين بترجمتها. وبعد أن تحقق له ذلك واطلع على المحاضرة بنصها العربي كتب ردًا مسهبًا مفندًا فيه مزاعم رينان ومبينًا أخطاءه التاريخية والدينية، وهي أخطاء لا تعد. لكن الأقدار السوداء كانت تتربص بالأفغاني مرة أخرى. فقد أقنعه صديقه خليل غانم، مدير تحرير الـ «جورنال دي ديبا» (وكان أرنست رينان واحدًا من كتابها)، بنشر الرد في جريدته. وهكذا اضطر جمال الدين لدفعه إلى الترجمة وبيد خليل غانم نفسه. لكن النص الفرنسي للرد جاء غريبًا ومختلفًا كليا عن النص العربي، بل جاء وكأنه يؤيد - وهذا ليس من طبيعة الرد، أي رد - أقوال رينان ومزاعمه. علمًا أن النص العربي للرد اختفى في أدراج الـ «جورنال دي ديبا» ولا يزال مختفيًا إلى الآن.

وعلى هذا الأساس فنحن لا نملك اليوم سوى النص الفرنسي المنشور في الـ«جورنال دي ديبا» بتاريخ ١٨ أيار ١٨٨٣م، وهو النص الذي كان سببًا لحملة واسعة من التجني على جمال الدين الأفغاني. وقبل أن نورد عددًا من ردود الفعل على هذه المقالة / الرد، في العالم الإسلامي، وقبل أن نبين بعض مواطن الخلل فيها نرى أن نقتطف أبرز ما جاء فيها:

رد الأفغاني على رينان

«الإسلام والعلم»

سيدي،[١]

طالعت في عدد ٢٩ آذار (مارس) الماضي من جريدتكم الغراء خطابًا (محاضرة) عن الإسلام والعلم ألقاه في السوربون، على جمع من الفضلاء، أكبر فيلسوف في زماننا مسيو رينان الذائع الصيت الذي طبقت شهرته أرجاء الغرب ونفذت إلى أقصى أصقاع الشرق.

ولما كان هذا الخطاب قد أوحى إليَّ ببعض الملاحظات، فقد أجزت لنفسي أن أصوغها في هذه الرسالة التي يشرفني أن أوجهها إليكم، راجيًا التكرم بإدراجها في أعمدة جريدتكم.

لقد أراد مسيو رينان أن يجلو نقطة ظلت مغمورة حتى اليوم في تاريخ العرب، وأن يلقي ضوءًا ساطعًا على ماضيهم قد يزعج أولئك الذين يحملون إعجابًا خالصًا لهذه الأمة التي لا يمكن الزعم أنها اغتصبت ما سبق أن احتلته في العالم من مكانة ورتبة. بل إن ميسو رينان لم يسع قيد شعرة، في اعتقادنا، إلى هدم مجد العرب الذي لا يهدم، وإنما اجتهد في اكتشاف الحقيقة التاريخية والتعريف بها لمن يجهلها، وكذلك لمن يدرس أثر الأديان في تاريخ الأمم، خصوصًا ما هو متعلق بالمدنية.

---

(١) آخر ترجمة لرد الأفغاني على رينان عن الأصل الفرنسي أنجزها الدكتور علي شلش. وقد اعتمدناها هنا ظنا منا أنها الترجمة الأدق!

وأسارع فأعترف بأن مسيو رينان أبلى أروع البلاء في هذه المهمة الشاقة حين أورد بعض الحقائق التي لم يفطن لها أحد حتى اليوم. وأجد في خطابه ملاحظات رائعة ولمحات جديدة وسحراً لا يوصف. ومع ذلك فليس أمامي سوى ترجمة أمينة تقريباً لهذا الخطاب. ولو كنت أملك أن أطالعه في نصه الفرنسي، لاستطعت سبر أغوار أفكار هذا الفيلسوف الكبير على نحو أفضل. فإليه أزف تحيتي المتواضعة علامة الإجلال الذي هو أهله، وتعبيراً خالصاً عن إعجابي. وأقول له في مثل هذه الأحوال، في النهاية، ما قاله المتنبي، الشاعر الذي كان يهوى الفلسفة، في شخصية رفيعة المقام، مادحاً أعمالها قبل قرون:

خذ من ثناي عليك ما أستطيعه لا تلزمني في الثناء الواجبا[1]

لقد اشتمل خطاب مسيو رينان على نقطتين أساسيتين. فقد اجتهد الفيلسوف الأشهر في بيان أن الديانة الإسلامية معادية في جوهرها لتطور العلم، وأن الأمة العربية لا تميل بطبيعتها إلى علم ما وراء الطبيعة ولا إلى الفلسفة. ولعل مسيو رينان يريد أن يقول إن هذا الغرس النفيس قد ذوى على يدها، كأنما صوحه هبوب الريح في الصحراء. لكن المرء لا يملك، بعد مطالعة هذا الخطاب إلا أن يتساءل: هل صدرت هذه العوائق عن الديانة الإسلامية ذاتها فانفردت بها، أم عن الطريقة التي انتشرت بها في العالم؟ هل صدرت عن طابع الأمم التي اعتنقت هذه الديانة وأخلاقها واستعداداتها، أم عن الأمم التي أكرهت على اعتناقها[2]؟

لا شك أن ضيق الوقت هو الذي حال بين مسيو رينان وبين توضيح هذه النقاط. لكن الضرر هنا ليس بالكثير. وإذا كان من الصعب تحديد العلل (الأسباب) بطريقة دقيقة وبراهين لا تقبل الجدل، فمن الأصعب أيضاً الإشارة إلى الدواء.

---

(١) هذا البيت من قصيدة للمتنبي يمدح فيها علي بن منصور الحاجب، ويقول مطلعها:

بأبي الشموس الجانحات غواربا اللابسات من الحرير جلابيا

(٢) لعل هذه العبارة الواقعة في الشق الأخير من السؤال تقوم دليلاً على أن رد الأفغاني على رينان قد نشر في الفرنسية مشوهاً إذ لا يعقل أن تكون هذه العبارة قد صدرت عن مفكر من وزن الأفغاني الذي يعرف أن أحد أهم المبادئ التي انتشر الإسلام على أساسها هو أن ﴿لا أكراه في الدين﴾.

أما فيما يتعلق بالنقطة الأولى، فأقول إنه لا توجد أمة قادرة، عند نشأتها، على الأهتداء بالعقل الخالص. فالأمة التي في مثل هذا الطور تنتابها مخاوف لا تستطيع الفكاك منها، فتعجز عن تمييز الخير من الشر ومعرفة ما يكون سبب سعادتها مما قد يكون المصدر الثابت لتعاستها وشقائها، وبذلك لا تدري باختصار كيف تكشف عن العلل (الأسباب) أو تفطن إلى المعلولات (النتائج).

والوقوع في هذه الهوة يعني أنه لا يمكن إنقاذ الضحية بالإكراه أو بالإقناع، ومساعدتها على ممارسة الأعمال التي قد تفيدها أو تفادي ما يضرها. ومن ثمة كان لا بد للبشر من أن يبحثوا خارج حدودهم عن ملاذ أو ركن هادئ يهجع إليه ضميرهم المعذب. وهذا ما استوجب ظهور معلم أو أشبه لم يكن يملك ـ كما ذكرت آنفًا ـ السلطة اللازمة لإكراههم على اتباع وحي العقل، فقذفهم داخل المجهول، وفتح لهم آفاقًا شاسعة سعد بها خيالهم، ووجدوا فيها على الأقل أرضًا غير محدودة لتطلعاتهم إن لم يكونوا قد وجدوا الإشباع الكامل لرغباتهم. ولما كان البشر، عند نشأتهم، لا يدركون علل الحوادث التي تقع تحت أبصارهم، وكذلك أسرار الأمور، فقد انقادوا بحكم الظروف إلى اتباع نصح معلميهم وتنفيذ أوامرهم. وتم فرض هذه الطاعة باسم الكائن الأسمى الذي نسب إليه المعلمون جميع الحوادث دون أن يسمحوا للناس بمناقشة نفعها أو أذاها. وهذه بالنسبة للإنسان، أثقل وأذل عبودية فيما أعرف. لكني لا أستطيع إنكار أن جميع الأمم ما خرجت من حال الهمجية إلا بهذه التربية الدينية، سواء اكانت إسلامية أو مسيحية أو وثنية، وما زحفت نحو مدنية أكثر تقدمًا إلا بها.

وإذا صح أن الديانة الإسلامية تشكل عقبة أمام تطور العلوم، فهل يمكن الجزم بأن هذه العقبة لن تزول يومًا ما؟ بم تختلف الديانة الإسلامية في هذه النقطة عن بقية الديانات؟ إن جميع الديانات لا تخلو من التعصب[1]، ولكل منها طريقتها الخاصة في ذلك. فالديانة المسيحية، أعني الجماعة التي تتبع أفكارها وتعاليمها الموحاة

(١) هذا رأي لا علاقة للأفغاني به كما نعتقد، إذ إن المطلع الجيد على أفكاره يعرف أنه يقف ضدا لهذا الرأي جملة وتفصيلاً. فهو ينبذ التعصب ويعتبره آفة كبيرة. كما أن الديانات كافة عنده براء من آفة التعصب. ونرجح أن الأفغاني أراد أن ينعت بالتعصب أصحاب هذه الديانات لا الديانات نفسها.

وتتشكل على صورتها، خرجت من الطور الأول الذي ألمحت إليه قبل قليل، وصارت حرة ومستقلة، تخطو بسرعة على طريق التقدم والعلوم. في حين أن الجماعة الإسلامية لم تتخلص بعد من وصاية الدين. ومع ذلك إذا تذكرنا أن الديانة المسيحية سبقت الديانة الإسلامية في العالم بقرون عدة، فإني لا أنفك أرجو أن تنجح الجماعة المحمدية يوما ما في تحطيم قيودها(!) والسير بعزم على طريق المدنية مقتفية خطى الجماعة الغربية التي لم تشكل لها العقيدة المسيحية أي عقبة كئود على الإطلاق على الرغم مما في هذه العقيدة من ألوان القسوة والتعصب (. .) ولم ينزع رؤساء الكنيسة الكاثوليكية الموقرون أسلحتهم بعد فيما أعلم. فما برحوا يحاربون بلا هوادة ما يسمونه روح الضلال والخطأ. وإني لمدرك جميع الصعاب التي سيكون على المسلمين تخطيها في سبيل تحقيق الدرجة نفسها من المدنية، والتوصل إلى الحقيقة بمساعدة الأدوات والطرائق الفلسفية والعلمية.

(. .) وأعرف أيضًا أن ذلك الطفل المسلم والعربي الذي يرسم مسيو رينان صورته بكلمات نابضة والذي يصبح في وقت لاحق، كما يقول: «متعصبًا مزهوا بحيازة ما يعتقد أنه الحقيقة الكاملة»، إنما ينتمي إلى جنس ترك آثار خطاه في الدنيا، لا بالنار والدم وحدهما، ولكن بأعمال فذة وخصبة تدل على تذوقه للعلوم، كل العلوم، بما فيها الفلسفة التي يجب أن أعترف بأنه عجز طويلاً عن تدبير شئونها.

عند هذا الحد أصل إلى الحديث عن النقطة الثانية التي تناولها مسيو رينان. فلا أحد ينكر أن الأمة العربية هرعت إلى طريق التقدم الفكري والعلمي بسرعة لا تعادلها إلا سرعة فتوحاتها. فعلى مدى قرن من الزمن اكتسبت واستوعبت معظم العلوم التي كانت عند الإغريق والفرس، والتي طوروها تدريجًا خلال قرون على أراضيهم في الوقت الذي مدت (هذه الأمة) سيطرتها على شبه الجزيرة العربية إلى جبال الهملايا وقمة جبال البرانيس.

لعلي أقول إن العلوم، خلال تلك الفترة كلها، حققت بغير شك، تقدمًا مدهشًا عند العرب، في جميع الأقطار الواقعة تحت سيطرتهم. وكانت روما وبيزنطية عند ذاك مقر علوم اللاهوت والفلسفة والمركز المشرق الوهاج للمعارف البشرية كلها. وكان الإغريق والرومان سلكوا سبيل المدنية طوال قرون وساروا واثقين مطمئنين

على أرض العلم والفلسفة الشاسعة. ومع ذلك جاء عليهم حين من الدهر أهملت فيه بحوثهم وقطعت دراساتهم وسقطت آثارهم التي أقاموها شاهداً على العلم، وطوى النسيان مؤلفاتهم القيمة. لكن العرب تبنوا ما أهملته الأمم المتمدنة وأضرموا، من جديد، نار العلوم المطفأة وطوروها وأضفوا عليها تألقًا لم تتمتع به من قبل. أوليس هذا علامةً وبرهانًا على حبهم الفطري للعلوم؟! صحيح أن العرب أخذو عن الإغريق فلسفتهم مثلما جردوا الفرس مما اشتهروا به خلال العصور القديمة. لكن هذه العلوم (. .) تطورت على أيديهم وتوسعت وتوضحت وكملت واكتملت وتناسقت بذوق سليم وبدقة وضبط نادرين.

أما الباقون، مثل الإنجليز والألمان، فلم يكونوا بعيدين عن روما وبيزنطية بمقدار بعد العرب عنهما يوم كانت حاضرة هؤلاء بغداد. وكان من الأيسر على أولئك (الأوروبيين)، والحال هذه، أن يستغلوا الكنوز العلمية التي دفنت في هاتين المدينتين العظيمتين[1]. بيد أنهم لم يبذلوا أي جهد في هذا الاتجاه، حتى جاءت المدنية العربية فأضاءت بأنوارها ذرى جبال البرانيس، وصبت على الغرب سناها وغناها. ورحب الأوروبيون بأرسطو الذي كان قد هاجر وصار عربيا، لكنهم لم يفكروا فيه على الإطلاق يوم كان يونانيا وجارًا لهم. أوليس هذا برهانًا آخر لا يقل نصوعًا، على التفوق الفكري عند العرب وارتباطهم الفطري بالفلسفة؟!

والحق أنه بعد سقوط المملكة العربية في المشرق والمغرب سقطت الأقطار التي كانت قد صارت مراكز كبيرة للعلم، مثل العراق والأندلس، فريسة للجهل مرةً أخرى، وأصبحت مراكز للتعصب الديني. لكن المرء لا يمكن أن يستخلص من هذه الصورة المحزنة سوى أن التقدم العلمي والفلسفي في العصور الوسطى كان مصدره الأمة العربية التي سادت في ذلك الزمن.

إن ميسو رينان ينصف العرب في هذا. فهو يعترف بأنهم حافظوا على مشعل العلم وصانوه طوال قرون. فيا لها من رسالة نبيلة لأمة من الأمم. غير أنه في الوقت

(١) فات المترجم لنص الأفغاني أن روما وبيزنطية ليستا مدينتين. فنحن نقره بأن الأولى كانت بالفعل مدينة على حين كانت الثانية (أي بيزنطية) إمبراطورية عاصمتها القسطنطينية. وإذا كان قد فات المترجم هذا الأمر فنحن نستبعد أن يفوت الأفغاني. وهذا دليل آخر على خلل الترجمة.

الذي يسلم بأن الأقطار الإسلامية شهدت علماء ومفكرين نابهين للغاية منذ العام ٧٧٥ تقريبًا حتى قبيل منتصف القرن الثالث عشر، أي خلال نحو ٥٠٠ سنة، ويسلم أيضًا بأن العالم الإسلامي كان خلال تلك الفترة متفوقًا في الثقافة العقلية على العالم المسيحي، إذا به يقول إن فلاسفة القرون الأولى من تاريخ الإسلام، وكذلك رجال الدولة، كانوا في معظمهم من حران والأندلس وإيران. ولقد كان من بينهم أيضًا رجال من أبناء ما وراء النهر (أي كازخستان وتركستان)، وأحبار من نصارى الشام. ولست أبغي أن أغمط علماء الفرس حقهم من السجايا العظيمة، ولا أن أقلل من الدور الذي لعبوه في العالم العربي. ولكن لا بد من أن أقول إن الحرانيين كانوا عربًا، وإن العرب لم يفقدوا جنسيتهم (قوميتهم) حين احتلوا إسبانيا والأندلس بل ظلوا عربًا. وقد كانت العربية لغة الحرانيين قبل قرون من ظهور الإسلام. أما كونهم احتفظوا بديانتهم السابقة، وهي الصابئية، فلا يعني أن نعدهم غرباء عن الجنسية العربية، بل إن أحبار الشام أيضًا كانوا، في معظمهم، عربًا غساسنة اعتنقوا المسيحية.

وأما فيما يتعلق بابن ماجه وابن رشد وابن طفيل فلا يمكن القول إنهم أقل عروبة من الكندي لأنهم لم يولدوا في الجزيرة العربية، ولا سيما إذا أخذنا في الاعتبار أن الأجناس البشرية لا تتميز بلغاتها، وأنه إذا اختفى هذا التمييز فلن يطول الزمن بالأمم حتى تنسى أصولها المتعددة. فالعرب الذين تكاتفوا في خدمة الديانة الإسلامية، وكانوا في الوقت ذاته من المقاتلين والصحابة، لم يفرضوا لغتهم على المغلوبين، وإنما حافظوا عليها لأنفسهم، وفعلوا ذلك بعناية غيور في كل مكان حلوا به وثبتوا أقدامهم فيه. ولا شك أن الإسلام غرس لغته وأخلاقه ومذهبه في الأقطار التي تغلغل فيها بالفتح ذي العنف المعروف. ومنذ ذلك الحين لم تستطع هذه الأقطار أن تتقي أثره، وإيران مثال على ما نقول. ولكن إذا عدنا إلى القرون التي سبقت ظهور الإسلام، لأمكن أن نجد اللغة العربية غير مجهولة تمامًا عند العلماء الفرس. والحق أن توسع الإسلام أتاح لها مجالاً جديدًا ورأى العلماء الفرس الذين اعتنقوا العقيدة المحمدية الشرف في أن يؤلفوا كتبهم بلغة القرآن.

ولا شك أن العرب لا يستطيعون أن يدعوا لأنفسهم المجد الذي جعل هؤلاء الكتاب لامعين. لكننا نعتقد أنهم ليسوا في حاجة إلى مثل هذا الادعاء. فعندهم ما يكفيهم من العلماء والأدباء المشهورين. وماذا يحدث لو عدنا إلى العهود الأولى للسيطرة العربية وتتبعنا، خطوة خطوة، أول مجموعة شكلت هذه الأمة الفاتحة التي بسطت سلطانها على الدنيا، واستبعدنا كل ما هو غريب عن هذه المجموعة أو المتحدرين منها، ولم نضع في حسباننا الأثر الذي أحدثته في العقول ولا الحافز الذي أتاحته للعلوم؟ ألا يؤدي بنا هذا، إذاً، إلى عدم الاعتراف للأمم الفاتحة بسجايا ومزايا غير تلك التي تنشأ عن الحقيقة المادية المتمثلة في الفتح؟ لو اتبعنا هذه الطريقة لأستعادت جميع الأمم المغلوبة استقلالها المعنوي الذاتي، ونسبت إلى نفسها كل المجد، ولم يبق للقوة التي احتضنت بذوره وطورتها حق شرعي في ادعاء أي نتفة منه.

بهذا المنطق ستقول إيطاليا لفرنسا إنه لا مازاران ولا بونابرت[1] ينتميان إليها، وسوف تطالب ألمانيا أو إنجلترا، بدورهما، بالعلماء الذين رحلوا عنهما إلى فرنسا وجعلوا كراسي الأستاذية فيها لامعة وزادوا تألق شهرتها العلمية. وسوف يطالب الفرنسيون، من جانبهم، بمجد أبناء تلك الأسر الشهيرة التي هاجرت إلى جميع أنحاء أوروبا عقب صدور مرسوم «نانت»[2]. وإذا أمكن الادعاء بأن الأوروبيين جميعًا ينتمون إلى سلالة واحدة لأمكن الادعاء، عن عدل، بأن الحرانيين والشاميين ـ وهم ساميون ـ ينتمون، على قدم المساواة، إلى الأسرة العربية الكبيرة.

غير أنه يحق للمرء أن يتساءل عن سر اندثار المدنية العربية فجأة بعد أن ألقت

---

(١) يقصد الأفغاني جيل مازاران (١٦٠٢ ـ ١٦٦١م) وقد كان كاردينالاً إيطاليًا عينه لويس الرابع عشر وزيراً له وكان الحاكم الفعلي، في فرنسا على مدى فترة طويلة.
ونابليون بونابرت (١٧٦٩ ـ ١٨٢١م) إمبراطور فرنسا، وهو من أصل إيطالي ومن كورسيكا بالتحديد.

(٢) هو المرسوم الصادر في العام ١٥٩٨م. وقد أصدره في ذلك العام هنري الرابع ملك فرنسا وسمح من خلاله بحرية العبادة للبروتستانت في فرنسا. وبعد قرابة التسعين عامًا أي في العام ١٦٨٥م عدل الملك لويس الرابع عشر هذا المرسوم، الشيء الذي حمل عشرات الألوف من الفرنسيين البروتستانت على الهرب إلى خارج البلاد وخاصة إلى إنجلترا.

نوراً باهراً كهذا على الدنيا، وكيف لم تضأ هذه الشعلة منذ ذلك اليوم، ولماذا يعيش العالم العربي مدفوناً على الدوام في ظلمات حالكة؟

وهنا تتجلى مسئولية الديانة الإسلامية كاملة (!). فمن الواضح أنه حيثما استقر لها الأمر سعت إلى طمس العلوم. ويروي السيوطي أن الخليفة الهادي[١] أمر بقتل خمسة آلاف فيلسوف (!) في بغداد حتى يستأصل بذرة العلوم في الأقطار الإسلامية. وإذا سلمنا بأن هذا المؤرخ بالغ في تقدير عدد الضحايا، فحكمه على وقوع الاضطهاد يبقى صحيحاً على الأقل. وهذه وصمة ملطخة بالدم في تاريخ الديانة وتاريخ الأمة سواء بسواء (!) وأستطيع أن أجد في ماضي الديانة المسيحية حقائق مشابهة. فالديانات كلها متشابهة، أيا كان الاسم الذي تعرف به. وليس من الممكن تحقيق الاتفاق ولا المصالحة بين هذه الديانات والفلسفة. فالديانة (تفرض) على الإنسان تحرير عقيدتها واعتقادها، في حين أن الفلسفة تحرره من ذلك كاملاً أو جزئيا. فكيف إذًا يرجو المرء أن يحل الاتفاق بينهما؟

حين دخلت الديانة المسيحية، في أشد صورها تواضعًا وإغواءً، أثينا والإسكندرية اللتين كانتا كما يعرف الجميع، المركزين الأساسيين للعلم والفلسفة، وبعد ما ثبتت قدميها في هاتين المدينتين، كان همها الأول أن تقصي العلم والفلسفة الحقيقيين. فسعت إلى خنق هذا وتلك تحت الأشجار التي أظلت المناقشات اللاهوتية، من أجل تفسير الأسرار التي لا يمكن تفسيرها في ما يتعلق بالتثليث والتجسد والاستحالة[٢]. وهكذا الحال دائمًا. فكلما كانت اليد العليا للديانة، انقرضت الفلسفة. ويحدث العكس حين تحكم الفلسفة وتسود.

وما بقي البشر على قيد الحياة فلن يتوقف الصراع بين الجمود (!) والبحث الحر. وهو صراع بائس أخشى ألا يكون النصر فيه للفكر الحر لأن العامة تكره العقل الذي

---

(١) هل الخليفة الهادي وأمثاله فى التاريخ الإسلامى هو «الديانة الإسلامية كاملة»؟

(٢) التثليث، لدى المسيحيين، هو الاعتقاد أن الله واحد ذو أقانيم ثلاثة: الأب والابن والروح القدس. والتجسد هو اتحاد الطبيعتين الإلهية والإنسانية في يسوع المسيح. والاستحالة هي تحول الخبز والخمر في المناولة إلى جسد المسيح ودمه (انظر: علي شلش، مصدر مذكور، ص ٦٦).

لا يفقه تعاليمه إلا بعض الأذكياء من الخاصة، ولأن العلم أيضًا، بالرغم من جماله، لا يدخل الإشباع الكامل على البشر الذين يتعطشون إلى المثل العليا وينزعون إلى الغرس في المناطق المظلمة النائية. . وهذه لا يملك الفلاسفة والعلماء أن يدركوها ولا أن يرتادوها]. (١)

---

(١) ترجمة مغرضة:

إن نظرة متأنية إلى رد الأفغاني على رينان تحملنا على الاقتناع بأن ثمة مكيدة أخرى تعرض لها الرجل في باريس (كرسي الحرية). ولسنا نستبعد بأن تكون إدارة التحرير في صحيفة الـ «جورنال دي ديبا» هي وراء المكيدة. وإلا لماذا لم يسمح للأفغاني بتوضيح موقفه بعد نشر الرد محرفًا ومشوهًا وقد تعرض للحذف والإضافة وهما الشيطان اللذان كان الأفغاني يشكو منهما، الأمر الذي حمل جريدة الـ «إنترأنزيجان» ـ وهي الجريدة التي انتقل الأفغاني للكتابة فيها بعد امتعاضه مما حصل له مع الـ «جورنال دي ديبا» ـ . . . مما حملها على تصدير مقالته المسلسلة حول المهدي (بتاريخ ٨ و١١ و١٧ كانون الأول ١٨٨٣م) بالقول إنها «تنشر هذه الدراسة كما هي دون إضافة أو حذف»؟!

ولعل الشيء الذي يجعلنا على قناعة تامة بأن الدين، ونظرًا إلى تأثيره المتفاقم في البلدان الإسلامية وصوته المسموع داخل الحركات السياسية في هذه البلدان، كانت تتربص به الأقدار السوداء في باريس مثلما تربصت به في مصر وإيران والهند والأستانة. فالمطلوب إزالة هذا الرجل. كوجود سياسي ومعنوي، وذلك لا يتم إلا بتسويد صفحته بين المسلمين. وجمال الدين، صاحب التاريخ السياسي المبني على الأيديولوجيا الإسلامية وقد ذهب إلى باريس لقربها من الشرق وكيما يساهم في نهضة المسلمين ويقظتهم. . . إن رجلاً هذا شأنه لا يمكن أن يوافق أرنست رينان في رأيه عن الإسلام وموقفه من العلم. وقد رأينا كيف تحدث عن هذا الموضوع في مقالته القصيرة المنشورة في جريدة «البصير» عن امتعاض وغضب «عظماء الأمة الفرنسوية» مما جاء على لسان رينان بخصوص الإسلام. . فكيف عن امتعاضه وغضبه هو بنفسه؟!

إن الأفغاني، وهو الذي عرف بطيبته ونبله وثقته بالآخرين، وضع النص الغربي للرد في عهدة (صديقه) خليل غانم، فكان أن حذفت أشياء وأضيفت أشياء وحرفت أشياء. وكل ذلك من أجل قطع الصلة بين الأفغاني وبين المسلمين وهو الذي أصبح ـ بعد الرد على رينان ـ متهمًا بأنه طعن بالإسلام الذي خنق الفلسفة والعلم.

ولعلّ قراءة نقدية واعية لردّ الأفغاني على رينان، بنصه الفرنسي، ربما أخرجت الكثيرين من الحيرة التي تخبطوا فيها طويلاً. فالأفغاني يتساءل في مطلع رده على رينان قائلاً: «هل صدرت هذه العوائق (المعادية للعلم بنظر رينان) عن الديانة الإسلامية ذاتها فانفردت بها أم عن الطريقة التي انتشرت بها في العالم؟ هل صدرت عن طابع الأمم التي اعتنقتها وأخلاقها واستعداداتها أم عن الأمم التي أكرهت على اعتناقها؟ =

. . . . . .

. . . . . .

= إن الملفت في هذا التساؤل ـ وقد طرحه رينان ولم يجب عليه من أجل تعميق الشك في النفوس ـ هو أن الأفغاني أيضًا طرحه في سياق تفنيد أقوال رينان ومزاعمه لكنه أيضًا، لم يقدم جوابًا. فكيف يكون الرد إذن وما عسى يكون معناه ما لم يقدم أجوبة عن الأسئلة المطروحة، علمًا بأن الأفغاني كان بإمكانه، واستنادًا إلى النصوص الإسلامية الرسمية من قرآن وحديث، تقديم جواب كاف وواف وبالشكل الذي يدحض مزاعم رينان. ونحن هنا أمام احتمالين لا ثالث لهما: فإما أن الأفغاني لم يطرح هذا التساؤل إطلاقًا في النص العربي (وإلا لكان أجاب عنه). . وقد أضيف إلى الترجمة الفرنسية، وإما أن يكون قد أجاب عنه، لكن الجواب حذف!

ولو افترضنا جدلاً أن الأفغاني طرح هذا التساؤل دون أن يجيب عنه مثلما فعل رينان، وهذا أمر مستبعد، فإنه يوضح لنا نظرة الأفغاني لهذه المشكلة، أي مشكلة الإسلام والعلم. فالأفغاني يفصل بين الإسلام والمسلمين، أو بين الديانة ومعتنقيها. فليست الديانة (الدين) هي التي عوقت العلم والفلسفة ومنعت ازدهارهما بل إن السبب يعود إلى معتنقي هذه الديانة. أما بالنسبة للبقعة العربية الإسلامية فليست الديانة هي التي عرقلت مسيرة العلم وإنما هم المسلمون أو بعضهم. أما سبب ذلك فهو ليس دينيا بقدر ما هو سياسي محض يتصل بتكريس السلطة السياسية وبترسيخ أقدامها.

ولدينا من الوقائع ما يجعل الترجمة الفرنسية للرد موضع شبهة. فالأفغاني بعد أن نشر رده مترجمًا عرف من طريق أحد المتضلعين في هذه اللغة ما أصاب مقاله من تحريف وتشويه وما تضمنه من أخطاء. ويبدو أنه عرف أيضًا بأن إدارة الـ «جورنال دي ديبا» أدارات له ظهر المجن وهي، بالتعاون مع أطراف معينة داخل باريس وخارجها، ترمي إلى تشويه صورته في العالم الإسلامي. ومن أجل ذلك أسرع الأفغاني وبعث بنسختين من العدد المنشور فيه رده والمؤرخ في ١٨ أيار ١٨٨٣م إلى تلميذه محمد عبده. وقد أرفق هاتين النسختين برسالة بخط يده يوضح فيها أن الرد على رينان أصابه تشويه كبير وتضمن أخطاء كثيرة. وظن محمد عبده أن ما يتحدث عنه أستاذه من تشويه وأخطاء إنما يتعلق باللغة وبأخطاء مطبعية وهي شيء مألوف في الصحافة، فأوكل ترجمة الرد إلى العربية إلى صديقه حسن بيهم. وبعد أن أنهى هذا الأخير المهمة الموكولة إليه عرف محمد عبده إلى ما رمى إليه أستاذه لجهة التشويه والأخطاء، فحمد الله لأن الرد لم يقع في أيد أخرى ولأنه أوكل الترجمة إلى حسن بيهم صاحب اللسان الدافئ. . وهكذا اندفع المكروه![1]..

. . لقد أخذ محمد رشيد رضا على المحاضر في مقالة له نشرتها «الأهرام» أنه لم يتمكن من تقديم أفكار رينان أو أفكار الأفغاني. كما أنه ارتكز في حديثه عن الأفغاني على ترجمة عربية مأخوذة في الوقت عينه عن ترجمة ألمانية لرد الأفغاني على رينان وقد تساءل محمد رشيد رضا عما إذا كان مضمون رد الأفغاني قد حافظ على حاله بعد كثرة النقل من لغة إلى لغة.

واستنادًا إلى الشيخ محمد عبده الذي يعرف فكر الأفغاني كما لا يعرفه أحد مثله تحدث رضا عن رأي الأخير في الإسلام وعلاقته بالعلم، وذلك في مقال آخر ومطول نشره في مجلة «المنار». ومما قاله: «إن الإسلام دين العقل والحكمة والفلسفة الصحيحة، وأنه لولا تأثير هدايته لما انتقل العرب من الأمية =

. . . . . .

. . . . . .

= إلى أعلى مما كان عليه جميع البشر في كل علم وكل فن وكل نظام وكل عمران، في مدة جيل واحد، حتى سادوا الفرس والروم والأوروبيين وغيرهم. وهل يعقل أن تلك الشراذم التي خرجت من جزيرة العرب حفاة عراة، لا يعرفون من العلم شيئًا غير القرآن، ولم يكن كل واحد منهم يحفظه كله، يمكن أن تدوخ كل هذه الأمم وتسودها وتسوسها، من ساحل المحيط الأطلسي إلى الشرق الأقصى، وتخضعها لدينها ولغتها بالسيف»!

ونقلاً عن الشيخ محمد عبده فيما رواه له عن موقف الأفغاني، يستطرد رضا: «لكن المسلمين ابتدعوا في الإسلام بدعًا كثيرة، لم يمكن تداركها بسبب فساد نظام الخلافة وإخراجها عن أصلها الذي يشترط فيه العلم الاستقلالي والعدالة. وبهذا الابتداع الذي صار إسلام القرآن فيه غير إسلام المنتمين إليه، أضاعوا العلم به، ثم عادوا كل علم، حتى صاروا إلى ما كان يسعى السيد (جمال الدين) لتلافيه وتداركه. فكأنه يقول لرينان: كل ما ذكرت من عداوة الإسلام للعلم، مما تكثر الشواهد عليه في التاريخ وإن كانت قليلة في عهد الإسلام بالنسبة إلى غيره من الأديان، فهو الإسلام الذي فهمه خطأ أولئك الذين عادوا العلم والعقل والحضارة، لا إسلام القرآن الذي يخاطب العقل ويرفع شأن العلم في آيات كثيرة، ويبين أن لله سننًا في الكون قام بها نظامه، وأن هذه السنن لا تبديل لها ولا تحويل»[٢].

وعمل رضا على الربط بين ما جاء في (الرد) وبين كتاباته السابقة سواء في «العروة الوثقى» أو في غيرها ليجد أن ثمة تناقضًا كبيرًا فيما بين الاثنين. ويذكر نقلاً عن محمد عبده أن جمال الدين لطالما ردد في مجالسه الخاصة بالقاهرة أن «الإسلام الممزوج بالبدع هو ذلك الذي اضطهد بعض أهله رجال العلم». وإذ اعتبر رضا أن الرد يكون تفنيدًا لا تأييدًا مثلما درجت العادة أكد على أن الأفغاني نبه رينان إلى «أن المسلمين قد وجد منهم كغيرهم في نشأة الإسلام الأعجمية في النصف الثاني من حياته ما خنق الحركة العلمية. فكل ما أسنده إلى الإسلام موافقًا لرينان يراد به الإسلام الأعجمي المشوه بالبدع، لا الإسلام العربي المنصوص في القرآن والسنن، وإلا كان كلامه متناقضًا»[٣].

ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد بل إن الأمير شكيب أرسلان (١٨٦٩ـ١٩٤٦م) وهو الذي عرف الأفغاني في أواخر حياته بادر إلى الإدلاء بدلوه، فوجه رسالة إلى رشيد رضا مؤرخة في ١٢ أيار ١٩٢٤م يشرح فيها موقفه من هذه المسألة. ومما قاله أرسلان: «.. والذي أظنه هو أن السيد جمال الدين حرر رده على رينان بالعربية، ثم دفعه إلى مترجم مثل أنيس شحادة أو غيره (تبين فيما بعد أن مترجم الرد هو خليل غانم نفسه) لأجل أن يضعه في قالب فرنسي، فالمترجم، الذي لا أقدر أن أعرف من هو، ترجم بعض كلمات جمال الدين بغير ما يجب أن يترجمها به، وتصرف في التعبير. وربما كان المترجم هو نفسه متشيعًا بفكرة رينان، غير مقتنع بكلام جمال الدين، فلم يتقيد بالمتن الجمالي التقيد الكافي، ولا أدى الأمانة في النقل حقها. فوقعت هناك ألفاظ لو فهم السيد جمال الدين حقيقة مرماها لأنكرها وغيرها في حينها. فلا عجب أن تكون الترجمة الفرنسية التي صدرت تحت إمضاء جمال الدين تفيد أشياء لم يردها هو. ومن تأمل في كون هذه المقالة ظهرت في جريدة «الديبا»، وكان يعلم دأب هذه الجريدة من دس السم في كل =

. . . . . .

. . . . . .

= ما يتعلق بالإسلام، قل عجبه مما يكون قد ورد في مقالة جمال الدين مما لا يطابق ما سمعناه منه»(٤).

* * *

سوف نحجم هنا - ولكي لا نثقل على النص وعلى القارئ معًا - عن الإسراف في جرد كل أو أغلب الأصوات التي جاهرت بالدفاع عن جمال الدين الأفغاني. يكفي أن نضيف إلى محمد رشيد رضا وشكيب أرسلان، وهما رمزان كبيران من رموز النهضة في القرن التاسع عشر وأوائل هذا القرن، أحمد أمين الذي كتب سلسلة من المقالات في مجلة «الثقافة» ضمنها دفاعًا موضوعيا، مدعمًا بالحجج والقرائن، عن الأفغاني(٥). ونستطيع أن نضيف أيضًا محمد حامد الله الذي كتب مقالة هامة عام ١٩٥٨م بالإنجليزية عنوانها: «أرنست رينان وجمال الدين الأفغاني: ممثلان رئيسيان لثقافتين» حيث حاول البرهنة على أن رينان (اختلق) رد الأفغاني عليه. وقد انطلق حامد الله في محاولته تلك من أن ثمة مقتطفات وعبارات فيما سمي بـ «رد الأفغاني» يستحيل أن تصدر عنه..(٦).

(١) الأزمنة، مصدر مذكور ص ٦٢.

(٢) مجلة «المنار» ج ٤، ص ٢٠٦.

(٣) المصدر السابق، ص ٣١٥.

(٤) أمير البيان شكيب أرسلان، أحمد الشرباصي، مطابع الكتاب العربي، القاهرة، ١٩٦٣م، ص ٦٥٤.

(٥) انظر: أحمد أمين، زعماء الإصلاح في العصر الحديث، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٥م، ص ٥٩ - ١٢٠.

(٦) سمير أبو حمدان: جمال الدين الأفغاني وفلسفة الجامعة الإسلامية، ص ١٥٧ - ١٧٠.

٢١

الإسلام والعلم

فاعتبروا يا أولي الأبصار

الإسلام والعلم

فاعتبروا يا أولي الأبصار

إن رينان الفيلسوف قد ألقى في باريس، كرسي الحرية، خطابا جعل موضوعه الإسلام والعلم، وأظهر فيه أفكاره التي ذهبت به إليها الشواهد التاريخية. وما حاد في خطابه عن سنة الأدب، وما تجاوز حدود الكمال الذي يقضي بها وجوب احترام الأمم فيما تنتحله دينا.

ومع ذلك فقد امتعض كثير من عظماء الأمة الفرنسية وتجهموا من مقاله، وحسبوه خروجا عن النصفة، ومروقا عن محيط العدل في الحكم، وتعديا على حقوق من يجب رعايته عليهم من المسلمين عمومًا، وسكان الجزائر وتونس خصوصًا، حتى قام من هذه الأمة الشريفة من له الكلمة العالية في الحكومة، وكتب مقالة تذمر فيها من خطاب رينان، وبين هفواته، وأقام الأدلة على سقطاته، وذاد عن الديانة الإسلامية، ودافع عن المسلمين، وأبان ما كانوا عليه من الدرجة الرفيعة في الآداب والفلسفة. وما دعاه إلى مقالته هذه إلا فضيلة مراعاة الأمم في أديانها، وحسن السياسة. وما يقدر هذا الكمال أحد حق قدره إلا إذا نظر إلى الأمة الإنجليزية، وتتبع معاملاتها مع المسلمين في الهند. إن الإنجليز تحكم خمسين مليونًا من المسلمين. ولا ترى لهم على نفسها حقا، ولا يختلج ببالها وجوب مراعاتهم، ولا احترام ديانتهم. إن قسس الأپروتستانت المغرورين يقومون في شوارع البلاد الهندية على سوقهم، ويطعنون في الديانة الإسلامية طعنا تقشعر منه الأبدان، ويفتعلون من الأراجيف ما تصطك منه الآذان، ويختلقون أقوالا يستبشعها الأوباش، وينسبون إلى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم في رسائلهم من الشنائع

والفظائع ما تنبو عنه الطباع. وكل هذه بمرأى من الحكومة، ومسمع من الأمة الإنجليزية. وما تسمع من أحد منها إنكاراً، ولا ترى في وجوهها من هذه التعديات اغبراراً.

وميزان الحق، والمسيح الدجال[١]، وغيرهما من الرسائل المحشوة بالسب والشتم والقذف في شارع الديانة الإسلامية تنبئك عن كيفية معاملة الإنجليز مع مسلمي الهند، ونهج مراعاتهم. وإذا قام أحد من علماء المسلمين لأن يعارض هؤلاء القسس[*] بكتب رسالة، أو إلقاء مقالة يلقى عليه القبض بدعوى إثارة الفتنة، ويرسل بلا محاكمة إلى جزائر أندمان[٢]. إن المولوي رحمه الله الهندي ما هرب إلى مكة المكرمة إلا بهذه التهمة التي تسببت عن المباحثات الواقعة بينه وبين القس فندرك الأپروتستانتي. وإن جواد الساباط ما فر ليلا من الهند إلى جاوة إلا لتأليف البراهين الساباطية ردا عن دينه وردا لأراجيف القسس الإنجليزية[**].

فانظر أيها البصير إلى التفاوت الكائن بين هاتين الأمتين، وأنصف.

---

(١) ميزان الحق والمسيح الدجال عنوانا كتابين في التبشير المسيحي في الهند في ذلك الوقت.

(*) المراد: القساوسة ـ كما هو الدارج اليوم.

(٢) كانت هذه الجزر النائية في المحيط الهادي مكانًا ينفى إليه الأحرار الهنود وزعماء المسلمين.

(**) ظهرت هذه المقالة للسيد جمال الدين الحسيني. بجريدة «البصير» المصرية، في ٣ مايو ١٨٨٣م.

٢٢

وثـائـق

نصوص غير منشورة بالعربية لجمال الدين الافغاني

تقدم في الصفحات الآتية الترجمة العربية لواحدة من مقالات ثلاث منسوبة الى جمال الدين الافغاني احد ابرز شخصيات القرن الماضي والمؤسس الحقيقي لحركة الاسلام السياسي، واحدى الشخصيات التي لعبت دورا لا نجد له مثيلا في تلك الفترة الحاسمة والحساسة من حياة العالم الاسلامي في منتصف الثاني للقرن التاسع عشر... المقالات الثلاث نشرت بالفرنسية حاملة توقيع الشيخ الافغاني على ثلاث حلقات في جريدة «المنتخب» التي كانت تصدر في باريس بادارة ... خلال ... وقد خرجت هذه المقالات في الفترة ما بين ٨ و١٧ كانون الاول (ديسمبر) عام ١٨٨٣، اي بعد عام ونيف من بدء الاحتلال الانكليزي لمصر.

الصفحة الاولى، من مقال السيدجمال الدين، حول المهدى
مجلة «اليوم السابع» باريس ١٩٨٥ م

باب مايؤول اليه امر المسلمين في المستقبل

اذا نظرنا الى الحالة الراهنة رأينا ان ما آلت الاوان للتكلم فيه مستقبل الاسلام فان انحطاطه
في زمن السلطان سليمان المسمى بالمشرع من يوم حصار مدينة وبانه في ١٥٢٧ لم يزل يظهر
شيئا فشيئا حتى بلغ اواخر القرن الاخير اى عهد السلطان محمود الثاني الذي بلغت رجال
دولته اعلى درجة في التاخير وتملكت بعد الانكليز والمسكوا والفرنساويه على كثير من
المسلمين وبقي معظم اهالي الاسلام يخبطون في الجهل منتظرين سقوط المملكة التركية تحت
صواعق الافلاس والحروب الباطنية والحروب الخارجية التي تفشي من حصول النظر فيها
فضلا عن الهزيمة على ان تلك المملكة التركية هي التي ورثت الملك من الخلفاء الدين دانت
لهم الارض باجمعها وخضعت لهم الممالك وادبابها ودوخها وهي الآن حصن غير
منيع لحفظ شوكة الاسلام ووقاية واهية للنجوى والالتئام
فاحتاج الآن بما تؤول اليه امر المسلمين وهي في ظنك من تعلب الاحوال وضيق من عدم
تحقق الآمال ان نخطر بالكتاب تعالى ان ربنا الدين يتلاشى وانه اخذ زهوه وعضي او يخطر
بالكتاب ان فيه الكفاية لتنظيم احوالهم ورجوعهم الى القوة منشائه ويكون معينا على نشر الحمد
في جميع اقطار الدنيا فهما كان مسلمين خاضعين بحالة الاسلام وما يؤول امره اليه بالنسبة
الى مصالح شؤونه في المستقبل وبالنسبة لمسألة النصارى الذين تحت حكومة الاسلام وهما
فان المسئلتان لهما دخل عظيم في المسئلة الشرقية التي لا تحول ولا تزول
فلا وجه للمجاوبة عنهما بوجه الايجاب لان الدليل الاقوى لتمهيد كل منهما الابد هت
دخوله في مسئلة الاديان وقال المؤلف فنظن ان الدين قاصر على الزمن الذي ظهر فيه
وان الاديان سترفع من الارض بعد ان تنتشر المدرة على وجهها وان اخر دين اكثر تنقيحا
من باقي الاديان التي تقدمت وان التنظيمات التي تحصل في الدنيا لابد لها من دين جديد
فاذا كان هذا الدين هو دين الاسلام يلزمنا ان نتوقع من ظهوره على الاحوال التي
حصلت في الدنيا وتضاهي قواعد بقواعد الاديان المتقدمة ثم نبحث في الثمرات التي حلت عنها
التواريخ ونطلع على اسباب انحطاطه في هذه الايام واذا تاملنا في الاسباب الموجبة للانحطاط
ظهر لنا انها نشأت من عدم موافقة ذلك الدين للتقدم والتمدن الحاصل في هذا الزمن فاذا
امعنا النظر في درجات تلك المسئلة رأينا الاسلام ظهر بعد النصرانية بستمائة واثنين وعشرين
سنة فكانت قواعده اعلى واحق من دين النصرانية
وعندنا دليل اخر وبرهان الدينين ظهرا في ارض واحدة وان الدين النصراني سقط في بلد

الصفحة الاولى من مقال: باب مايؤول اليه امر المسلمين

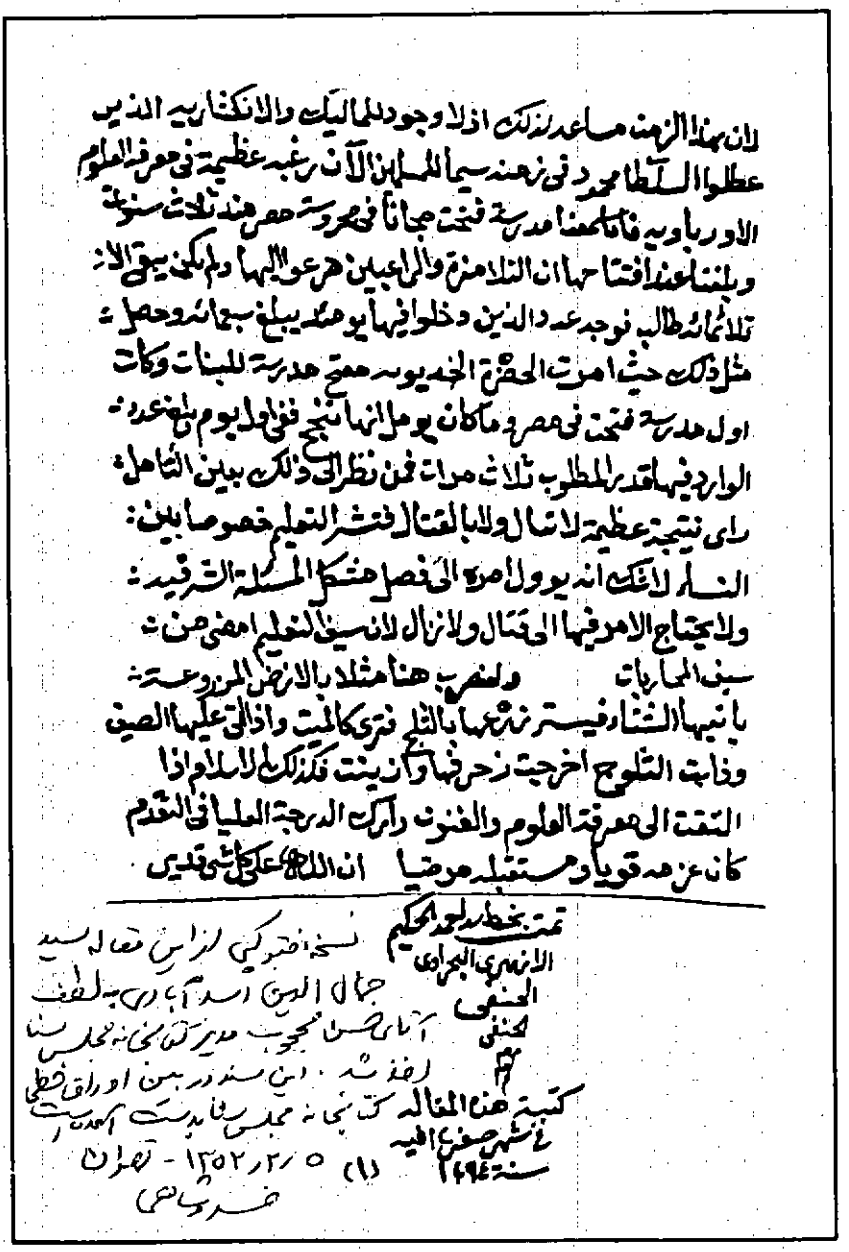

الصفحة الاخيرة من: باب مايؤول...

۱. نسخه فتوکپی از این مقاله سیدجمال‌الدین اسدآبادی، به لطف آقای حسن محجوب مدیر کتابخانه مجلس سنا اخذ شد. این سند در بین اوراق خطی کتابخانه مجلس سنا به‌دست آمده است. ۱۳۵۲/۲/۵ تهران: خسروشاهی

«أحرار» يقتلون الحرية

الخديوي أعار يديه للاحتلال خوفا على العرش

مصر باب الشرق وفيها لم يخمد العصيان

السيد رئيس التحرير

لقد خان الأحرار الاتكليز كل تعهداتهم التي ضمنوها برنامجهم السياسي ، الذي بموجبه وصلوا إلى الحكم .. وذلك بتدخلهم في شؤون مصر ، وجورهم التي دعم بصدد بذلها في سبيل السيطرة على هذا البلد .

انهم خانوا وعودهم ، بسبب تهديدهم أمام تخليهم للدفاع عن حق الناس وحرية الأمم ، في كل انحاء المعمورة .

الأحرار قاوموا المحافظين في مجال الفتوحات والحروب الظالمة التي تقدموا بضمانة الظهور بيكونسفيلد واندفاعه ، بسببها .

ومن لا يتذكر فلاسفتين خلال الانتخابات العامة ، الذي لم يردد في تأييد « الزولو » الذين شقوا الحدود ا تكلوزية ، والافغان الذين ، بتعاقلهم مع الروس وحدهم ، قضوا على ملاقاتهم الصداقية مع انكلترا .

وهو ، فالاستاذ نفسه ، الذي أطلق الحرب على المصريين الذ ن لم يتنهكوا حدود أحد ، وكل ما طلبوه هو ان يعيشوا احرارا في وطنهم .. الذين لم يصطو ا لخطية ، على صعيد التحالف ، لأية دولة أو بي ، دون الاخرى ، مفضلين العيش بسلام وبه حداقة خية مع الجميع .

اهكذا ، إذ ، يجري الغلب على قيمة الكلمات بين الأوروبيين ، وهل يجب ان نعتقد بأن الذين يزدانين بينهم بلقب الأحرار ، في وطنهم ، هم أسوا أعداء الحرية لدى الآخرين .

فضلا عن ذلك ، فان فتح انكلترا لمصر قد تم وفق موضة الفتوحات الخاصة بهذه الأمة والتتبعة منذ جيلين . فانكلترا لا تقدم على ذلك ، والسلاح باليد . انها تحترس جيدا . وبالعكس ، هي تدخل البلد الذي تخضع به ، تحت كل الأشكال الأكثر سهلة ، وكل المظاهر الأكثر مودة . هناك ، تتعاز لحيانا إلى جانب الأمير ضد الشعب ، واحيانا إلى جانب الشعب ضد الأمير ، وفي تتعاز مرة لدولة ومرة لأخرى ، تبعا للظروف ، ووفقا لعروض الخدمات الملحة ، واضعة تحت تصرفهم لمجلس موظفيها وضباطها الذين ، سرعان ما يهيمنون على كامل الادارة . وليس ما يمنعهم من الظهور بالتجرد من اية غرضية ، حيث انهم لا يقصدون إلا انقاذ الأمير من أعدائه الداخليين ، وتخليص الشعب من أعدائه الخارجيين .

هذه السرحية ، التكرارة ، لعبتها انكلترا مؤخرا ، ثارة إلى جانب الخديوي توفيق ، وطورا إلى جانب الحزب الوطني المصري ، حيث لم نعد نعرف ، حتى اللحظة الاخيرة ، أيا من الاثنين هو تمت حمايتها نهائيا ، بالنسبة للخديوي ، حاولت ان تقنعه انها الوحيدة التي تستطيع وتويد دعمه ضد الحزب الوطني ، الذي يهدد فقط إلى قلبه ، وهذا خطأ . وقالت للحزب الوطني وعرابي بواسطة جواسيسها العربين ، انها الدولة الوحيدة التي ترغب في الحكم الذاتي لمصر ، وهذا ايضا خطأ .

واحسرتاه ! فلو كان الخديوي اكثر فطنة أو اكثر ثقافة ، لكان تذكر ما يترتب عادة على الأمراء والأسر الملكة ، الذين يقبلون المساعدة والحماية من انكلترا ضد مواطنيهم . في الواقع ، بدأت انكلترا في تحديد سلطتهم ، معلنة أنها خادمتهم الأولى .. تلك السلطة الملكية التي وضعتها بريطانيا دائما في المقدمة ، وجلبت بسببها الجميع في الداخل والخارج ، ولكن شرط ان تتصرف السلطة تلك كما يحلو لها (أي لانكلترا) .

هذا ما يمكن رؤيته في الهند خلال ٨٠ سنة . فانكلترا لديها الصبر ـ الصبر كان فضيلتها السياسية الكبرى ـ ان تظهر بمظهر الصديق المتواضع ، الاكثر سعادة والحليفة الأكثر تبجيلا من عائلة تيمور الملكة ، رغم انها ، منذ اليوم الأول لتدخلها الصداقي لم تترك لهم ، في التحديد وفي الحقيقة ، غير اللقب الشرفي للشاهنشاهية ، ولم تخلع القناع وتظهر على حقيقتها : السيدة الوحيدة والمطلقة للهند ، !! منذ حوالي ثمانين سنة .

لو كان توفيق اكثر ثقافة ، لادرك ان انكلترا ، وهي تشيطر كما فعلت ، بحجة الدفاع عن البلد ، وعن الجيش المصري .. ستعامله ـ وهو الخديوي ، تماما مثلما فعلت ـ النائب ـ في ـ البنغال ـ و ـ لاكناو ـ و ـ كاماتاك ـ وغيرهم من ـ النائبين ـ الذين هدرت دمهم وضمت بلادهم ، بواسطة الجيش الذي وضع تحت رعايتها حيث اعادت تنظيمه ، كما فعلت من أجل الدفاع عن العرش .

ولم ادرت ان اقيم مزيدا من المقارنة والتشابهات ، لكنت لاحظت كيف ان انكلترا حين استولت على جزيرة قبرص ، قد تظاهرت بالقول انها لم تساعدها نهائيا عن الامبراطورية العثمانية التي سوف تعيدها إليها ، ولكن حين سلمت كالكرتا من قبل تيمور ، لم تقل إلا الشيء نفسه .

حتى خلعها لاسماعيل واستبداله بتوفيق ، ايضا شيئا قريبا من سياسة انكلترا الشرقية ، ذلك ان الاحتفال الرسمي نفسه ، قد جرى برعايتها ، يوم تم خلع ، النائب سراج الدولة ، ، واستبداله بمراد جعفر .

باختصار ، انكلترا هي بصدد تفكيك الامبراطورية العثمانية من اجل ابتلاع الاجزاء المرغوبة منها ، الواحد تلو الاخر ، تماما بالطريقة نفسها التي ابتلعت فيها الهند ، ببطء ، ولكن بلا مخاطر .

غير انها ، لسوء حظها ، قد اضطرت إلى التخلي عن نهج النفس الطويل في مصر ، ولم المطالب ، فان نجاحات الحزب الوطني ، الذي لم يقبل بقلل من الحكم الاستقلالي للبلد ، قد دفعتها الى التفكير الجديد ، ان حكم الحزب الوطني لمصر ، كان سيناقضا لما حلمت به ، ولذلك سرعت الاحداث ، والمعروف ان النتيجة المباشرة لشروح

الصفحة الاولى من مقال: احرار يقتلون الحريه... مجلة «اوراق»

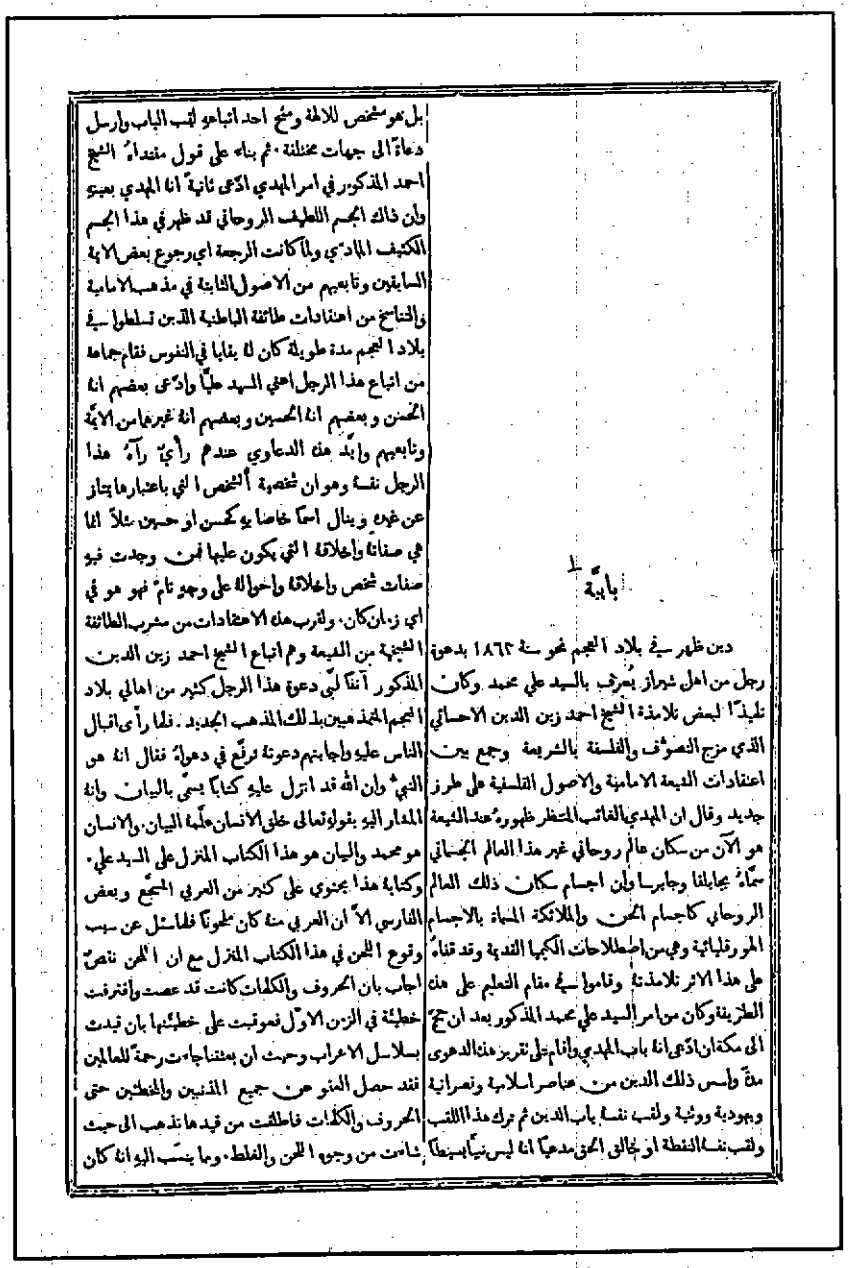

بابية[1]

دين ظهر في بلاد العجم نحو سنة ١٨٦٤ بدعوة رجل من اهل شيراز يُعرف بالسيد علي محمد. وكان تلميذًا لبعض تلامذة الشيخ احمد زين الدين الاحسائي الذي مزج التصوّف والفلسفة بالشريعة وجمع بين اعتقادات الشيعة الامامية والاصول الفلسفية على طرز جديد وقال ان المهدي الغائب المنتظر ظهوره عند الشيعة هو الآن من سكان عالم روحاني غير هذا العالم الجسماني سمّاهُ عجابلقا وجابرسا وان اجسام سكان ذلك العالم الروحاني كاجسام الجن والملائكة المسماة بالاجسام المورقليائية وهي من اصطلاحات الكيميا القديمة وقد قناهُ على هذا الاثر تلامذتهُ وقاموا في مقام التعليم على هذه الطريقة وكان من امر السيد علي محمد المذكور بعد ان حجّ الى مكة ان ادّعى انهُ باب المهدي وأقام على تقرير هذه الدعوى مدةً وأسس ذلك الدين من عناصر اسلامية ونصرانية ويهودية ووثنية ولقب نفسهُ باب الدين ثم ترك هذا اللقب ولقب نفسهُ النقطة او جالى الحق مدعيًا انهُ ليس نبيًا بسيطًا بل هو شخص للالهة ومنح احد اتباعهِ لقب الباب وارسل دعاةً الى جهات مختلفة. ثم بناه على قول مقتداهُ الشيخ احمد المذكور في امر المهدي ادّعى ثانيةً انهُ المهدي بعينهِ وان ذلك الجسم اللطيف الروحاني قد ظهر في هذا الجسم الكثيف المادّي ولما كانت الرجعة اي رجوع بعض الاموات السابقين وتابعيهم من الاصول الثابتة في مذهب الامامية والشائع من اعتقادات طائفة الباطنية الذين تسلطوا في بلاد العجم مدة طويلة كان لهُ بقايا في النفوس فقام جماعة من اتباع هذا الرجل احمى السيد عليًا وادّعى بعضهم انهُ الحسن وبعضهم انهُ الحسين وبعضهم انهُ غيرهما من الائمة وتابعيهم وايّد هذه الدعاوي عندهم رأيهُ رآهُ هذا الرجل نفسهُ وهو ان شخصية الشخص التي باعتبارها يمتاز عن غيرهِ ويُنال اسمًا خاصًا به كحسن او حسين مثلاً انما هي صفاتهُ واخلاقهُ التي يكون عليها فمن وجدت فيهِ صفات شخص واخلاقهُ واحوالهُ على وجهٍ تامٍ فهو هو في اي زمان كان. ولقرب هذه الاعتقادات من مشرب الطائفة الشيخية من الشيعة وهم اتباع الشيخ احمد زين الدين المذكور آنفًا لبّى دعوة هذا الرجل كثير من اهالي بلاد العجم المتعبدين بذلك المذهب الجديد. فلما رأى اقبال الناس عليهِ واجابتهم دعوتهُ ترقّى في دعواهُ فقال انهُ هو النبيّ وان الله قد انزل عليهِ كتابًا يسمّى بالبيان وانهُ المقدار اليهِ بقولهِ تعالى خلق الانسان علّمهُ البيان. والانسان هو محمد والبيان هو هذا الكتاب المنزل على السيد علي. وكتابهُ هذا يحتوي على كثير من العربي المصحّف وبعض الفارسي الاّ ان العربي منهُ كان ملحونًا فلما سئل عن سبب وقوع اللحن في هذا الكتاب المنزل مع ان اللحن ينافي اجاب بان الحروف والكلمات كانت قد عصت وانفرقت خطيئة في الزمن الاوّل فعوقبت على خطيئتها بان قيدت بسلاسل الاعراب وحبست ان يعتنيها جاءت رحمةً للعالمين فقد حصل المنوه عن جميع المذنبين والمخطئين حتى الحروف والكلمات فاطلقت من قيدها تذهب الى حيث شاءت من وجوه اللحن والغلط. ومما ينسب اليهِ انهُ كان

الصفحة الاولى لمقال البابية، (قسمت اول مقاله دربارهٔ بابیگری)

1. Babisme

الباب فهو عندهم اعظم من محمد كما ان محمداً اعظم من عيسى وفرض الصوم شهراً من اخر الحوت بحيث يوافق عيد فطرهم يوم النيروز وهو اول الحمل . ومن احكامه انه يجب تخريب جميع البقاع المقدسة ككعبة وبيت المقدس وقبور الانبياء والاولياء عند حصول اول سلطة لاحد ممن تبع دينه ويحرم شرب الخمر وكذا الدخان على جهة وحلقه اتباعه من بعده ويندب شرب الشاي ندباً مؤكداً حتى ان من شربه ينال جزيل الثواب ومنها انه يجوز العقد على اثنتين فقط والشراء والخدمة بغير حصر وعلى ما يقال انه يجوز نكاح الاخت . ومنها ان من كذب في قول او نادى شخصاً من خلفه فقد اساء وكفارته اعطاء ثلثة مثاقيل من الياقوت فان لم يجد فصيام يومين . ومنها ان شهداءهم الذين قتلوا في طهران وغيرها يجب ان يبنى لهم مشاهد مكللة بانواع الجواهر وانه يجب على اي سلطان يكون منهم ان يضع سيفه في العالم فاما الدين او الموت ولا يجوز اخذ الجزية . وانه يجب على كل واحد منهم ان يكون عنده كأس من النفضة وثوب نظيف نقي اما الكأس فيتناول بها الماء القراح الصافي واما الثوب فيجعل بوعند القراغ وانه يجوز ان يظهر بعث كامل اخر لكن بعد ان يمضي من السنين عدد حروف المستغاث يعني الفي سنة وكسوراً . ويحظر في مذهبهم الخلاع السراري والطلاق واستعمال النساء للنقاب ويصح ان يقال ان دينهم الى الان لم يقرّ على نظام واحد بل هو كالرمال السيالة تحدث بسورها تلاً في محل ثم تنتقل وتحدث تلاً اخر بشكل اخر في محل اخر

وكان من جملة دعاته امرأة فيه بارعة الجمال متوقدة الجنان فاضلة عالمة تسمى باسم سلفة من بنات احد المجتهدين في العجم وكانت متزوجة بمجتهد اخر طلقت نفسها من زوجها على خلاف حكم شريعة الاسلام وآمنت بذلك الرجل عن غيب وكانت تكاتبه ويكاتبها فكان يخاطبها في مكاتباته بغرة العين فلقبت بذلك وكانت تناظر العلماء والفضلاء مكشوفة الوجه بدون حجاب ثم لما وقعت المحاربة بين البابيين وعساكر الدولة في مازندران جيشت جيشاً وقادته مكشوفة الوجه وسارت امامه طالبة اعدائهم وفي اثناء الطريق قامت في الناس خطيبة وقالت ايها الناس ان احكام الشريعة الاولى اعني المحمدية قد نسخت وان احكام الشريعة الثانية لم تصل الينا فنحن الان في زمن لا تكليف فيه بشيء فوضع المرج والمزج وفعل كل من الناس ما كان يشتهيه من القبائح ثم قبض عليها وألبستها البرقع جبراً وحكم عليها بان تحرق حية ولكن الجلاد خنقها قبل ان اعب النار بالحطب الذي أعدّ لاحراقها

ومن احكام هذا الدين انه لا يجوز ان يضرب المعلم تلميذه اصلاً وان الزكوات والصدقات لا يجوز اعطاؤها لغير البابيين فان فقد فقير في البابيين فتصرف على من بقي على مذهب الشيخ احمد زين الدين الاحسائي

واما نسبتهم الى الاباحية (الكمون) فهذا من لوازم مذهبهم حيث ان كل من خالفهم في معتقدهم فدمه وماله هدر . واما تشاركهم في الاموال فهو من مقتضيات كل دين او مذهب جديد اذ يتعاون اهله ببذل جميع ما بايديهم ويرتفع الحجر والحرج من بينهم . فهذا ما رواه عنهم السيد جمال الدين الافغاني المشهور وغيره

(قسمت آخر مقاله سيد درباره بابيگرى)

الصفحة الاولى من مقال السيد، المنشور في فصلية «اوراق» و فيها الصورة الاصلية لجريدة «ابو نظاره الزرقا» المتضمنة للمقال

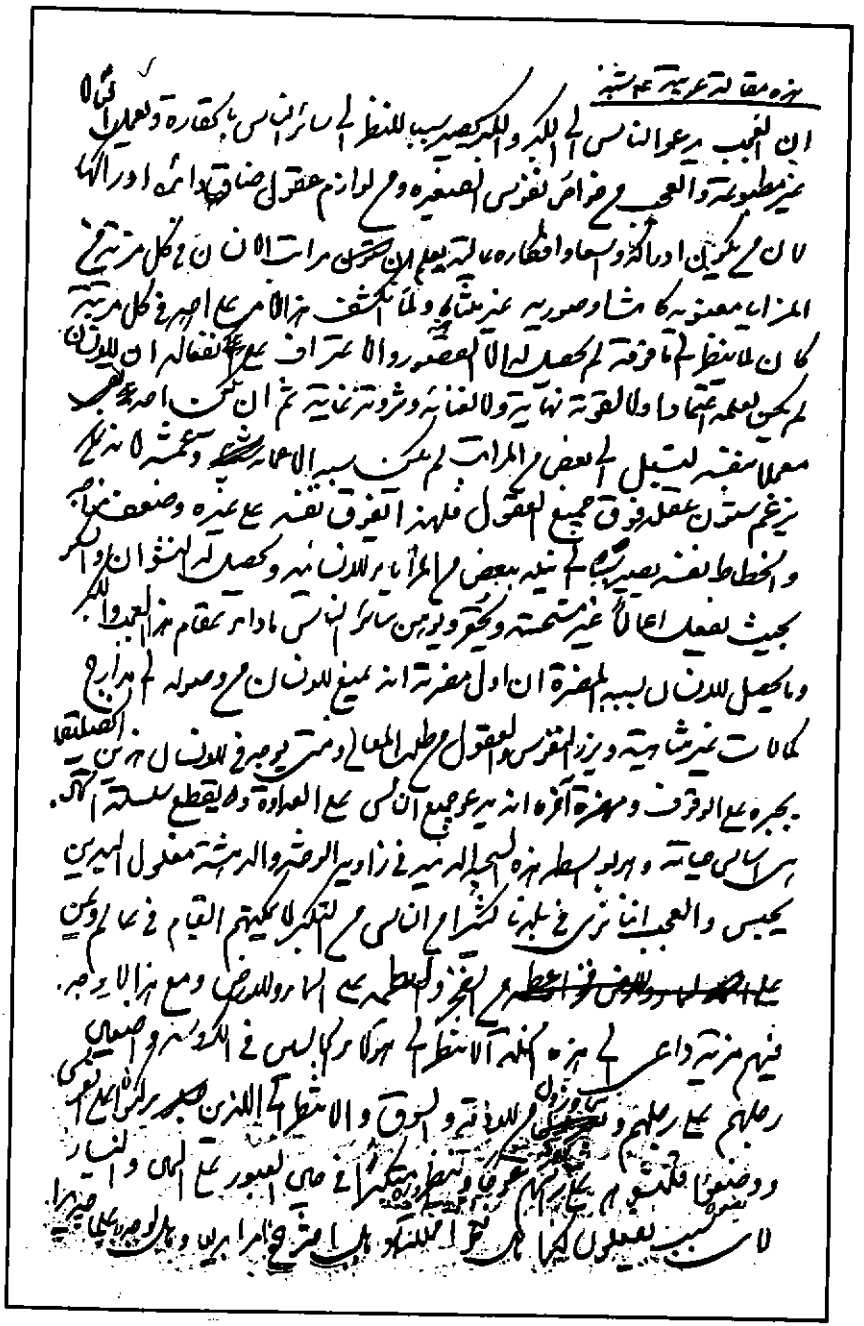

العُجب ـ مقال بخط السيد...

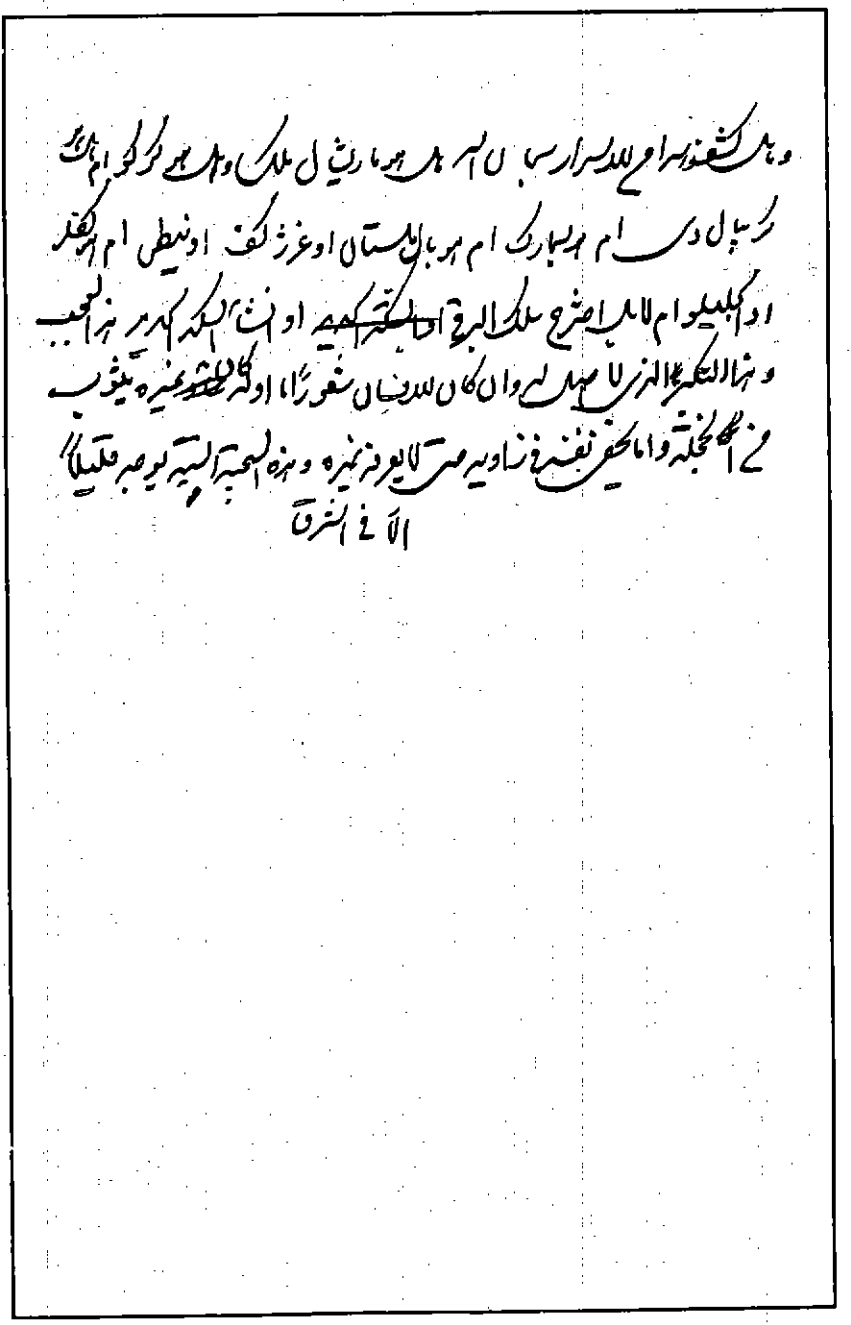

القسم الاخير عن مقال السيد حول «العُجب»

٢٣

الفهارس

الآيات، الأعلام، الأماكن

فهرس الآيات

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً... ﴾ . . هود/ ١١٨ . ٤٩

﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ . . العنكبوت/ ٤٦ . ٤٩

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ . . الإسراء/ ٨٥ . ٤٩

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾ . . النحل/ ٩٠ . ٥٠

﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً ﴾ . . النساء/ ٣ . ٥٠

﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ . . البقرة/ ١٥٦ . ٦٥

﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ . . البقرة/ ٢٠ . ٥٣

﴿ خَلَقَ الإِنسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾ . . الرحمن/ ٣، ٤ . ٨٠

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ . . الحجر/ ٩ . ٨٠

﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾ . . النحل/ ٤٣ . ٨٠

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ . . الرعد/ ١١ . ١٤٢

﴿ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ ﴾ . . الحشر/ ٢ . ١٩٠ ـ ٢٠٥ ـ ٢٠٧

﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ . . البقرة/ ٢٥٦ . ١٩٣

فهرس الأعـــلام

ابن الأثير ٣١
ابن خلدون ٣٢
ابن رشد ١٨٥ ـ ١٨٧ ـ ١٨٨ ـ ١٨٩ ـ ١٩٧
ابن سينا ١٨٥ ـ ١٨٧ ـ ١٨٩
ابن طفيل ١٩٧
ابن ماجه ١٩٧
أبو تراب ٨٨
أبو مسلم الخراساني ٣٣
أحمد أمين ٢٠٣
أحمد بن حنبل ٣٢
أحمد عرابي ١١٢
إدريس الأكبر ٣٣
أديب إسحق ٨٨ ـ ٩٤
أرسطو ٩٢
إسكندر اليوناني ١٣٩
إسماعيل باشا ٣٠ ـ ٤٣ ـ ٤٤ ـ ٧١ ـ ١١٩ ـ ١٦٥
أغناتيف (الجنرال) ٦٣
أفلاطون ٩٢
أقياليتس اليوناني ٢٤
الإحسائي (الشيخ أحمد ٧٩ ـ ٨٠ ـ ٨٣
البستاني (بطرس) ٨٣ ـ ٨٩ ـ ٩٢

البستاني (سعيد) ٨٨
الترمذي ٣٢
الجليلو (غاليله) ١٧٢
الحاجب (على بن منصور) ١٩٣
الحسن ٧٩
الحسن العسكري ٣٤
الحسين ٧٩
الحسيني (أسد آبادي) (الأفغاني) السيد جمال الدين ٥-٩-١٠-١١-١٢-٢٤-٢٥-٢٩-٣٠-٣٥-٥٣-٥٩-٦٠-٦٣-٦٥-٨٣-٨٧-٨٨-٨٩-٩٤-٩٥-١٠٨-١٢٨-١٥٦-١٧٩-١٨٠-١٨٢-١٨٣-١٨٤-١٨٥-١٨٩-١٩٠-١٩١-١٩٢-١٩٣-١٩٤-١٩٥-١٩٦-١٩٨-٢٠٠-٢٠١-٢٠٣-٢٠٨
الحكيم الأزهري (سيد أحمد) ٥٣
الساباط (جواد) ٢٠٨
السلطان محمود (الثاني) ٤٧-٥٠-٥٢
السلطان بايزيد الثاني ٥٠
السلطان سليمان ٥١-٤٧
السلطان عبد الحميد ٨٧-١١١-١٨١
السلطان عبد العزيز ١٦٥
السنوسي ٣٦
السيد علي محمد (باب) ٧٩-٨٠-٨١
السيوطي ١٩٩
الشرباصي (أحمد) ٢٠٣
الطبري ٣١
العباس ٣٣

العبيد ٣٣-٣٥
الكندي ١٨٧-١٩٧
اللقاني ٢٣
الله ٣١-٣٢-٤٨-٤٩-٥٠-٥١-٥٣-٦٥-٨٠-٨٩-١٠١-١٢٨-١٣٣-١٤٢-١٥٥-١٦٦-١٧٢-١٧٥-١٨٢-١٩٩-٢٠١
المأمون ٤٩-٦٢
المتنبي ١٩٣
المتوكل العباسي ٣٤
المسيح الدجال ٢٠٨
المسيح (عليه السلام) (يسوع ابن مريم) ٣١-٤٩-١٩٩
المولوي رحمة الله الهندي ٢٠٨
المهدي (السوداني) ٢٧-٢٩-٣٠-٣٥-٣٦-٣٧-٣٨-٣٩-٤٠-٤١-٤٤-٢٠٠
المهدي (عج) ٣١-٣٢-٣٣-٣٤-٣٥-٧٩
الهادي (الخليفة) ١٩٩
أمينة ٣٣
أولران شاه ٤٢
أهوند سيوات ٤٢
بال ملستان ١٧٢
برهما ٢٠
بزرجمهر ٩٢
بسمارك ١٧٢
بسيم بك ١١٢
بكم صاحب ١٤٨

بونابرت ١٩٨
بيكونسفيلد ٣٠ـ٦٩
تبوسلطان ١٦٣ـ١٦٤
تيمور ٧٠
چاماسب ٩٢
جرانفيل (لرد) ١١٢
جراهام بل (ألكساندر) ٢٤
چورچ كليمنصو ١٨٣
چنكيزخان ٥٩
چوستس ٧٦
حسين بن علي (أمير مكة) ١٠٨
حكيمي (محمد رضا) ٨٠ـ١٢
حليم باشا ٣٠ـ٤٣
حيدر ٦٣
خديجة ٥٠
خسروشاهي (سيد هادي) ٥ـ١٠ـ١٢
خليل غانم ٨٨ـ١٨٢ـ١٨٣ـ١٨٥ـ١٩١ـ٢٠٠ـ٢٠٢
دزرائيلي ١١٨
دوست محمد خان ١٦٤
ديولافوا ١٨٣
راتب بك ١١٢
رشيد رضا (محمد) ٢٣ـ٢٦ـ٥٩ـ١٥٦ـ٢٠٢ـ٢٠٣
رنجيت سنك ١٦٤
روشفور ١٨٣
رياض باشا ١٠٨

رينان أرنست ١٧٧-١٧٩-١٨٠-١٨١-١٨٣-١٨٤-١٨٥-١٨٦-١٨٧-١٨٨-١٨٩-١٩٠-١٩١-١٩٢-١٩٣-١٩٤-١٩٥-١٩٦-٢٠٠-٢٠١-٢٠٣-٢٠٧
زرودشت ١٠١
سعد المدني (السيد أحمد) ١١٢
سقراط ٩٢
سلطان حسين ١٦٢
سلمه ٨٣
سليم النقاش ٨٨
سمير أبو حمدان ١٧٩-٢٠٣
سودجاه (الشاه) ٧٥
شاه شجاع (الأفغاني) ١٢٣
شحاده (أنيس) ٢٠٢
شريف باشا ٧٢-١٢٠
شكيب أرسلان ٢٠٣
شير علي خان ١١٨
طاليس ١٠٠
ظافر (الشيخ محمد) ١١٢
عائشة ٥٠
عباس ميرزا ١٦٣
عبد السلام بك (المويلحي) ٨٨
عبد الله ٣٣
عبده (محمد) ٢٠١
عبيدالله ٣٤
عرابى باشا ٤٤-٧٠-٨٨-١١٢-١٤٧
عرزكف ١٧٢

علي شلش ١٧٩ـ١٨١ـ١٨٢ـ١٨٣ـ١٩١ـ١٩٩
عمر بن الخطاب ٥٠
عمر بن العزيز ٣١
عنيزة ٣٧
عيسى (عليه السلام) ٨٢ـ١٠١
غلادستون ٣٠ـ٣٩ـ٤٣ـ٦٩ـ٧٤ـ١١٨
فاطمة ٥٠
فتحعلى شاه ١٦٣
فوكلان ٢٩
فوكيلان (أرنست) ١٨٣
فونطه ٤٧
فهمي أفندي (حسن) ٦٣
فيثاغورس ٩٢
فيروزشاه ٤٨
ڤيكتور هوغو ٨٣
كروكرام ١٧٢
كريبالدي ١٧٢
كفلر ١٧٢
لايل ١٧٢
لويس (الرابع عشر) ١٩٨
ماريشال ملك ١٧٢
مازاران ١٩٨
محجوب (السيد حسن) ٥٣
محمد أبو الرشيد ٣٦
محمد حامدالله ٢٠٣
محمد (ﷺ) ٣١ـ٣٢ـ٣٣ـ٣٤ـ٣٧ـ٤٨ـ٨٠ـ٨٢ـ١٠١ـ٢٠٧

محمد علي باشا ٥٢-٧٥
محمد عمارة ١٧٩
محمود الغزنوي ١٣٩
مدحت أفندي ٦٣
مدحت باشا ١٦٤
مراد جعفر ٧١
مريم (عليها السلام) ٤٩
مصطفى باشا ١٨١-١٨٢
موسى (عليه السلام) ١٠١
مهاديو ٢٠-١٠١
ميرجعفر ١٢٠
ميرزا حسين علي (بهاء) ٨١-٨٢
نانا صاحب ١٤٨
نصرت علي ١١٢
هارون الرشيد ٣٣-٤٩
هلاكو خان ١٣٩
هنري الرابع ١٩٨
هيكز (الجنرال) ٣٠-٣٥
يحيى (صبح أزل) ٨١
يعقوب صنوع ٨٨-١٥٩-١٨٠-١٨٢-١٨٣
ينطي ١٧٢
يونس ٤٨

فهرس الأمـــاكـــن

آسيا ٧٤ـ١٢٢ـ١٦٣ـ١٨٨

أدرنة ٨١

أروپا (أوروپا) ١٠ـ١٢ـ٣٠ـ٣٧ـ٤٧ـ٤٨ـ٥١ـ٥٢ـ٧٢ـ

أسبانيا ٧٣ـ٧٥ـ١٠٣ـ١١١ـ١٢٢ـ١٥٤ـ١٦٥ـ

أصفهان ١٨٦ـ١٨٧

إفرنج ١٠٠ـ١٤٠ـ١٤٢ـ١٨٧ـ١٩٧

٤٩ـ١٦٢

٢٣ـ١٢٢ـ١٤٠ـ١٦٥ـ١٨٢

أفريقية ١١١ـ١٤٧

أفغانستان ٩ـ١١ـ٣٨ـ٤١ـ٤٢ـ٧٤ـ١١٨ـ١٢٢ـ ١٢٣

ـ ١٤٥ـ١٤٦ـ١٦٤

أكبر آباد ٢٠

الأستانة (القسطنطينية) ٤٣ـ٦٣ـ١١٢ـ١٣٩ـ١٦٥ـ١٨٠ـ١٨٣ـ

١٩٦ـ٢٠٠

الإسكندرية ٧٢ـ٩٧ـ٩٩ـ١٢٥ـ١٢٧ـ١٢٨ـ١٩٥

الأندلس ٣٤ـ٤٩ـ١٨٧ـ١٩٧

البحر الأحمر ١٤٦

البنجاب ٤٠-١٠٨-١٥٤-١٦٤
البنغال (البنجال) ٤٠-٧١-٧٣-١٠٨-١٢٠-١٥٢
الجزائر ٤٢-١١٣-١٩٠-٢٠٧
الجزيرة العربية
(شبه الجزيرة العربية) ٢٩-٤٨-١٩٠-١٩٧-٢٠٢
الحجاز ٢٩-٣٣-٣٦-١١٦-١٢٠-١٢١-١٤٦-١٤٧
الخرطوم ٣٦
الرومان (الروم) ٤٨-٤٩-٥٠-٩١-١٣٩-١٩٥
السند ٣٨-٤٠-٤٢-١٠٨
السودان ٣٠-٣٥-٤٢-١٥٦
السوربون ١٨١-١٨٤-١٨٦-١٩١-١٩٢
الشام ٨٨
الصرب ٥٢
الصين ٤٩-٥٢
العراق ٤٩-١١١
القاهرة ٢٩-٣٠-٣٣-٣٥-١٨١-١٨٢-٢٠٢-٢٠٣
القطر ١٢٣
القيروان ٤٩
الكرناتك ١٦٤
الكلدان ٩١
الكوفة ٣٣-٣٤
المحيط الأطلسي ٢٠٢

المدينة ٣٦
المسكوا ٤٧
الموصل ٣٧-٤٩
الميريت ٤٠-٤٢ ١٤٧
النمسا ٧٤-١٢٢
النيل ٢١
النيل الأبيض ٢٩
إله آباد ٢٠
الهرات (هراة) ٥٠-١٢١
الهند (هندوستان) ٩-١١-٢٩-٣٨-٣٩-٤٠-٤١-٤٢-٤٣-٤٩-٥٢-٧١-٧٢-٧٣-٧٤-٨١-٨٧-١٠٧-١١١-١١٣-١١٤-١٢١-١٢٢-١٢٣-١٤١-١٤٣-١٤٥-١٤٦-١٤٧-١٤٨-١٥١-١٥٢-١٥٣-١٥٤-١٥٥-١٦٣-١٨١-١٨٢-١٨٣-١٨٥-٢٠٠-٢٠٧-٢٠٨
اليمن ٣٣-٣٧-١١١-١٤٧-١٤٨-١٤٩
اليونان (الإغريق) ٦٠-٩٢-١٠٠-١٣٩-١٨٧-١٩٥
إنكليس (إنجليز) (إنجليزا) (بريطانيا) (بريتوس) ٩-١١-٢٠-٢٩-٣٠-٣١-٣٦-٣٧-٣٨-٣٩-٤٠-٤١-٤٢-٤٣-٤٤-٤٧-٥١-٦٩-٧٠-٧١-٧٢-٧٣-٧٤-٧٥-١٠٠-١٠٧-١٠٨-١١١-١١٢-١١٣-١١٨-١٢٠-١٢١-١٢٢-١٢٣-١٤٣-١٤٥-١٤٦-١٤٧-١٤٨-١٥١-١٥٣-١٥٤-١٥٦-١٦٣-١٦٤-١٨٠-١٨١-١٨٣-١٩٥-١٩٨-٢٠٧-٢٠٨

إيران ٩-١١-١٢-١٥٥-١٦٣-١٩٧-٢٠٠
إيطاليا ٧٤-١٩٨
أثينا ١٩٩
أذربيجان ١٦٣
أشكاباد (عشق آباد) ٧٤-١٢١
ألمانيا ٧٤-١٩٦-١٩٨
أندمان (جزائر) ٢٠٨
أود ٤٠
بابل ١٢٨
باريس ٢٩-٨٧-٨٨-١٥٦-١٦٦-١٨٠-١٨١-١٨٢-١٩٠-٢٠٠-٢٠١-٢٠٧
بخارى ٤١-٤٢-٤٩
بخران ٣٦
برمانيا ٤٠
برودا (برودة) ٤٠-١٦٤
برينى (برانيس) ١٤٢-١٩٥
بصرة ١٢١-١٦٣
بعلبك ١٠١
بغداد ٣٤-٣٧-٤٩-٨١-٨٢-١٦٤-٩٨
بلوشستان (بلوجستان) ٣٨-٤٢-٧٤-١٢٢-١٤٥
بونا (بونة) ٤٢ - ١٠٨
بيت المقدس ٨٢

بيروت ٨٣ـ٨٨ـ١٨١ـ١٨٩
تبريز ٨١
تركستان ١٩٧
تركمان ١٦٤
تركيا (تركية) ٢١ـ٣١ـ٣٦ـ٣٧ـ٣٩ـ٤١ـ٤٢ـ٤٧ـ٦٥ـ٨١ـ١٦٣
تونس ٤٢ـ٤٣ـ١١١ـ١١٣ـ١٤٦ـ٢٠٧
ثيبة ١٠١
جابرسا ٧٩
جابلقا ٧٩
جامعة الأزهر ٣٥
چاوه ٢٠٨
جدة ٢٩
چوبتور ٤١
چيبور ٤١
حران ١٩٧
حلب ٤٣
حيدرآباد ٢٠ـ١٥٣ـ١٥٤
خراسان ٣٣
خوقند ٤٢
خيفا ٤٢
دكن ١٦٤
دمشق ٤٩ـ١٨١

دولاغهير ٣٨
دهلي ٢٠-٤٩-١١٢
رايبود ٢٠
روسيا (روسية) ٢١-٦٣-٧٣-٧٤-١١٨-١٢٠-١٢٢-١٤٦-١٥٣-١٥٤-١٦٢-١٦٤
زيزينيا ٩٧-٩٩
سامراء ٣٤
سبتة ٤٩
سلافينا ١٠٠
سمرقند ٤٩-٧٤
سوريا (سورية) ٣٣-٣٧-٤٣-١١١-١٥٦-١٦٤-١٨١
سيبيريا ١٣٩
سيلان ١٤٥
شيراز ٧٩-٨٢
شيو ٢٠
صنعا ٣٦
صور ١٠١-١٢٨
طرابلس ٣٥-٤٢-٤٣
طهران (تهران) ٥٣-٨١-٨٢-١٨٢
عظيم آباد ٢٠
عكا ٨١
غرناطة ٤٩

فارس ١٣٩ـ١٦٤ـ١٨٥ـ١٨٧
فاس ٣٣
فرانسة (فرنسا) ٩ـ١١ـ٤٣ـ٧١ـ٧٢ـ٧٣ـ٧٤ـ١٤١ـ١٤٦ـ
١٨٢ـ١٨٣ـ١٨٩
فيض آباد ٢٠
قابلول ٤٩
قبرص (قبرس) ٧٠ـ٨١ـ١٢٠
قم ٩ـ١٠ـ١١ـ١٢
قناة السويس (خليج السويس)
(ترعة السويس) ٤٣ـ٧٢ـ٧٣ـ١١١ـ١١٣ـ١٢١
قوقند ١٦٤
كازخستان ١٩٧
كاشغره ١٣٩
كالكوتا ٧١
كاماتاك ٧١
كبمباي ٢٠
كراجي ٢٠
الكعبة ٨٢
كلكتا ٢٠ـ١٢٠
كندهار (قندهار) ٤٩
كورسيكا ١٩٩
كهكلي ٢٠
لاكانو ٧١
لاهور ٧٤ـ١٢٢

لبنان ١٠٠
لكهنو (لكناهور) ٢٠-١٠٨-١٦٤
لندره (لندن) (لوندن) ٨٨-١٠٨-١٨٠-١٨٢
لهستان (بولنده) ٢١
مازندران ٨٣
مراكش ٥٢
مرشد آباد ٢٠
مرو (مرف) ٣١-٧٤-١٢٢
مسجد الحسين ٢٩
مصر ٩-١١-٣٠-٣٦-٣٩-٤٠-٤٢-٤٣-٤٥-٥٢-٥٣-٦٧-٦٩-٧٢-٧٣-٧٤-٧٥-٨٧-٨٨-٨٩-١٠٠-١٠٧-١٠٩-١١١-١١٥-١٢٠-١٢١-١٢٢-١٢٦-١٢٨-١٤٣-١٤٥-١٤٦-١٤٧-١٥٦-١٦٥-١٨٠-١٨٣-٢٠٠
مكة ٣١-٣٣-٣٦-٣٧-٣٨-٤٠-٧٩-٨٢-١٠٨-١٢٠-١٤٧
منفيس ١٠١-١٢٨
ميسور ٤٠-١٦٣
نجد ٣٧
نينوى ١٠١
وشنو ٢٠
ويانة ٤٧
هملايا (هيمالايا) ٣٨-١٤١-١٤٥-١٦٥
يهوذا ٤٨

الآثار الكاملة

للسيد جمال الدين الحسيني
ـ الأفغاني ـ

دراسة وتحقيق وإعداد وتقديم :

سيد هادي خسروشاهي

١ ـ العروة الوثقى — بالاشتراك مع الشيخ محمد عبده

٢ ـ رسائل في الفلسفة والعرفان — بالاشتراك مع الشيخ محمد عبده

٣ ـ الرسائل والمقالات — بالاشتراك مع الشيخ محمد عبده

٤ ـ ضياء الخافقين — بالاشتراك مع آخرين

٥ ـ تاريخ إيران وتاريخ الأفغان

٦ ـ الرسائل والوثائق (العربي والفارسي)

٧ ـ رسائل ومقالات (بالفارسية)

٨ ـ خاطرات ـ آراء وأفكار ـ — تقرير : محمد باشا المخزومي

٩ ـ التعليقات على شرح العقائد العضدية — بالاشتراك مع الشيخ محمد عبده

١٠ ـ المستدركات (رسائل ومقالات لم تنشر حتى اليوم)

رقم الإيداع ٥٨٢٧ / ٢٠٠٢